جمعية أولي العزم الدينية
لجنة الدعوة و التراث

اسرار القران

الجزء الرابع

الامام ابى العزائم

تفسير اسرار القران
الجزء الرابع

قوله تعالى : "كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"(93).

سبب نزول هذه الآية أن اليهود قبحهم الله كانوا يتربصون برسول اللهε أن يعمل ما يخالف التوراة على زعمهم ، فلما أكلε هو وأصحابه لحم الجمل والعروق من لحوم الحيوانات الأخرى أنكروا عليه ذلك ، وقالوا أن لحم الجمل محرم فى التوراة وكيف يحل ما حرمته التوراة ، فقصم الله ظهورهم بالحجة قال تعالى **"كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ"**.

ومعنى ذلك أن كل طعام يطعمه الإنسان لم يحرمه الله تعالى فيما سبق تحريمه فى الكتب السماوية كما حرم لحم الخنزير وأكل الميتة والمسروق والمغصوب والربا ومال اليتيم ، وما حرم من المشروب كالخمر والماء النجس وغيرها ، وذلك معلوم بالتواتر من لدن نوح فمن بعده ، والله تعالى لم يحرم شيئا على إسرائيل من كل الطعام المباح ، لكن إسرائيل وهو يعقوب ابن اسحاق ابن ابراهيم مرض بعرق النسا ، فكان ذلك يؤذيه ليلا ويستريح منه نهارا ، فنذر الله نذرا أنه إذا شفاه منه يترك لحم الجمل لله وكان أشهى طعام يطعمه فشفاه الله منه فحرمه على نفسه ، وتحريم العبد على نفسه شيئا لم يحرمه الله لا يجعل ذلك الشئ حراما على غيره.

وقد جاء أعرابى إلى بن عباس رضى الله عنهما فقال أنى جعلت امراتى حراما ، قال ما كان لك أن تحرم ولا أن تحلل فأن الذى يحل ويحرم هو الله تعالى .

أقام الله الحجة بقوله **"قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"** إثباتا لأن التوراة لم يحرم الله فيها أكل لحم الجمل ، ولكنهم جهلا من أنفسهم حرموا عليهم ما حرمه إسرائيل على نفسه وفاء لنذره فأثبت الله تعالى جهالتهم وعمى بصائرهم وأنهم أضل من الجاهلية الأولى لإقتدائهم بأعمال آبائهم من غير بصيرة ، كما قال تعالى مشنعا على كفار قريش **"إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ"**[1] مع قيام الحجة ووضوح المحجة وصدق الله العظيم فى قوله تعالى : **"وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا"**[2].

"إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ" والاستثناء هنا مفرد والمعنى لكن ما حرم إسرائيل على نفسه فهو حرام عليه خاصة وليس من أحكام التوراة فى شئ.

"مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ" ذلك لأن يعقوب بن اسحاق كان فى زمن ابراهيم عليهم السلام ، وبين يعقوب وموسى عليهما السلام قرون طويلة ، ولم تأت التوراة بتحريم الجمل ، فأن اليهود قبحهم الله لو تحققوا أن هذا الحكم فى التوراة لطاروا به وشنعوا ولكن قطع الله ألسنتهم بالحجة الدامغة ، ولما لم يأتوا بالتوراة ثبت كذبهم وأنتفى صدقهم ،وقد شدد الله على اليهود وحرم عليهم ما أحله لغيرهم والأنواع التى حرمها عليهم بينها سبحانه بقول تعالى : **"وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ"**[3].

قوله تعالى : **"فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ"**(94).

([1]) سورة الزخرف آية : 23.

(2) سورة النساء آية : 88.

(3) سورة الأنعام آية : 146.

هذه الآية الشريفة أنزلها الله ليقصهم بها ظهور اليهود ويثبت افتراءهم الكذب على الله فيما أدعوه أن التوراة حرمت لحوم الإبل وألبانها وأكل عروق اللحوم كلها.

فأقام الحجة القاصمة لظهورهم بقوله تعالى : **"فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ"** الآية ومعناها أن من ظهر كذبه منا أو منهم بعد تلاوة التوراة "فأولئك" الفاء رابطة لجواب الشرط واسم الإشارة عائد إلى من ثبت افتراؤه بعد تلاوة التوراة "هم الظالمون" أى هم الكافرون الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بسبب الكذب على الله وعناد نبيه محمدε .

قوله تعالى : **"قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"**(95).

أى قل يا محمد لليهود الذين ثبت كفرهم بالله وبك ، صدق الله فيما بينه لنا من أنه سبحانه لم يحرم لحوم الإبل وألبانها ولا عروق اللحوم الأخرى بنص صريح فى التوراة ،ولا فيما قبلها من صحف الخليل وغيره ، وأن الذى حرمها على نفسه هو يعقوب بن اسحاق عليهما السلام للسبب الذى قد بيناه قبل ، وأن كان يعقوب حرمها على نفسه أولاده فذلك تحريم خاص لا يتعداهم إلى اليهود ، ودعوى اليهود من معاصري رسول اللهε أن ذلك نص التوراة باطل ، فصح أن لحوم الإبل وألبانها وعروق اللحوم طعام مباح لكل إنسان.

"فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا" ومعنى هذه الآية إذا تقررت تلك الحجة ووضحت بها المحجة ، الواجب على اليهود جميعا أن يتبعوا ملة إبراهيم حنيفا ، أى الدين الذى شرعة له ولقومه ، حنيفا أى قيما ، ولما كان دين ابراهيم الإسلام ، وكان رسول اللهε دعوة الخليل ، وهو الذى سمى لنا ديننا وسمانا بالمسلمين فى أيامه قبل بعثة موسى وعيسى عليهما السلام ، وكان ابراهيم على ما يدعى اليهود جدهم ، وهو الرسول الكريم الذى يستندون إليه ، ويزعمون بالباطل أنهم على دينة ، دعاهم الله إلى ما تنجذب إليه قلوبهم ، لو سبقت لهم من الله الحسنى حيث لا تحصل منازعة منهم ، ولا تقوم لنفوسهم النزاعة إلى الشر حجة بعد هذا.

"وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" يعنى أنهε كان مسلما رسولا من أولى العزم ، لم يحصل منه شك ولا ريب ، ولم يكن فى نفس من الأنفاس مشركا مع من أشرك بالله ، وكيف ذلك وهو خليل الله تعالى.

وبتلك الحجة أخزاهم الله وأذلهم ولعنهم وأبعدهم ، ولا يزالون على ما هم عليه من محاربة الحق وكفران النعمة ، لهذا أذلهم الله وأخزاهم وأرآنا فيهم ما يسر كل مسلم ، هم وجميع أعداء الله من بنى الأصفر وغيرهم . . .

قوله تعالى : **"إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ"**(96).

سبب نزول هذه الآية على فرض صحة تحويل القبلة قبل نزولها ، أن الله تعالى يحكم بكذب اليهود الذين قالوا أن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأنه قبلة الأنبياء جميعا ، وأن رجوع محمدε إلى الكعبة رجوع إلى دين قومه ، هذا القول فرية على الحقائق.

وجائز أن يكون سبب نزولها ، أن اليهود والنصارى كانوا يدعون أنهم على ملة إبراهيم ، فأثبت كذبهم ، وأقام الحجة عليهم بأن ابراهيم هو الذى بنى الكعبة ، وأن أتباعه فى دينه لا يخالفونه ، فأن من أركان دينه الطواف بالكعبة والحج إليها.

وجائز أن يكون تشريف الكعبة وتعظيمها ، يبين فريضة الحج وواجباته وسننه وحكمه – ومعنى هذه الآية أن الله سبحانه أخبرنا بأن أول بيت وضع للناس هو الذى ببكة ، ونحن نؤمن بخبر الله تعالى ونعتقد أن الواضع له هو الله سبحانه ، أوهم الملائكة بأذنه ، أو آدم بأمره كما ورد ذلك فى الآثار بأسانيد صحيحة رواها ابن جرير الطبرى.

ومتى أخبرنا الله بأن أول بيت وضع للناس هو الذى ببكة ، وجب على كل مسلم أن يسلم لله تسليما ، معتقدا أنه أول بيت وضع بناءه ، ووضع عاما للناس ، ووضع مباركا وهدى للعالمين ، وأنه لا يشاركه فى الأولية أى بي ، سواء وضع عاما أو وضع خاصا ، وليس ثم هناك دليل نقلى أو عقلى يثبت أولية لغير هذا البيت فى كونه عاما ومباركا وهدى أو فى بنائه.

أما بيت المقدس فقد بنى بعد موسى بزمن طويل ، والذى شاده هو داود عليه لسلام أو ايليا . ومعنى بكة مصادمة بعض الناس ببعض من شدة الزحام كما يحصل ذلك فى المطاف وفى الحرم أما البلد نفسها فتسمى مكة.

"مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ" أى فضله الله بالبركة والهدى للعالمين ، فخص الله البيت بالبركة والهدى ، وأما فى بيت المقدس فجعل البركة حول. قال سبحانه "باركنا حوله".

وجائز أن تكون البركة ما يحصل للطائفين به من الشوق إلى الله تعالى ، ومن زيادة الإيمان والرحمة والعلم بالآثار ، وأخبار العالم التى تشجع على الإنابة إلى الله تعالى ، والإقبال عليه جلا جلاله.

"**ومُبَارَكًا وَهُدًى**" حالان "**وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ**" تقدم أن بيت لك أن أنواع الهداية أربعة ، منها الهداية الى الجنة بدليل قوله تعالى مخبرا عن أصحاب الجنة "**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا**"[1] فكان الحج يهدى المسلم إلى الجنة.

وجائز أن تكون الهداية بما يحصل من مجالسة العلماء والأتقياء فى أيام الحج ، ومن تلقى علومهم وأسرارهم هناك.

وفى قوله تعالى "للعالمين" دليل على أن الله وضعه للناس جميعا وللملائكة.

قوله تعالى : "**فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**"(97).

"**فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ**" تلك الآيات البينات حسية ومعنوية أما المعنوية فهو ما يتفضل الله به على الوافدين لبيته من الآفاق البعيدة من شرح صدورهم، وطمأنينة قلوبهم ، ومزيد سرورهم بوصولهم إليه ، ووضوح الأسرار الغيبية للمؤمنين بها ، وتقوية روابط التوادد والتراحم بين المسلمين هناك ، وقبول الله توبة العصاة وأعمال المطهرين ، وكون الصلاة فيه بألف صلاة فى غيره ، والصدقة فيه بألف صدقة فى غيره ، وحفظ الحاج من دواعى الحظ والهوى والشهوة ، فأن الطائف فى طوافه حال "البك" – أى حال المصادمة من الزحام – لا يشعر الرجل بالمرأة ولا المرأة بالرجل مما ورد على القلب من نور الإحسان الساطع على القلوب ، أما الآيات الحسية فتيسير الله الخير لعمارة وحجاجه ، وأن هذا البيت الشريف لا يعلوه طير مع وفرة حمامه.

وشئ آخر وهو أن البيت يحجه في كل عام مع التوسط أربعمائة ألف[2] حاج والكل يرمون الجمار وقد مضت القرون الطويلة ولا تجد هناك حصاة.

ومن آياته أن الله يسرع بالنقمة من كل ظالم وملحد فيه ، وقد رأينا بأعيننا ما حدث لحسين بن على الذى ظلم فيه ، حتى أقام نفسه ملكا وأميرا على المؤمنين ، فأن الله تعالى لم يمهله ، وغير ذلك من الآيات التى تعلمها الأرواح الطاهرة ، وتشهدها العيون التى تنظر بنور الله تعالى.

"**مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا**" وهو المكان الذى كان يقيم فيه ابراهيم عليه السلام للعبادة وقد تعين بالسور الذى عليه ، وإن كثيرا من الحجج من يجتهد أن يصلى داخله فيحصل بذلك زحام كبير.

"**كَانَ آمِنًا**" هذه بشرى من الله تعالى لكل من حج البيت ، لأن الله يتفضل عليه فيجعله آمنا فى الدنيا والآخرة ، وقد أكرم الله البيت حتى فى زمان الجاهلية ، فكان الرجل يرى قاتل أبيه أو أبنه فلا يتكلم معه بما يوحشه ، وقال عمر بن الخطاب لو رأيت قاتل الخطاب فى هذا البيت ما أوحشته ، وكذلك قال عبد الله بن عمر وغيرهما من أئمة الصحابة ، وكان يقتل الرجل الرجل فيأتي ويأوى إلى البيت فيترك حتى يخرج منه.

وهذا هو أمن الدنيا ، وقد ثبت بالتواتر أن الوحوش لم تفترس فى الحرم فريسة ، أما أمن الآخرة فإن من دخل البيت قاصدا القيام بأمر الله تعالى ، وتأدية فريضته مخلصا بقلبه ، فلم يرفث ولم يفسق ، وكان طعامه من حلال ، وفقه الله لمحابه ومراضيه ، حتى يموت مسلما تائبا ، فيمنحه الله الأمن يوم القيامة . .

قوله تعالى : "**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا.**

الجار والمجرور فى "لله" خبر مقدم وقوله "على الناس" جار ومجرور حال و "حج" مبتدأ مؤخر والبيت مضاف إليه ، وهذه الآية الشريفة ثبت بها فرضية الحج على كل مسلم ، لأن المراد من الناس هم المسلمون خاصة لأن الله تعالى حرم على الكافرين دخول هذا البيت بدليل قوله تعالى : "**فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا**"[3] فتعين وجوب الحج على كل مسلم بصريح هذه الآية الشريفة.

وقد شرط الله تعالى لتنفيذ فريضة الحج الاستطاعة فى "من استطاع إليه سبيلا" والمعنى أن الله فرض الحج على كل مسلم بالغ مستطيع أن يؤديه بنفسه بأركانه وواجباته وسننه ، والاستطاعة هى الزاد والراحلة ، وترك ما يكفى لمن تجب عليه نفقتهم مدة الحج ، وعند المالكية وغيرهم ممن أخذوا بالعزائم أنها العافية التى تمكنه من المشى إلى بلوغه وتجعله يخدم غيره لينال قوته ، فتكون العافية بدل الراحلة والحرفة بدل الزاد.

ويجوز له أن يترك من تجب عليه نفقتهم بدون نفقة إذا كانوا ممن يمكنهم العمل للقوت.

([1]) سورة الأعراف آية : 43.

([2]) هذا الرقم كان عدد حجاج بيت الله الحرام وقت أن أملا السيد / الإمام هذا التفسير عام 1930م.

([3]) سورة التوبة آية : 28.

وخير الأمور الوسط كما ورد فى الحديث فتكون الاستطاعة محصورة فى أمن الطريق وفى الزاد والراحلة ، فمن تحصل على راحلة وزاد وتحقق أمن الطريق ، وجب عليه أن يحج على الفور خصوصا إذا بلغ الستين ، وأن اعتبر بعضهم أن من له بنات يخشى عليهم الفتنة بعد سفره فهذا عذر غير مقبول ، لأن المتزوج لا بد وأن يكون له أقارب من نسبه أو من أقارب زوجته أوله صديق مأمون يمكنه أن يقيمه مكانه ، الهم إلا إذا كان فى البادية ويخشى عليهن سطو الوحوش فأن عذره يكون مقبولا ، وهذه فريضة الحج.

وعندى أن من ترك أولاده وأهله وخرج بدون زاد ولا راحلة ، وظن أن هذا يرض الله تعالى فقد أخطأ وجهل مراد الله من قوله **"وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا"**[1] ومن لم يقبل رخصة الله تعالى وتعدى آداب الشريعة هلك مع الهالكين.

هذه الآية أحرقت قلوب أهل الإيمان ، وحكمت على الغافلين حكما لازما وهو الكفر بالله تعالى ، لأن قوله تعالى "كفر" متضمنة معنى ترك الحج ، وتكون المعنى ومن ترك الحج عن استطاعة فقد كفر بالله تعالى.

وقوله تعالى : **"فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ"** فيه دليل على أن الكفر والخطايا والذنوب كلها لا تضر الله شيئا ، ولو أن الأنس والجن والملائكة كفروا جميعا بالله ما نقص ذلك من ملكه شيئا ، ولو أن الأنس والجن والملائكة كانوا على قلب أتقى رجل واحد ما زاد ذلك فى ملك الله شيئا ن لأنه تنزه وتعالى غنى بذاته عن الاحتياج إلى المكان والزمان والمعين ، والوكيل والولد والوالد والصاحبة ، والكون عاليه ودانيه مقهور بقهره مربوب بربوبيته ، وكيف لا وهو سبحانه الذى خلق الكون من العدم بكلمة من كلماته .قال سبحانه : **"إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"**([2]).

قوله تعالى : **"قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ"**(98).

سبب نزول هذه الآية الشريفة ، أن اليهود لما أنكروا النسخ ، وأنكروا فضل الكعبة المشرفة ، وادعوا أنهم أبناء الخليل وأتباعه ، كذبهم الله تعالى بالآيات السابقة ، التى قمت ظهورهم بما بينته مما هو فى صريح التوراة ، مما لا يعلمه إلا أحبارهم وكهانهم ، ويجهله عامة اليهود ، فضلا عن مشركى العرب ، بحيث لا يعلم غيب هذا إلا الله تعالى أو من يعلمه الله به.

وبعد أن قامت الحجة ، ولم ينتفع بها اليهود عنادا وحسدا من أنفسهم ، وبخهم الله أشد التوبيخ بأسلوب الحكيم لطفا ورحمة بهم ، ليقبل من سبقت لهم الحسنى من الله ، ويعرض من سجل عليهم القضاء بسوء العاقبة ، فقال سبحانه مخاطبا حبيبه محمداع بقوله " قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله" أى لما تجحدون بآيات الله التى دلت على نبوة محمدع ، وعلى أن ما جاء به من استقبال الكعبة وفرضية حجها على الناس ، وأن دينهع هو دين الخليل عليه السلام ، وأنه موصوف فى التوراة والإنجيل بأنه خاتم الرسل ، ومبين فيهما مولده ومحل هجرته ، وأنه من ولد اسماعيل كما صرحا بذلك التوراة والإنجيل بآثار صحيحة ثابتة ، وغير ذلك ما أظهره الله تعالى على يده من المعجزات الباهرات التى لم يسبق لرسول من أولى العزم أن أظهرها الله تعالى على يده ، ومن نصرة الله له فى مواطن جهاد الأعداء وغير ذلك . .

"وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ" الجملة هنا حالية وهى تدل صراحة على أن اليهود قاتلهم الله ، كانوا يكيدون لرسول اللهع فى الخفاء ويظهرون غير ما يبطنون ، وقد تقدم الدليل بخبر الله عنهم فى قوله تعالى : **" آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ"**[3] لأن قوله تعالى **"وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ"** أى مطلع على ضمائركم ونواياكم السيئة بالنسبة لرسوله محمدع ، فجمعت تلك الآية سوء أعمالهم ظاهرا وباطنا.

والشهيد على الشئ هو الحكم العدل الذى لا يحتاج إلى شاهد يقرر له الحقيقة الواقعة ، فهو سبحانه وتعالى يشهد على خبث سريرتهم وسوء أعمالهم الظاهرة ، وهو الذى يحكم وينفذ حكمه بقدرة وقهر وقوة ، وفى هذه الآية ذكرى لمن وفقهم الله ، وعبرة لمن هداهم الله سبحانه تتجدد لهم بها محاسبة أنفسهم ومراقبة الله تعالى ، والاستفهام فى هذه الآية وفيما بعدها استفهام إنكاري.

---

(1) سورة البقرة آية : 143.
(2) سورة يس آية : 82.
([3]) سورة آل عمران آية : 72.

قوله تعالى : **"قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ"**(99).

تصدون ، ورد الفعل الماضي من هذا الفعل المضارع صد واصد ، فرويت بفتح تاء المضارع وضمها ، وهى بمعنى واحد ، أى تمنعون من آمن بالله ورسوله عن دين الله تعالى بأباطيلكم وزوركم وبهتانكم وأكاذيبكم التى تفترونها على الله تعالى.

"تَبْغُونَهَا عِوَجًا"أى تريدون أن تخدعوا المؤمنين حتى يشكوا أو يرتابوا أو يرجعوا عن دينهم بما تموهونه لهم من زخرف القول غرورا ، وإسناده إلى التوراة بالباطل ، فتحرفون كلم التوراة عن مواضعها ، وتخفون ما ورد فيها من ذكر رسول اللهε ، وتظهرون أن نبي آخر الزمان من ولد اسحاق كفرا بالله وحسدا للعرب ، مع أن إثبات نبوتهε وردت مكررة على لسان ابراهيم ، وبشرى موسى وعيسى ، وغيرهم من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقالوا بهذا الكذب بعد أن بينوا أخبار التوراة للعرب ، وكانوا يهددونهم ببعثتهε ، وبعد أن بين ذلك أحبار اليهود الذين قابلوا رسول اللهε فأثبتوا له النبوة وصدقوه ، ثم قابلوا كعب بن الأشرف فهددهم بحرمانهم مما كان يعطيهم فى كل سنة من العطايا فأنكروا ما قالوه طمعا فى حطام الدنيا ، ونعوذ بالله ممن يبيع الدين بالدنيا ويفترى على الله وعلى نبيه الكذب.

و "عوجا" بكسر العين تدل على الأمور المعنوية كالدين والأخلاق والمعاملة ، وبفتح العين يكون فى المحسوسات كالجدار والشجر والعمد.

قوله تعالى : **"وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ"** أى والحال أنكم شهداء لى ما ورد فى التوراة ، وعلى بصيرة من الأمر من أن محمداε خاتم الرسل ، وأنه هو الذى بشرت به الأنبياء ونوهت به الكتب السماوية.

وجائز أن يراد به ، أنكم شهداء على أنفسكم بأنكم تخافون نزع السيادة والرياسة من أيدكم فترجعون خدما واتباعا ، ولذلك تجحدون وتنكرون الحق وتكفرون بالله وبرسولهε حرصا على متاع الدنيا وزينتها الفانية.

"وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ"

هذه الآية صريحة فى إثبات كيدهم وسوء قصدهم وخبث نواياهم ، لأنهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا بأفواههم ، وإذا خلوا إلى شياطينهم أنكروا وجحدوا ، يظنون أن أحدا لم يعلم ذلك منهم ، ففضح الله سرائرهم ، وبين للمؤمنين سوء نواياهم بقوله تعالى **"وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ"**.

وقد ورد فى الآية السابقة **"وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ"** مما تظهرونه من أقوالكم وأعمالكم ومظاهرتكم لرسول اللهε ، وما هو سبحانه بغافل عما تخفونه عن المؤمنين من الكيد والخداع والمكر والسئ طمعا فى إطفاء نور الله تعالى ، قال سبحانه : **"وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ"**[1] ولقد ورد أن قوله تعالى : **"سَبِيلِ اللَّهِ"** يعنى محمداε.

وفى قوله "عوجا" بكسر العين ، يعنى إهلاكا فيكون المعنى تبغون بمحمدε شرا ، وما الله بغافل عن الذى تعملونه بحبيبهε ، بل هو قادر أن يحفظه منكم ، ويهلككم ويدفعكم عنه ، وينصره وينشر دينه الحق.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ"**(100).

سبب نزول هذه الآية الشريفة أنه حصل بين الأوس والخزرج كلام ، فدخل بينهما يهودى بالإغراء طمعا فى إشعال نار الفتنة بين الأنصار كيدا للدين ، وأصل ذلك أن سعد بن غنمه الأنصاري تنازع فى شئ هو وبعض الأنصار ، فانتهزها شاس بن قيس اليهودى من قينقاع ، وأسرع فى أن يوغر صدورهم ، وبالفعل أثار عاصفة من الحقد بينهم ، حتى وقع بين بعض الأوس والخزرج شجار كاد أن تسل فيه السيوف فأنزل الله هذه الآية **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا"** ينادى الأنصار من الأوس والخزرج **"إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ"** يعنى اليهود المعاصرين لرسول اللهε ، أى أن تقبلوا أقوالهم وتتأثروا بها تنتج أسوأ النتائج وهى المروق من الدين أو نشوب الحرب بينكم، وفى قتال المؤمنين بعضهم لبعض كفر بالله تعالى.

([1]) سورة الصف آية : 8.

قوله **"يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ"** أى يرجعونكم كفار يضرب بعضكم بعضا بالسيوف ، لأن الإيمان ود وقول وعمل ، ومن صدق لم يعمل كذب على نفسه بدليل قوله تعالى **"إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ"**[1].

بين الله لنا فى هذه الآية أن الإيمان حقيقة واحدة مكونة من خمسة أجزاء ، ثلاثة أجزاء قلبية وهى قوله تعالى **"إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ"** وهذا عمل قلبى **"وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا"** وهذا عمل قلبى **"وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ"** والتوكل عمل قلبى . وقوله تعالى **"الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ"** وهو عمل قلبي جسماني **"وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ"**[2] وهو عمل قلبي مالي.

ومعنى هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى يبين للمؤمنين عداوة أهل الكتاب التى تأسست فى قلوبهم ، ودعتهم إلى بذل ما فى وسعهم لإطفاء نور الله تعالى ، ومحاربة الله ورسوله ، وتلك عادتهم من أول ظهور الإسلام وحتى الآن وإلى ما شاء الله ، فما مضي زمن إلا وقام أهل الكتاب قاتلهم الله لمناوأة الإسلام وأهله ، وليس بغريب إذا أنا ذكرتك بالحروب الصليبية التى ظهرت فى ألوان كثيرة ، ويقصد بها أهل الكتاب من اليهود والنصارى محو دين الإسلام خصوصا نصارى أوربا الذين لا يفتئون يكيدون للإسلام والمسلمين.

وصدق الله العظيم **"إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ"** أى أن تركنوا وتصغوا إلى ما يبثونه من السم فى كلامهم وأعمالهم وما ينشرونه بين المسلمين من الطعن فى الدين والكذب على الله ورسوله.

"يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ" لأن إطاعة العدو تقتضى عداوة الحبيب، والله سبحانه وتعالى جعل العزة للمؤمنين وجعل الذل والخزى على الكافرين ، وكيف يرضى المؤمن أن يذل نفسه للكافر فيطيعه ، والطاعة بسماع كلامهم وقبوله كفر صريح.

وأما ما يظهره المؤمنون للظلمة المتغلبين على بلاد المسلمين من مداراة فليس بكفر ما دام القلب بالإيمان ، وما دام المسلم متحيزا إلى فئة أو متحرفا للقتال ، وأما إذا حصل الركون وحصلت طمأنينة القلب فذلك الكفر الصراح.

قوله تعالى : **"وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"**(101).

الاستفهام في هذه الآية إنكاري وليس على بابه ومعناه الاستبعاد ، فأن الاستفهام بكيف يقتضى لغة عدم علم الحال الذى يكون عليه المستفهم عنه ، تنزه الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ، فيكون المعنى استبعادا لله تعالى وقوع الأنصار فى الردة بعد قيام الحجة التى جعلت الإيمان يباشر سويداء قلوبهم ، وسكنت إليه نفوسهم واطمأنت قلوبهم ، وهم كل يوم فى مزيد مما يتوالى عليهم من آيات الله تعالى القرآنية وما يتلوه عليهم رسول اللهε من الآيات القرآنية ومن الحكمة والبيانات التى تشرح الصدور وتشهد القلوب النور وتسجد العقول للحق جل جلاله ، والتالي عليهم الآيات هو رسول اللهε .

وتلك الآية من معجزات رسولε ، فأن المخاطب بها الأنصار وقت نزولها ، ولكن الأمة جميعا لا تزال تخاطب بها وتتلى عليها من أفواه أولياء الله تعالى الفارين إليه **"وَفِيكُمْ رَسُولُهُ"**.

هذه الآية لا تخص الأنصار بالخطاب فقط بدليل تجهيل التلاوة ، فإن الله تعالى لم يسند التلاوة إلى رسول اللهε بل بنى الفعل فيها للمجهول ليكون الخطاب عاما واسعا ، ويكون الناس التالي للأنصار هو رسول الله ، والتالي لغيرهم من بقية الأمة إلى يوم القيامة العلماء العاملون أو أى تال من المسلمين.

والدليل الثانى أن قوله تعالى **"وَفِيكُمْ رَسُولُهُ"** بمعنى ذاتهε بنسبته للأنصار ، وبمعنى آثاره وأنواره والحكمة العالية المحفوظة بين أيدينا كأنهε فينا.

وهناك حجة أخرى لتلك المعنى وهو قول الله تعالى "خاتم النبيين" وقوله تعالى **"إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"**[3] وحفظ الذكر يكون بالصديقين وبإبدال الرسل الذين يقيهم الله حجة على الأرض كما قال على عليه السلام "اللهم لا تخل الأرض من قائم لك بحجة أما ظاهرا مشهورا أو باطنا مغمورا لئلا تبطل حجج الله وبيناته".

([1]) سورة الأنفال آية : 2.
(2) سورة الأنفال آية : 3.
([3]) سورة الحجر آية : 9.

إذن تلك الآية مخاطب بها كل مسلم فى كل زمان وفى كل مكان ، وأهل الكتاب لا يفتئون يحاربون الإسلام وأهله لإظهار دين المسيح ، وكل عاقل يعلم أنهم أعداء المسيح وأعداء دينه ، لأن المسيح عليه السلام يقول فى إنجيله أبى وأباكم الذى فى السماء ، فجعل نفسه عبدا مملوكا ، وطلب منا أن نكون عبيدا مثله ، وقل لمن ناداه بيا أيها المعلم الصالح منكرا هذا النداء ، أنا لست المعلم الصالح ، المعلم الصالح هو الله تعالى ، وقال من آمن كأيماني يعمل كأعمال وأكثر ، فبرأ نفسه مما ينسبه أهل الجهالة بالله إليه من تنزيهه وتقديسه ، وكيف يرضى المسيح أن يكون ربا وهو الرسول العظيم من أولى العزم الذى كان يأكل ويشرب ويتغوط ويحزن ويفرح ويؤذى ويتألم وهى صفات البشرية ، وصدق الله العظيم حيث يقول **"لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ"**[1] فأهل الكتاب من النصارى واليهود أعداء أنفسهم ، وأعداء الحق ، وأعداء موسى وعيسى ، وأعداء النبيين جميعا ، وكم قتلوا أنبياء الله تعالى وكم آذوهم ، ولا يزالون ولن يزالوا على ما هم عليه من بغض الحق ومحاربة دين الله تعالى وأهل دينه **"وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا"**[2].

ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم.

"من" اسم شرط جازم و "يعتصم" فعل الشرط ، وجملة "فقد هدى" جوابه ، وهذه الآية بشرى من الله تعالى يطمئن بها قلوبنا ويخفف عنا خوفنا من شرور أعدائنا الكافرين ، وتكون المعنى أن أهل الكتاب من النصارى واليهود يجب علينا أن نعاديهم معاداة ظاهرة وباطنة ، فلا نصدق لهم خبرا ولا نصغي بآذان قلوبنا إلى أقوالهم ولا نمكنهم من أن يسمعوننا كلاما فى ديننا ولا دينهم ، لأنهم فى كل تلك الأحوال يكيدون لنا ليردونا عن ديننا.

وكانت هذه الآية أيام كان نور القرآن ونور رسولهε مشرقين على قلوب الصحابة ، وكان أهل الكتاب فى ضعف وذل بالنسبة لما أظهره الله من القوة والعزة لرسول الله وأصحابه ، أما نحن الآن فأن اليهود والنصارى أصبحوا أهل العزة بعد أن تسلطوا علينا بالنار والبارود ، وبالكيد والخداع والدسائس ، وبواسطة تجاراتهم وصناعاتهم ، وأصبحنا مع كثرتنا متفرقين ضعفا ومع ذلك فأنهم أذلهم الله ينشرون بيننا ما لا يرضى من القول والعمل ، وترى دعاة النصرانية يجعلون الباطل حقا والحق باطلا ويساعدهم على ذلك ما وراءهم من الآلات الجهنمية.

والمسلمون فى تفرقة وخوف منهم فتراهم بين مستضعف يخشى على نفسه وماله ، وبين غافل مسارع فيهم ، فالواجب علينا فى هذا الوقت أن نتمسك بهذه الآية تمسكا ينجينا الله به من عذاب الدنيا والآخرة وقد قدر الله الفوز والنجارة بالاعتصام به سبحانه وتعالى ، وهذه الآية حجة قاطعة.

والاعتصام هو الالتجاء إلى الله تعالى والاستعانة به سبحنه بقلب موقن وجوارح مسارعة إلى العمل بمحابه ومراضيه.

وفى قوله سبحانه **"فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"** ساطعة نور من نور التوحيد الكامل ، والمعنى أن من يلتجئ إلى الله ويستعين به يتحقق أن الله تعالى هداه إلى صراط مستقيم حيث نسب الهداية إليه جل جلاله ، ومن قدر الله له أزلا الهداية إلى الصراط المستقيم فقد أحسن إليه بالفوز والنجاة فى الدنيا والآخرة.

والصراط المستقيم هو الشريعة التى شرعها الله لعباده ، وحكمه الذى كلف به آمة حبيبه محمدε ، والصراط المستقيم ، يعنى أقرب طريق يوصل إلى المقصود ، ولما كان الطريق المقصود هو ما أمرنا الله أن نعمل به بقلوبنا وأبداننا وهو الذى أنزله سبحانه ، وبما أن الذى أنزله واحد لا يتعدد كانت لفظة الصراط فى القرآن تأتى مفردة قال تعالى **"صِرَاطِ اللَّهِ"** وقال سبحانه **"اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ"** وقال هنا **"فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"**.

وهى الحجة البالغة على أن طريق الله واحد ، وهو الكتاب والسنة بعزائمهما عند الاستطاعة ، ورخصهما عند الضرورة ، والأخذ بالرخص عند الضرورة عزيمة ليس بعدها إلا الضلال المبين ، قال تعالى **" فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ"** والمؤمن يجب عليه ألا يقبل من أحد أمرا أو نهيا إلا إذا ظهرت له حجة من الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ"**(102).

([1]) سورة النساء آية : 172.

(2) سورة النساء آية : 88.

أنزل الله سبحانه وتعالى كل من صدقوه وصدقوا رسولهε من المؤمنين منزلة المقربين منه جل جلاله فناداهم "بيا" نداء القريب للقريب ، وهو الفضل العظيم الذى يختص به من يشاء من عباده فمعنى **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا"** أى يا أيها الذين صدقوا الله ورسولهε ، ولما أن ناداهم سبحانه وتعالى صغت القلوب والآذان إلى المتكلم سبحانه بكمال السمع والطاعة ، فأمرهم تنزه وتعالى وهو الأمر والناهى بقوله **"اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ"**.

والتقوى من أكمل أعمال القلوب التى عمرت بأنوار علام الغيوب ، فالتقوى هى أعلا مقامات الخوف ، ولا خوف إلا من عظيم يرجى ثوابه ويخاف عقابه ، ولما كان فضل الله العظيم متواليا وآلاؤه الجميلة متواصلة أكرم الله عبده المؤمن بالخوف منه حتى تكمل القوى الروحانية والقوى الجسمانية ، فيحسن بالخوف الإخلاص لجانبه العلى فى العمل والصدق فى المعاملة ومحاسبة النفس فى الخلوة عند حصول الأحوال ، حتى تكون واردات المؤمن وخواطره وأرادته ومختاره مراعيا فيها محاب الله ومراضيه ، ومراقبا فيها عظمة الله وكبريائه.

ومتى تجمل القلب بالتقوى تجلت أنوار الخوف من الله تعالى على الجوارح فصار اللسان رطبا بذكر الله تعالى ، والآذان صاغية لتسبيح الكائنات، وأصبحت الجوارح كلها مسارعة الى طاعة بها ، وهذه صفه المؤمن الكامل الذى كمل معنى ومبنى وصار بدلا من إبدال رسل الله صلوات الله عليهم.

وتقوى الله حق تقاته هى أن نجاهد فى الله حق جهاده ولا نخاف فيه لومة لائم ، ونقوم لله ولو على أنفسنا ووالدينا وأهلينا وأولادنا ، وبعبارة أخرى أن نذكره فلا ننساه وأن نطيعه فلا نعصاه وأن نشكره فلا نجحده وأن نعبده فلا نكفره ، مع ملاحظة شهود حقيقة لا حول ولا قوة إلى بالله حتى يصفو الورود فى حصن الشهود . .

والآية ليست منسوخة بقوله تعالى **"فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ"** لأن ذلك القول هو عين قوله سبحانه **"اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ"** فإن الله جل جلاله لا يكلف نفسا ألا وسعها ، وأمره أيانا أن نتقيه حق تقاته أى حق التقوى التى أهلنا أن نقوم له سبحانه بها.

فالتقوى أن نلاحظ عند كل حركة وسكنة وطرفة عين معية الله تعالى ، حتى قد يبلغ التقى مقاما يكون فيه الحق معالم بين عينيه ، لا يتحرك حركة إلا وهو يراقب رضاء الله سبحانه وتعالى ، ويراعى فيها السمع لرسول اللهε وهذا هو الذى أتقى الله حق تقاته ، وكم من قائم بأكمل القربات من غير رعاية ولا مراقبة وأعماله لا ترفع لأنها عادة وليست عبادة ، ولا تكون الأعمال عبادة إلا إذا تجملت بالرعاية والمراقبة ، وكم التبست العبادة بالعادة ، قال الله تعالى **"لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ"**[1].

ولما كانت التقوى معارج الوصول لنيل القبول وبلوغ المأمول ، سارعت إليها أنفس الأبرار وفطرت عليها أرواح الأطهار الأخيار ، والراغب فى الخير يجاهد نفسه أشد المجاهدة حتى يبلغ مقام الاتقاء ، وأن يكون مقربا ، فكل مسلم مؤهل أن يرقى لأعلى مقامات القرب من الله تعالى بمجاهدة نفسه فى ذات الله مع رعاية مشهد التوحيد بلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكل مؤمن يمكنه أن يصل إلى مقام يكون فيه مع النبيين والصديقين والشهداء بسهولة ويسر ويهمل مجاهدة نفسه لهو عدو لنفسه ، فبالتقوى صار بلال الحبشى ملكا من ملوك الجنة ، وسلمان الفارسى سيدا عظيما عند الله تعالى ، وكم أعز الله بالتقوى ذليلا ورفع وضيعا ، وأذل بالمعصية عظيما ووضع رفيعا ، يقول الله تعالى **"إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ"**[2].

قوله تعالى **"وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ"**

لما كانت التقوى عملا من أعال القلوب ، وكانت القلوب بيد الله يقلبها كيف شاء وكما شاء ، وقد منحنا الله تعالى الحرية والإرادة فى أبداننا فنفتح العين والفم ونحرك اليد والرجل كما نحب ، أمرنا جل جلاله أن نحافظ على تلك الجوارح بأن نلزمها أعمال الطاعات ما دامت حية ، حتى إذا فاجأها الموت فى أي نفس تتلقاه على طاعة ، وليس المعنى أن نموت مسلمين بإرادتنا وحريتنا بل أمرنا سبحانه وتعالى أن نراقب الموت فى كل نفس ، فنعتقد أن الموت بعد هذا النفس ولا نطمع فى البقاء فيهجم الأمل على القلوب فيخربها ، ولا نقف عند مقام الرجاء والطمع فى الله تعالى فنتهاون بأحكام الله تعالى ، بل يجب أن نمزج الخوف بالرجاء حتى يكون بينهما امتزاج هو مقام الخشية من الله تعالى.

([1]) سورة الحج آية 37.

(2) سورة الحجرات آية : 13.

فإذا هجم الخوف على القلب وأحرقه ، دخل عليه الرجاء فى الله فلطف ناره ، لأن من وقف عند الرجاء شطح وضل ، ومن وقف عند الخوف يئس وقنط ، والله جل جلاله عظيم قهار وكريم غفار ، ومن نسى يوم الحساب حتى دهمه الموت وهو فى غفلة خسر الدنيا والآخرة.

وما أرتكب المؤمن معصية وتعدى حدا من حدود الله ولا تهاون بشعائر الله إلا بنسيان الموت والحساب ، فكأن الله تعالى يقول وهو أعلم بمراده استحضروا الموت فى كل نفس حتى تتحفظوا من الوقوع فيما يغضب الله تعالى ، وما ذكر الموت فى وسعة إلا ضيقها ولا فى شدة إلا وسعها ، فإذا تذكر المبتلى الموت سهلت عليه بلوته ، وإذا تذكر المغرور بالدنيا المتنعم بملكها "الموت" صغرت الدنيا فى عينيه وزادت خشيته ، وهذا الحال به الإقبال على الله تعالى وتصغير الدنيا وتعظيم الآخرة.

قوله تعالى **"وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ"**(103).

الاعتصام هو التحفظ والتحرز من فقد المقصود والتمسك بما يوصل إلى نيل الخير الحقيقي ، وهذا الحبل أما أن يكون كتاب الله تعالى عند هجر العمل به ، أو يكون الجماعة عند التفرقة ، أو يكون الاخلاص لله فى التوحيد عند الشكوك والريب ، أو يكون المسارعة إلى التوحيد والإنابة عند إرتكاب الخطايا فهو فى كل حال بحسبه ، ونحن فى زماننا هذا حاجة إلى كل تلك المعانى ، بعد أن هجرنا كتاب الله وسنة رسول اللهε ، فأصبحنا عالة على من كانوا عالة علينا ، وفى حاجة إلى أن نتلقى الصناعات والفنون والحرف مما عنا نقلوها ، وصرنا فى تفرقة تحتاج إلى أن يتدخل فى شؤونا من كنا سببا فى خلاصهم ورقيهم ، فإذا اشتقنا إلى مجد سلفنا الصالح وعزهم ومنعتهم يجب علينا أن نعتصم بحبل الله تعالى وهو القرآن والسنة المطهرة ، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يمن علينا بما من به على سلفنا ، ويكون معنا كما كان معهم، ويعيد لنا مجدنا ويجعل لنا التمكين فى الأرض حتى يصلح بنا جميع خلقه.

قال عبد الله بن مسعود يا أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة فإنهما حبل الله الذى أمر به ، وأن ما تكرهون فى الجماعة هو خير مما تحبون فى التفرقة ، وكيف يميل المؤمن بالله ورسوله إلى التفرقة للذة عاجلة تفنى ، وجاه يورث ذل الأبد ، ومال قد يعين على الخلود فى نار جهنم ، ويرضى أن يذل بتفرقة جماعة المسلمين فيكون مسؤولا عنهم جميعا يوم القيامة.

أيها المؤمن المحب للخير العاجل ، هذه النفس التى تحب الخير إلا تذكرها أنها لو باعت هذا الخير العاجل المفسد للدين وللجماعة بالخير الدائم الباقى عند الله تعالى تكون رابحة ، ما الذى يناله الجاهل المغرور بالميل إلى التفرقة إذا غادرته المنية قبل أن ينال قصده ، تالله أنه ليموت على أكبر الكبائر فيحرم لذة أمله الآجل الأبدى ويخلد فى نار الشقاء والعذاب ، لأن النعمة مقولة على معنيين عند العاقل ، نعمة الشرف والعز والفرح بالمجتمع الإسلامى ، ونعمة اللذة الحيوانية فى الشهوات والشهرة الكاذبة.

وأنى لارى نعمة الشرف قد تستعلى فى البهائهم على لذتهم البهيمية ، فقد يجهد الفرس فى الجري حتى يقع صريعا ليفرح بسبق نظيره لذة بنعمة الشرف ، وقد يلقى الكلب بنفسه على السبع ليحفظ صاحبه حتى يقتل فرحا بلذة الشرف ، وقد يترك الديك غذاءه وينادى الدجاج متلذذا بلذة الشرف ، وعجبا أن تعظيم نفوس الحيوانات فتقدم لذة الشرف على لذة البهيمية التى هى فطرتها ، وتصغر نفس المؤمن حتى يدنسها بالتعسة والخيبة ليسمع كلمة جميلة أفسد لأجلها دينه ودنيا أخوته المؤمنين.

بل أعجب من هذا أن أجهل إنسان يعلم أن عز جماعته عز له ، وذل قبيلته ذل له ، وترى الجاهل يهدم مجد المجتمع ليتلذذ بأنه قريب إلى عظيم من العظماء ، أو محبب عند ذى منزلة ، والله تعالى يقول **"وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا"**.

ما هى تلك النعمة التى ينالها من ترك الاعتصام بحبل الله ، واعتصم بحبل شهواته وحظه وحبه لذاته ، لا أراها إلا أعظم نقمة ، فإنه ممقوت من الله تعالى وممقوت من رسول اللهε وممقوت من أهل عصره ، وليس الاعتصام بحبل الله بأمر صعب عليك ، تذكر أيها المؤمن أيام كانت القلوب مجتمعة معتصمة بحبل الله والأبدان عاملة لله ، ومن أنت وما كان حالك وشأنك لعلك إذا تذكرت تبكى وتحن إلى هذا المجد حنين الثكلى أو أعظم، لأن العبد المملوك المسلم يعزه الإيمان على كل من فى الأرض.

كان أصغر مسلم يمنح الأمن ويقبل فى ذمته من استجار به فينفذ له الخليفة ، كان المسلم عنوان الكمال فى نشأته ومعاملاته ورحمته ورأفته بالعالم أجمع ومسارعته إلى الخير ، وكان العالم أجمع إذ ذلك من ظلمات الجهالة والضلالة لم يهتد للخير إلا بسببك أيها المؤمن.

أيها المؤمن ، استعمرت مشارق الأرض ومغاربها ، ودان لك أصحاب التيجان ، ومكنك الله فى الأرض بالحق ، حتى فصمت تلك العروة وترك أهل الجهالة الاعتصام بحبل الله تعالى ، فتغير الحال وتبدل الشأن فلا حول ولا وقوة إلا بالله ، قم أيها المؤمن فتنبيه وبحبل الله فاعتصم ، وبسنة رسول الله فتمسك ، وجاهد نفسك أعظم الجهاد فى ذات الله تعالى ، وقد منحنا الله الإرادة والحرية والقوة ، فإذا نحن تمسكنا بأحكام شريعة الله تعالى وعلمنا بوصايا رسول اللهε جملنا الله تعالى بالرحمة ، فكنا رحماء بالعطف وبالأمانة والصدق والعفاف والغيرة له سبحانه وتعالى ، وتركنا ما يضرنا ونشطنا لما ينفعنا وتشجعنا على فعل المكاره والفضائل ، وأحب بعضنا بعضا حتى نصبح كجسد واحد يشعر الرأس بألم الأصبع وتتلذذ الرأس براحة الأصبع ، أو نكون مع كثرتنا كعائلة فاضلة يسعى كل فرد منها لخيرها ونستعين بنعم الله على ما يحبه ويرضاه ، ولديها تلذ الحياة ونفوز بمسراتها فى الدنيا والآخرة ويرثه أبناءنا من بعدنا.

يقول الله تعالى **"وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ"**.

حصر الله لنا النعمة فى أمرين عظيمين ، وهما نعمة الدنيا ونعمة الآخرة ، بدليل تفصيل ذلك فى هذه الآية ، ونعمة الله فى الحقيقة التى أوجب الله علينا أن نذكرها هى نعمته علينا بحبيبه ومصطفاه محمدε ، لأنه صلوات الله وسلامه عليه هو النعمة التى أنتجت لنا خيرات الدنيا والآخرة ، وخيرا فوق أن أسطره فى صفحات الأوراق ، والخير بالأجمال هو الفرار الى الله تعالى من الكونين ، وهذا الخير الذى هو فوق الكونين ظاهر فى ثلاث مقامات.

المقام الأول مقام معية الله تعالى .

المقام الثانى مقام عندية الله تعالى.

المقام الثالث مقام "اللدنية" أى مقام لدى الله تعالى.

بدليل قوله تعالى فى المقام الأول **"إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا"** وقوله فى المقام الثانى **"إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ"** وفى المقام الثالث **"آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا * وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا"** والعلم قد يكون بعين اليقين أو بحق اليقين.

قوله تعالى **"إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا"**.

هذه الآية الشريفة تفصيل لنعم الدنيا ، لأن الأوس والخزرج كانوا أبناء رجل واحد ولكنهم اختلفوا اختلافا أدى إلى محاربة أفسدت عليهم الحياة الطيبة ، وسلبت منهم الأمن وضيقت عليهم الأرزاق وأوقعتهم فى الأحزان والغموم ، فكان الميت فى راحة عنهم ، فلما بعث الله حبيبه محمداε وباشر الإيمان سويداء قلوبهم صاروا كالسجد الواحد ، كل واحد منهم ككل عضو من أعضاء الجسد ، يعمل كل فرد لخير المجتمع ، فصاروا فى نعيم ورغد عيش وراحة قلب وبدن وتعاون على البر والتقوى ، وطهرهم الله من عناء التفرقة وشدائد الحروب ،وملأ قلوبهم رغبة ورهبة من الله تعالى ، حتى مكن لهم فى الأرض بالحق ، فدانت لهم القياصرة والأكاسرة ، وماذا تقول فى قوم كانوا فى جاهلية عمياء صماء يأكل بعضهم بعضا يملكهم الأجنبى ولا يملكون، ويأكلهم الغريب ولا يأكلون ، عراة الأبدان حفاة الأقدام تمزقهم الشمس بحراراتها ، ليس لهم مبان يؤوون إليها ، فلما أشرقت أنوار خاتم الأنبياء ، أصبح ذلك البدوى الخشن الجائع البطن ناشف اللهاة تخدمه الملائكة ، وتدين له أصحاب التيجان وتذلك له الجبابرة الطعاة . لا بل طهر الأرض جميعها من ظلام الكفر وظلم الظلمة البغاة ونور العقول بآيات الله ، وجمل القلوب بتوحيده سبحانه ، وجعل الإنسان أخا للأنسان حتى سوى بين المكافح الرقيق وبين الخليفة الجالس على منبر النبوة لأن الحكم كان لله وبأمر الله ، وأى نعمة بعد هذه النعمة تنال فى الدنيا؟ . ليس بعدها إلا مقعد صدق عند مليك مقتدر ، هذه هى نعمة الدنيا التى يذكرنا الله بها لنذكرها فنشكرها.

أما نعمة الآخرة فهى مفصلة فى قوله تعالى **"وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا"**.

أي وكنتم بكفركم بالله تعالى وقتال بعضكم بعضا مع النسب القريب والصلة التى لا انفصام فيها على طرف جهنم ، ولما كانت جهنم هى الهاوية التى تهوى بمن يعذبهم الله فيها إلى أسلفها وكان الكفر والقتال والانتقام أسبابا للخلود فى نار جهنم ، كانوا قبل بعثة رسول الله بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بأذنه وسراجا منيرا تحقق قوله تعالى **"فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا"** أى من تلك الهاوية ، لأن الإنقاذ لا يكون من شفا الحفرة بل يكون من الحفرة عينها.

وفى قوله تعالى **"فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا"** دليل على أن العالم لا نجاة له إلا بالعمل بوصايا الإسلام ، وبذلك نعتقد أن غير المسلم محكوم عليه بالنار أبد الآبدين حيث لا وسيلة تنجيه ولا شفيع إليه يؤويه ، ولا تكون الشفاعة إلا لمن مات مسلما مرتكبا للمعاصى ، والإنقاذ هو النجاة والانتشال ، والضمير فى قوله تعالى **"مِنْهَا"** عائد إلى الحفرة التى هى جنهم لا إلى الشفا.

"كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ"

هذه الآية الشريفة جذب لقلوب أهل الإيمان الذين يتلقون القرآن المجيد من فم رسول اللهε ، فلا يسمعون منه آية من الآيات حتى تتجلى لهم معانيها تجليا يخطف الأبصار ويصعق النفوس ، وكيف لا ورسول اللهε يتلقى الفرقان عن جبريل ويتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ، وهو فى مقام الرسالة والخلافة العظمى عن الله تعالى ، يلقيه على اصحابه فكانوا لحضور قلوبهم ، والأنوار المحمدية كأنهم يتلقون من جبريل أو من حكيم عليهم ، فيسمعونه منهε بآذان رؤوسهم فتسرى أنوار التلقي إلي سويداء قلوبهم فيكاشفون بسر الغيب المصون الذى تضمنته الآية ودلت عليه.

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى يقول ما بينت فى آياتي السابقة الحقائق التى كان عليها الأنبياء السابقون والأسرار التى لا يعلمها إلا أحبار أهل الكتاب وعلماؤهم الراسخون ، فأني أبين لكم هذه البيان فى كل حقيقة من الحقائق ليحصل لكم مزيد الهداية ، لأن تلك البيانات التى يتلقاها الصحابة عن رسول اللهε ونتلقاها نحن عن إبدال رسول اللهε ينمو بها الإيمان فى قلوبنا ، قال الله تعالى **"وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى"**[1] وقال سبحانه **"وَزِدْنَاهُمْ هُدًى"**[2] وقال تعالى **"لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ"**[3] ، فلعل هنا ليست بمعنى الترجي ، وقد قدمت لك أن الترجي لا يليق بكلام الله تعالى ، لأن المترجي غير موقن بالعاقبة ، ولكن الله تعالى علام الغيوب ، ولما كانت الهداية مقولة على معان كثيرة ناسب أن نشرح قوله تعالى لعل بمعنى اللام أى ليحصل لكم مزيد الهداية.

قوله تعالى : **"وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"**(104).

اللام هنا للأمر وصيغة الأمر للأمر ، وهنا إشارة يتذوقها أهل المعرفة بالله تعالى وهى أن قوله تعالى **"وَلْتَكُنْ"** تحقيق لوقوع هذا الأمر وكان الفعل مشيرا إلى كلمة كن بدليل قوله تعالى **"كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ"**[4] فأنزل الله أمة محمدε منزلة الأنبياء فى هذه الآية تشرفنا لحبيبه ومصطفاهε ، وقد ورد فى القرآن آيات كثيرة تبشرنا بأن الله تعالى أنزلنا تلك المنازل العالية.

وقوله تعالى : **"أُمَّةٌ "**لغة ما تؤم بمعنى ما تؤم المجتمع الذى يؤمه الناس ، ولك أن تقول الأمة هى الدين والملة ، والأمة هى الردح من الزمان.

وقوله تعالى : **"يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ"** الخير هو كتاب الله وسنة رسولهε ، وبيانهما للناس قولا وعملا ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أما أن يكونا لتفصيل هذا المجمل لأن الدعوة إلى الخير عامة.

وجائز أن يكون الأمر بالمعروف هو الأمر بفروع الشريعة وبمحاب الله ومراضيه ، ويكون النهى عن المنكر ، النهى عن كل قول وعمل وحال أنكرته الشريعة.

وجائز أن تكون الدعوة إلى الخير دعوة إلى التوحيد الخالص ، ويكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بيان للقرآن والسنة بما أحله الله تعالى وما حرمه منهما.

وجائز أن يكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بدلان من الدعوة إلى الخير ، ولا يتجمل المسلم بهذا الجمال إلا إذا منحه الله تعالى نورا تستبين له له الحقائق وحبا فى قلبه يجذبه بكليته إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، فالعلم يهتف بالعمل ولا ارتحل ، ومن زعم أنه عالم ولم يعمل فقد أكبر الفرية على الله وظلم نفسه ، لأن العلم هو

([1]) سورة مريم آية : 76.

(2) سورة الكهف آية : 13.

(3) سورة الفتح : 4.

(4) سورة آل عمران : 110.

تصور النفس رسول المعلوم ، ومتى تصور النفس رسوم المعلوم ، سارعت الجوارح إلى القيام بما يطلبه العلم المتصور على جوهر النفس.

وهنا هل "من" فى منكم للتبعيض أم لا ، هناك خلاف ، فمن قائل أن كل مسلم واجب عليه أن يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ومن قائل أن هذا الحكم فرض كفاية على أهله ، فلا يجوز للمسلم أن يدعو للخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، حتى يبلغ به العلم عين اليقين ويشهده الله مقادير النفوس ، فيدعو ويأمر وينهى بأسلوب الحكيم.

وعندى أن كل مسلم يجب عليه أن يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بقدر ما يعلم ، فلا يبين الحقائق التى لا يقوى على بيانها للناس بل يسترها عنهم ، حتى تحصل لهم العناية من الله تعالى ، فيمنحهم الله النور الذى تستبين لهم به الحقائق ، أما ترك الدعوة إلى الخير وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر اعتمادا على أن هذا فرض كفاية على أهل العلم فذلك تعطيل لسبل الله تعالى ، فإن الصحابة رضوان الله عنهم ، كان الرجل منهم يجلس مع رسول اللهε النفس أو أكثر فيقوم يدعو غيره إلى الخير بقدر ما علم ، أما الذين يكشفون أسرار الغيب لمن لم يؤهلوا له فأنهم يلجئون الناس إلى أن يكذبوا الحق ، قالε "أتحبون أن يكذب الله ورسوله".

والحقيقة التى لا مراء فيها أن الله تعالى منح كل مسلم أقبل عليه بقلبه لسان حكمة ، ونور تستبين له به سبل الله ، ويلبسه حالا عليا يمكنه أن ينوع به أفكار العالم ، فإن المراد من الدعوة هو تنويع الأفكار ، وما من مخلص تجمل بالصدق مع الله تعالى إلا ألقى الله عليه محبة منه ، حتى لو أخطأ فى البيان ، يلهم الله السامعين الصواب فى ألفهم والعمل ، إلا من جعل الدعوة إلى الخير سبيلا لطلب الدنيا فإنه يفسد من أعتقد فيه ويضل من اهتدى به ، وما ظهرت التفرقة فى أمة محمدε والاختلافات التى أودت بهم ، إلا من دعاة الجهالة ، الذين يطلبون الدنيا بعمل الدين ، أعاذنا الله وإخواننا المسلمين من تلك الفتنة العمياء الصماء أنه مجيب الدعاء.

قوله تعالى : **"وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"** الإشارة عائدة إلى من فرض الله تعالى عليهم الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

و **"الْمُفْلِحُونَ"** الظافرون بكل مقاصدهم ، ومن المقاصد طلب الثواب وطلب الجنة وطلب الرضوان الأكبر وطلب الله فرارا من جميع من سواه إليه جل جلاله ، فمن أعانه الله على ما كلفه به وطلب الجنة نالها ن أو مقعد صدق فاز به ، أو الرضوان الأكبر منحه ، ومن طلب الله أكرمه الله بأن يقربه ويرفعه لديه.

قوله تعالى : **"وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ"**(105).

لما كان سبيل نيل السعادتين والفوز بالحسنيين من أعظم نعم الله علينا ، فقد تفضل الله سبحانه وتعالى بتفصيله تفصيلا جعله ماثلا أمام النفس بالآيات السابقة ، ولما كان الإنسان مهما بلغ فى الطهارة والإقبال على الله تعالى فإن البشرية لا تفارقه أبدا ، وإذا كان الأمر كذلك فالواجب عليه أن يديم مراقبة الله تعالى ومجاهدة نفسه فى ذاته جل جلاله مراعيا حكمة أحكام الله ، حتى لا يفسد العدو عليه عقيدته وحسن توكله على الله ، ولا يمزج الهوى بالإخلاص فى عمله فيسلبه الخشية من الله والرغبة فيما عنده ، وحتى لا تقوى نفسه السبعية عليه فتهوى به فى مهاوى الانتقام من الناس والحسد لهم والطمع فى ما فى أيديهم ، ولا تقهره نفسه الشهوانية فتوقعه فيما حرم الله تعالى من حيث لا يعلم ،وحتى لا يقع فيما حرمه الله بتسلط من العدو وهو يرى بذلك طاعة الله ، وهنا دسيسة يدسها العدو ليوقع المسلم فيما وقع فيه هو ، وهى تأويل صريح الشريعة بما لا يليق بالأدب مع الله تعالى ، كما تأول إبليس بالقياس فقال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين.

والسالك لا يعلم كيد العدو ، ولكن الله سبحانه بين لنا تلك الحقائق بيانا جليا فى قوله سبحانه **"إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ"**[1] وبعد أن شرح لنا ما يحبه أمرا ونهيا وترغيبا وترهيبا ، أتم نعمته سبحانه بقوله **"وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا"** فنهانا سبحانه أن نقع فيما وقعت فيه الأمم السابقة ، بما جبلنا عليه من الفطر المهملة التى إذا نحن أهملنا فى جهادها ومراقبة الله فيها أدخلت العدو علينا من حيث لا نعلم ، فأفسد الأحوال والأعمال والأقوال والآراء ، ويتمكن من العقائد فيفسدها أعاذنا الله منه.

([1]) سورة الأعراف آية : 27.

والتفرقة هى الميل والانفصال عن الجماعة ، ولا تحصل التفرقة إلا بمرض قلبى ينتجه الحسد والطمع والحرص ، والحسد داء إبليس ، والطمع مرض آدم عليه السلام ، والحرص خطيئة قابيل ، ولا يكون المؤمن مؤمنا عند الله ورسوله إلا إذا سلم صدره من الوغر ، وسلم قلبه من الميل إلى الهوى ، وسلمت نفسه من قصد السوء ، وأنزل المسلمين من منزلة الأخوة ، وسعى فى إصلاح حالهم ابتغاء مرضاه الله تعالى ، ولا يتجمل المسلم بهذا الجمال إلا بعد تزكية النفس وتحصيل العلم الذى يعمل به مجاهدا نفسه وهواه فى ذات الله.

"وَاخْتَلَفُوا" الاختلاف هو التنافر والتقاطع ، وقل أن يختلف اثنان وهما على الحق ، لأن المسلم إذا رأى أخاه على ما لا يحبه الله يجب عليه أن ينصره بإرجاعه إلى الحق بالحكمة التى سنها لنا الشرع الشريف ، ولا تسمى إقامة الحدود اختلافا ، ولا قتال الخوارج وأهل البدع المضلة خلافا ، لأن ذلك فرض كفاية على من يأمر به ، وقد وسع الله لنا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى أن رخصت السنة الكذب فى الصلح بين المتخاصمين لسلامة الصدور من الوغر ، ومن وجد أخاه مخالفا للشريعة فى حكم أو رأى ، فعليه أن يجتهد فى إرجاعه بالتى هى أحسن حتى يسد باب الفتنة ويقهر الشيطان وينصر أخاه ، ومن جهل آداب الشريعة فى مثل تلك الأمور التى تخفى على غير العلماء الربانيين ، وفتح أبواب الفتنة بين المسلمين ،وأوقع بينهم العداوة والبغضاء ، كان من أخوان الشياطين ، وقد سرى داء الأمم السابقة ، حتى وقع فيه من يجهلون حكمة أحكام الله ، فكثر الاختلاف وتقدم كثير ممن استهواهم الهوى وملكهم الشيطان وابتدعوا بدعا لا أصل لها فى الدين ، بل ولم تكن فى زمن سلفنا الصالح ، ويا ليتهم إذا نصروا آراءهم قصروها على أنفسهم حتى يسلم الناس من الفتن المضلة ، بل أشاعوها حتى فرقوا كثيرا من المسلمين وجعلوهم أحزابا يقتل بعضهم بعض ، ويلعن بعضهم بعضا ، فأنتج هذا الاختلاف تمكين عدو المسلمين منهم وتسليطه عليهم حتى جاس الديار وطعن فى الدين ، والقوم لا يرجعون إلى ما كان عليه السلف الصالح ولا يعتبرون بما آل إليه أمر المجتمع الإسلامي ، ولا يزال ولن يزال هذا الاختلاف يمزق هذا الجسد ، وسبب ذلك الحسد فى العلماء والجهالة فى أهل الطريق ، وسعى أعداء الله من الأفرنج إلى أضعاف ولادة الأمور وإرهابهم حتى انتشر الفساد وعم البلاء ، فلا تكاد تجد مجتمعا إسلاميا فى أرض إلا وأهل العصبية منهم يشتغلون بالسيادة والرياسة يناوئ كل فريق صاحبه بعصبية وقوة ، وبذلك يمكنون الأعداء منهم ويسلطونهم عليهم.

كل تلك البدع السيئة والاختلافات المبيدة للأمم لم تكن عن جهل بل كانت بعد كشف الحقائق جلية ، بدليل قوله تعالى **"مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ"** أى من بعد أن جاءتهم الأدلة والحجج والبيانات الموضحة للحقائق على لسان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مما أنزله الله تعالى فى كتبه السماوية ، ومن أجل تلك البينات ما أنزله الله تعالى على ابراهيم وموسى وعيسى من إثبات نبوة محمدε وأنه خاتم الأنبياء أى لا نبي بعده وأنه يأتى مصدقا لجميع الرسل من قبله ، وما أنزله عليه من أخبار الرسل السابقين مما لا يعلمه إلا أحبارهم والرهبان من النصارى ، ف يعلمه العامة من اليهود ولا النصارى فكيف يحيط به رجل عربى نشأ من جاهلية عمياء صماء لا علم له بالكتب السماوية ولا بالسياسة الملوكية ، وتلك الأسرار مما كتمه علماء اليهودية والنصرانية وغيروه مما فى التوراة والإنجيل ، ولكن الله كشف الستر عنهم وأوحى إلى حبيبه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم فأبت نفوسهم الخبيثة وأطماعهم الدنيئة إلا أن يجحدوا وينكروا حرصا على السيادات والرياسات.

والله تعالى فى هذه الآية يوقظ قلوبنا إلى أن نحافظ على أنفسنا من أن نقع فيما وقعت فيه الأمم السابقة ، لأن الله تعالى بين لنا كل البيان حتى قامت الحجة ووضحت المحجة على ما جاء به سيدنا ومولانا محمدε ومن وقع فيما وقع فيه السابقون ، بعد تلك البينات الجلية حكم عليه بما حكم الله به على من تفرقوا واختلفوا ممن سبقونا.

وهذا الحكم هو قوله تعالى **"وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ"** وهنا اسم الإشارة يعود على من تفرقوا واختلفوا ، والعذاب كما تقدم هو قهر فوق طاقة البشر.

وقوله **"عَظِيمٌ"** أى شديد وقعه دائم ألمه من شدة وقعه وطول شدته حيث لا شفيع ينجى منه ولا وسيلة تخلص منه.

قوله تعالى : **"يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ"**(106).

لما كانت الهموم تحبس القلب ، وكان القلب إذا أنزلت بالإنسان مصيبة يحبس بها فيختلط دم الوريد الأسود بدم الشريان الأبيض فتسود البشرة فيرى السواد فى وجه الإنسان عند همه وغمه ، وإذا بشر بخير عظيم أنبسط القلب وظهر البياض واللمعة فى وجه الإنسان ، وأعظم الهموم هم يوم القيامة خصوصا إذا كب الكافر على وجهه

فى النار ، فأن وجهه أعاذنا الله منه يعلوه السواد الفحمى ، وإذا أكرم التقى بالدخول ف الجنة أنبسط من الفرح وعلاه نور الجنة ونضارة البياض. .

أخبرنا الله تعالى بذلك بشرى للمؤمن وانزعاج للكافر ليرجع إلى الله تعالى ويقبل على الإسلام ، ولك أن تقول أنه مجاز عن سوء عاقبة الكافر وفوز المؤمن وهو سياق عربى ، وكثيرا ما نسمع من الناس تقول فلان أبيض وجهه إذ ظفر بحاجته أو دفع عنه سوء ، ويقولون فلان أسود وجهه إذا أصابته مصيبة لا قبل له بها ، نعوذ بالله من سوء القضاء وقضاء السوء.

ولما كانت رحمة الله تعالى وسعت كل شئ وقد سبق حلمه غضبه ، أفتتح سبحانه وتعالى الآية ببياض الوجه فقال "يوم تبيض وجوه" وجعل سواد الوجه مؤخرا ليطمئن قلوب المؤمنين ويفرحهم.

وقوله تعالى : **"أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ"**

الاستفهام هنا للتقريع والتهديد ، والكفر هو الجحود بنعم الله تعالى . وظاهر الآية أنها خاصة بمن أرتد عن الإسلام بعد إيمانه ، وهم اليهود الذين كانوا يبشرون ببعثة رسول اللهε ، ويقولون للعرب سيبعث فى هذا الزمن رسول ننصره عليكم ، فلما بعثε كفروا وغيروا صريح التوراة ، والذين ارتدوا بعد إيمانهم وكذلك المنافقين وأن لم يظهروا كفرهم كابريق وعبد الله بن أبى سلول.

وإذا نظرنا إلى باطن الآية نقول أن عهد يوم السبت بربكم وقبولنا من ربنا هو الإيمان الذى كنا عليه ، بدليل قولهε "كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" وعلى هذا التأويل يكون المراد بالإيمان يوم ألست بربكم.

وجائز أن تكون الآية حكما على من أرتد بعد الإيمان من المسلمين وغيرهم من لدن رسول اللهε إلي يوم القيامة.

قوله تعالى : **"فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ"**

أى بسبب كفركم بعد الإيمان بالله تعالى يوم ألست ربكم ، أو بسبب ردتكم عن الإيمان بعد إقراركم.

قوله تعالى : **"وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"**(107).

الواو هنا للعطف **"وَأَمَّا"** للشرط والتفصيل وجملة **"الَّذِينَ"** الخ معطوفة على الجملة السابقة ، وقوله تعالى **"ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ"** فقد بينت لك بياض الوجه ، وقد ورد في القرآن آيات كثيرة دالة على هذا المعنى بألفاظ متغايرة كقوله تعالى **"وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ"**[1] وقوله تعالى **"وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ"**[2].

قوله تعالى : **"فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"**

يعنى أن الذين منحهم الله الاستقامة والتقوى ، فداموا على ما كانوا عليه من كمال الإسلام والإيمان ، فهم فى رحمة الله فى الدنيا والآخرة ورحمة الله فى الدنيا هى الاستقامة والمحبة والإيثار والتوبة والاستغفار والتوفيق لمحاب الله ومراضيه ، وفى الآخرة هى العفو والمغفرة وقبول التوبة ودخول الجنة والرضوان الأكبر والأنس بمشاهدة وجه الله تعالى.

قوله تعالى : **"فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ"**

أى أن الله أكرمهم بالدخول فى رحمته الواسعة وتفضل عليهم بالدخول فيها ، وجوا ب شرط "أما" فى الآيتين محذوف وتقديره فى الأولى فيقال لكم اكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون.

وفى الآية الثانية فيقال هؤلاء فى رحمة الله هم فيها خالدون ويكون تأويل الآية على ذلك أن الكافرين هم الخاسرون والمؤمنين هم الفائزون يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

قوله تعالى : **"تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ"**(108).

الإشارة عائدة إلى ما بينه الله تعالى فى الآيات السابقة من ذكر أخبار اليهود وأهل الكتاب ، ومن سوء أعمالهم وما توعدهم به من اسوداد الوجوه والخلود فى نار جهنم ، ومن أخباره سبحانه وتعالى عن المؤمنين الذين

([1]) سورة عبس آية: 38.

(2) سورة القيامة آية : 22.

قبلوا ما جاءهم به حبيبهم محمدع وسارعوا إلى العمل به ، وما وعدهم به من بياض وجوههم ومن فوزهم بالنعيم المقيم والحسنى الدائمة ، و "تلك" بمعنى هذه ، والعرب تضع تلك موضع هذه فى اللغة الفصحى.

"وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ"

معلوم أن الإرادة نوعان إرادة مكونة وإرادة محبوبة ، فالإرادة المحبوبة كما فى هذه الآية وكما فى قوله تعالى **"يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ"**[1] وقوله تعالى **" يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ"**[2] وقوله تعالى **"يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ"**[3] وف هذه الآيات يريد أى يحب فالإرادة المحبوبة قد تكون وقد لا تكون ، أما الإرادة المكونة فهى القدر النافذ الذى لا بد من وقوعه ، وهنا نفى الله حب الظلم للعالمين لأنه سبحانه وتعالى تنزه عن الظلم ، فهو لا يحب الظلم من نفسه فكيف يحبه من غيره فتعسا للظالمين ، والظلم وضع الشيء فى غيره محله ، وأحكام الله السابقة التى هى سادة المؤمنين بالنعيم الأبدي ، هى فى الحقيقة وضع الشئ فى محله ، وبها صلاح العالم أجمع ، وإذا فهمت ما قررت لك تحققت أن الله تعالى لم يرد الظلم ، وهو مستحيل على جنابه العلي جل جلاله ، إذ هو المبدع للكائنات المالك المطلق لها . .

قوله تعالى : **"وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ"**(109).

لما أن أخبرنا الله تعالى أنه لا يريد ظلما للعباد ، بعد أن حكم على الكفار باسوداد الوجوه والخلود فى النار ،وحكم لأهل الإيمان ببياض الوجوه وخلودهم فى النعيم المقيم ، بين حقيقة استحالة الظلم من سبحانه بهذه الآية التى هى الحجة البالغة ، لأن من له ملك السموات والأرض له التصرف سبحانه بما شاء وكيف شاء ، لأنه يتصرف فى ملكه وتصرفه فضل وعدل ولا يشوبه شوب ظلم ، والظلم فى التصرف فى حق الغير ليمنع عن نفسه ضررا يلحقه أو يجدى منفعة لا غنى له عنها ، وتنزه ربنا وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ن وهو سبحانه الذى خلق الكون من العدم وخلق مافيه ، بل وخلق أعمال الخلق أجمعين.

وفى قوله تعالى **""وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ"** دليل على أنه الأول قبل كل شئ.

وقوله تعالى **"وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ"** دليل على أنه جل جلاله هو الآخر بعد كل شئ ، قال سبحانه وتعالى **"لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ"**[4].

وقال تعالى **"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ"**[5] وقال جلت قدرته **"وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"**[6] فأثبت جل جلاله أن السموات والأرض له ، وأنها مملوكة له تنزهت ذاته ، وأن من فيها وما فيها مملوك له ، فمتى ينسب إليه الظلم والكل ملكه والكل له والكل إليه والكل منه ، وفى ذكر الاسم الشريف بلفظه الظاهر فى الآية الثانية إشارة إلى أن افتتاح الوجود من الله ، وأن مرجع جميع الوجود إلى الله جل جلاله ، وأن ظهور الكون مظهر للرب سبحانه ، ولفظ الجلالة علم على الذات المقدسة وما عداه من الأسماء يخبر به عنه ، ومتى وصل العبد السالك إلى معرفة الله ، شغل عن جميع الموجودات من أعلى مرتبة بالحيرة فى ذات الله ، وفى هذه الآية إشارة لو ذاق حلاوتها السالك لأفرد الله تعالى بالقصد دون غيره.

ولهذا الاسم الشريف عند العارفين جواذب حب تجعل ألسنتهم رطبة بذكره بعد كمال السلوك ، وقوله تعالى **"فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ"** برهان حق على ذلك، قال أمير المؤمنين على عليه السلام فى حديثه الطويل "من وصفه فقد عده ومن عده فقد حده ومن حده فقد كفر به".

"وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ" ليس المراد من قوله تعالى "إلى الله" أن الله تنزه وتعالى فى مكان يعود فيه إليه الخلق كما هو ظاهر معنى "إلى" ولكن المعنى أن الله يرجع الخلق بالقهر إلى مكان ينفرد فيه إلى الله تعالى بتنفيذ إرادته ومشيئته التى قدرها على الخلق ، فلا يكون لأحد ما ارادة ولا مشيئة بل يتجلى بجلاله ربا قادرا قهارا ، ويظهر الخلائق جميعا عباد مقهورين وخلق مربوبين ينفذ فيهم سبحانه وتعالى ما قدره عليهم أزلا بسابق علمه ،

([1]) سورة النساء آية : 28.

(2) سورة البقرة آية : 185.

(3) سورة الأحزاب آية : 33.

([4]) سورة المائدة آية : 120.

(5) سورة الحج آية : 18.

(6) سورة الحديد آية : 10.

ويقضى فيهم ما شاء أن يقضيه مما وعدهم به ، للمحسن منهم جزاء إحسانه وزيادة تفضلا منه وإكراما ، وللمسئ إساءته لنفسه وظلمه لما عدلا منه جلت قدرته.

وفى هذه الآية معنى قوله سبحانه **"مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ"** أنه الملك المطلق فى هذا اليوم لانكشاف الحقائق جلية ن حتى يثبت لدى كل مخلوق أنه عبد مقهور ليس له وجود بنفسه كما كان يعتقد فى الدنيا ، بل وليس له ملك ينازع فيه ربه لجهله بالحقيقة فيها ، وفى هذا اليوم يفرح المؤمنون بفضل الله وبرحمته ، ويفرح المذنبون أمثالي بعفوه ومغفرته وإحسانه ، وتسود وجوه الكافرين المنافقين أهل الشك والريب ، وفى هذا المقام تتحقق الآية الشريفة ، من قول الله تعالى **"وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا"**[1] فإذا كب على وجهه فى نار جهنم تمنى أن يكون عدما ، ومن سبقت لهم الحسنى من الله وفقه هذه الآية فحافظ على رعاية أحكام الله ، وإنما تمنح المقامات العلية بالرعاية لا بالدراية ولا بالرواية ، وليس من خزن العلم فى قلبه وحالة كالمقصر ، كمن منح علم الرعاية فراقب الله فى كل شأن من شئونه ، وكان السلف الصالح إذا أخبر عن العلماء قال الرجال منهم فلان عالم وفلان خزانة علم.

والأمور جمع أمر ، والمراد به هنا حقائق الخلق وأعمالهم محفوظة صورها الحقيقة فى صحائف كل مخلوق بدليل قوله تعالى **"يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"**[2] ، وبدليل قولهε "إذا تاب العبد تاب الله عليه وأنسى الحفظة ذنوبه ، وجوارحه ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله وليس عليه شاهد بذنب" ، فدل ذلك أن المواد الكونية لها خاصية التسجيل وأن كانت تبدو لنا غير ذلك ، فلا يحدث إنسان حدثا فى أى مكان إلا وصورته تحفظ فى هذا المكان فتشهد بعمله يوم القيامة ، فأن قدر الله له المغفرة والعفو والإحسان ستر الله تلك الحقائق عن الحفظة وغيرهم من باب أولى ، أما الأحداث التى تحدث المعاصى والخطايا التى وقعت من الإنسان فأنها لا تتغير ولا تمحى ، ولكن الله تعالى ستار يستر ما شاء من خطايا الإنسان بعفوه ، ويبدله بإحسانه ، بدليل قوله تعالى **"فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ"**[3] . .

قوله تعالى : **"كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ"**(110).

بعد أن بين سبحانه وتعالى أن السماوات والأرض له جل جلاله وأن الأمور كلها راجعة إليه تنزهت ذاته ، فبشر أهل الإيمان بعلى مقاماتهم عنده تبارك وتعالى وبإنزالهم منازل الأنبياء الذين بعثهم الله لهداية عباده فقال **"كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ"** والجملة مستأنفة وكان هنا التى تفيد حصول شئ فى الزمن الماضى ولا تفيد انتهائه ، ولا تفيد أن هذا الفضل العظيم تغير عن هذه الأمة كما قال تعالى "وكان الله غفورا رحيما".

وهو جل جلاله لا يزال غفورا رحيما أبد الأبدين ، حكم سبحانه بخيرية الأمة الإسلامية ، ولا يزال ولن يزال هذا الحكم ثابت لها أبدا ، وتخصيص بعض المفسرين بما نقله من الروايات من أن تلك الخيرية للمهاجرين إلى المدينة من الصحابة رضوان الله عليهم ، أو لقوم بأعيانهم منهم ، فذلك تأويل لما خصهم الله من الفضل على التابعين إلى يوم القيامة ، وفضلهم رضى الله عنهم بينه القرآن المجيد بالثناء عليهم ومدحهم ، وهذا الفض العظيم لا يمنع من تفضل الله على بقية الأمة من إثبات الخير لهم إلى يوم القيامة ، وعلى تأويل أن كان تامة يكون قوله تعالى "خير أمة" حالا ، وسيان أن يقول تعالى كنتم خير أمة من حيث الشمول ، لأن كان لا تقتضي انقطاع الحكم بعد المهاجرين أو الصحابة رضى الله عنهم جميعا ، ودليل ذلك الجملة السابقة وهى قوله تعالى **"تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ"** لأنها تتضمن الحكمة فى إثبات الخيرية لهم ، والأمر بالمعروف هو الحث على ما أمرت به الشريعة مما فرضه الله ورغب فيه ودعى إليه ، والنهى عن المنكر غير مقبول من الدعاة إلا إذا كان بأسلوب الحكيم ، وبرعاية مقتضى الزمن حتى تنتج النتيجة المطلوبة منه بتنوع أفكار من يدعون ، وقد يحرم على من لم يجمله الله بأخلاقه العلية أن يدعو ، لأن دعوة هؤلاء تفرقة للأمة وتمزقها أيدى سبأ فتشب نار الفتنة ، وأن فى هذا الزمان يجب علينا جماعة المسلمين أن نراعى مقتضى الوقت رعاية تجمع شتات المسلمين ، بل يجب على كل مسلم أن يأمر بالمعروف المحبوب وينهى عن المنكر المبغوض ، ولا يتجاوز ذلك لينال رضوان الله الأكبر ، وإنما يأمر

([1]) سورة النبأ آية : 40.

(2) سورة النور آية : 24.

([3]) سورة الفرقان آية : 70.

بالمعروف وينهى عن المنكر رجال وقع بهم العلم على عين اليقين فكاشفهم الله بجواهر النفوس وبأمراضها وأسلوب علاجها ، ومن قرأ قصص الأنبياء وسيرهم علم كيف ينوع أفكار أهل زمانه.

هذه الآية أقامنا الله فيها مقام الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى إلى الأمم لدعوتهم إلى الحق ، ولو تدبر المسلم معنى هذه الآية لتضاءلت الدنيا ونعيمها فى عينه وشكر الله تعالى على ما أقامه فيه لينال بعد علم اليقين عين اليقين التى يكون فيها وارثا لرسول اللهε.

"وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ" إلى آخر هذه الآية وهو الأصل العلى وما سواها من المقامات العالية فروعها ، لأن المقصد فى هذه الآية حث الهمم على المسارعة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا بعد كمال الإيمان فى قلب المسلم.

وجائز أن الله تعالى ذكرها بعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ليبين لأهل الكتاب أن الإيمان هو أصل السعادة فى الدنيا والآخرة ، قال سبحنه وتعالى **"إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ"**[1] "ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون" هذه الآية الشريفة حكمت على أن نيل الخير فى الدنيا والآخرة متحقق بالإيمان ، وأن الشقاء فى الدنيا والآخرة بالكفر ، وكلمة "لو" هنا تضمنت معنى القسم بدليل لام القسم بعدها وقوله تعالى "آمن أهل الكتاب" يعنى صدقوا بما أنزله الله تعالى على حبيبه محمدε ، والمراد بأهل الكتاب هم اليهود والنصارى "لكان خير لهم" أى لفازوا بالخير فى الدنيا من العافية ووسعة الأرزاق ، وبالفوز بنعيم الروح فى عليين ، ونعيمي الجسم والروح فى فردوس الله الأعلى ، والسلامة من فتن القبر ومن مناقشة الحساب يوم القيامة ، لأن للمؤمن يقينا يجعل له عبادة قلبية كعبادة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم التى هى انتظار الفرج ، فلا ترى مؤمنا إلا وصدره فرح وقلبه مطمئن بنيله الخير ، الذى يعتقد أنه سعادة له فى العاجل والأجل كما قال على عليه السلام "فإن المؤمن كالفالج الياسر ينتظر إحدى الفوزتين من قداحه".

وعندى أنه قد ينال الحسنيين فى الدنيا والآخرة ، وقد يؤجل الله الحسنى العظمى ليوم القيامة.

"مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ" فالمؤمنون من اليهود كعبد الله بن سلام وأخيه ، وثعلبة وأخيه وكالنجاشى وغيره ممن أسعده الله فآمن فى عصر رسول اللهε.

"وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ" أثبت الله تعالى أن أكثر أهل الكتاب فسقوا –والفسق هو الخروج- ، يقال فسقت الحية أى خرجت من ثوبها ، كما يقال فسقت البيضة أى أخرجت فرخها ، والفسوق هنا هو خروجهم من الدين الذى ينتسبون إليه بالباطل ، وذلك لأنهم غيروا التوراة والإنجيل كفرا بالله وحسدا لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، فصاروا كفارا بموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ثم ازدادوا كفرا بإنكارهم بنبوة خاتم الأنبياء عليه السلاة والسلام . . .

قوله تعالى : **"لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ"**(111).

هذه الآية معجزة من معجزات القرآن وكله معجزات ، وهى بشرى لنا لأن الله تعالى بين لنا أن أهل الكتاب لا ينفكون يحاربوننا فى ديننا ، ولكن الله حفظنا منهم وجعل حربهم عليهم ، وعصمنا من أن ينالنا منهم إلا اذى من سب أو قذف أو جدل ، وهنا لقائل أن يقول . أن النصارى من أوربا قد أضرونا فكيف يكون الجمع بين خبر الله وبين الواقع – والجواب أن الله تعالى يقول **"وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا"**[2] وعلى المعترض أن يثبت أن رجلا من المسلمين أصابه من الكافرين أو أحس بضررهم ولو أنهم مزقوا جسمه ، لأن المؤمن يرى ذلك جهادا فى سبيل الله وفوزا بالشهادة عنده.

أما الذين يوالونهم معتقدين أنهم مؤمنون متاولين أنهم مستضعفون فى الأرض فهؤلاء ليسوا بمؤمنين ، وصدق الله العظيم ، وكذب كل متأول مخالف لصريح القرآن الكريم.

"وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ"

يبشرنا ربنا جل جلاله فى هذه الآية ، وافتتحها بأن الشرطية إشارة إلى أن مقاتلتهم لنا قليلة ، لما أظهره الله تعالى من المعجزات والكرامات الظاهرة لسلفنا الصالح أيام كانوا على الإيمان الكامل ، حين ألقي الرعب فى قلوب أعداء الإسلام ، وجعل المسلمين بالهيئة والأقدام على عظائم الأمور نصرة للحق.

([1]) سورة النساء آية : 116.

([2]) سورة النساء آية : 141.

"يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ" أى ينهزمون أمامكم ، والمنهزم يعطى ظهره للمطارد له ، وذلك مما يلقيه الله فى قلوبهم من الرعب ، وما يمد الله به المسلمين من التأييد بالملائكة الذين يراهم الكفار فى صور الأناسي يفتكون بهم فتكا.

"ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ" أن أنهم بعد هزيمتهم أمامكم يجتهدون أن يكيدوا لكم بجمع الجموع فيخذلهم الله ويذلهم ولا يجدون ملجأ يلجئون إليه ولا قوة يستعينون بها عليكم ، وهذا خبر فيه بشرى من الله لأهل الإيمان به الذين حافظوا على آداب الكتاب والسنة ولم يخرجوا عن أصول الإيمان.

أما الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا وأحزابا يتنافسون فى الدنيا رياسة ووظائف فليسوا ممن أخبرهم الله بهذه البشرى ، لأنهم لو كانوا على ما كان عليه سلفنا الصالح لما سلط الله عليهم أهل الكتاب من النصارى واليهود ، فإنا نرى كل مجتمع إسلامي قد تسلط عليه دول الظلم من الافرنج النصارى ومن الاذلاء اليهود ، وها نحن فى كل مجتمع نرى العزة التى كانت تبدلت بذل ، والسلطان الذى كان لنا تبدل باستعبادنا ، وبعد أن كان النصراني واليهودي أرقاء يباعون فى بدلانا أو أهل ذمة يدينون لنا أصبحنا نراهم سادوا وشادوا وتمكنوا منا وأصبح المال فى أيديهم والسلطان لهم وذلك بمخالفتنا لسنة رسول اللهε ولا حول ولا قوة إلا بالله ، قال تعالى **"إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ"**[1].

والرجوع إلى هذا المجد سهل علينا أن شاء الله ، ولا يكلفنا إلا الرجوع إلى ما كان عليه سلفنا الصالح ، والثقة بالله والعمل بسنة رسول الله وإصلاح ذات بيننا ، والنظر إلى جميع المسلمين بعين الرحمة والعاطفة ، وبر الوالدين ، وصلة الرحم وتعظيم الكبير عنا واحترام مساوينا ، ورحمة صغيرنا وحب اخوتنا ، وإيثار المسلمين بالخير ، وبغض غير المسلمين ولو بذلوا لنا ما فى وسعهم ، وذلك معاملة لله ولرسولهε ، وشكرا له سبحانه حتى يمنحنا المزيد منه.

وبهذا التقرير ثبت أن الله تعالى وعد بهذه البشرى أهل طاعته ، فأن الإيمان قوله وعمل واعتقاد ، فمن أعتقد ولم يقل فهو كافر ، ومن اعتقد وقال ولم يعمل فمنافق ، ومن عمل وقال ولم يعتقد فهو منافق أيضا وضال مضل ، ولو أن أربعين رجلا من المسلمين كانوا على قلب رجل واحد من السلف الصالح لما جعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ، قال تعالى **"وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ"**[2].

ولو علمت أن ترك صلاة العشاء والصبح فى جماعة نفاق ، فأن النفاق قد يكون عمليا واعتقاديا ، فالعملي ترك أداء الواجبات الشرعية فى أوقاتها وهو فى الخطايا ، والنفاق الاعتقادي أن يكفر بقلبه ويظهر الإيمان بجوارحه وهو الكفر الصريح ، بل أشد من الكفر فأن الكافر علمه المؤمن فاتقى شره ، أما المنافق فالشر كله منه ، وأن من النفاق العملى الذى يوقع فى الكفر أن يطلب الرجل الدنيا بعمل الآخرة ، ويظهر للناس الصلاح والتقوى ويخفى فى قلبه الطمع والشر ، ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه قال تعالى **"إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ"**[3] يعنى أن هذا المنافق الذى يطلب الدنيا بعمل الآخرة ، يراه الناس مؤمنا وليا ويراه الله كافرا غويا ، وهو الشيطان الذى أخبرنا الله عنه أنه يرانا مخدوعين مغررين فينهب أموالنا ويكشف عوراتنا ، ونحن نراه وليا صالحا وهو عند الله خبيث ، أذن لا وجه لمعترض أن يتساءل كيف **"وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ"** ونحن نرى المسلمين يفرون أمامهم ، فنقول أن كل من أنهزم أمام الكفار وفر من قتالهم فليس بمؤمن.

قوله تعالى : **"ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ"**(112).

معنى ضربت أى لزمت ، كما يدك الإنسان الشئ فى الشئ فيضرب عليه، والذلة بكسر الذال هى الذل ، والذلة التى ذكرها الله هنا هى أنواع كثيرة منها اضطرارهم للمسلمين واحتياجهم إليهم وظهورهم بمظهر المسكنة والخزى والصغار ، وضرب الجزية عليهم وتمزيقهم فى البلاد أيدى سبأ من غير أن يكون لهم وإلى ولا أمير.

"أَيْنَ مَا ثُقِفُوا" أن أينما وجدوا وحلوا ، وفى هذه البشرى بانتصار الإسلام وتمكينه فى الأرض وعزة المسلمين.

([1]) سورة الرعد آية : 11.
(2) سورة يوسف آية : 106.
([3]) سورة الأعراف آية : 27.

"إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ" والحبل هنا هو العهد ، وهو العصمة من الله لهم بإنزال الأحكام التى تبيح لنا أخذ الجزية منهم وإبقاءهم أحياء ، فأن الحكم الشرعى أولا كان القتل أو الإسلام ، ثم وسع الله الأمر فجعل الحكم الإسلام أو القتل أو الجزية ، والاستثناء هنا متصل والمراد منه أن ذلة القتل ترفع عنهم الجزية وتدوم لهم أنواع الذل الباقية التى ذكرت قبل ، وليس الاستثناء لرفع كل أنواع الذل عنهم.

وما وجدت أمة مسلمة متمسكة بالكتاب والسنة إلا وكان النصارى واليهود أما أرقاء لهم يباعون ويشترون ، أو أهل ذمة يكلفون بدفع قليل من أموالهم جزية حتى لا يتناسوا ذلهم بسبب دينهم ، والله تعالى أسأل أن يعيد لنا مجد سلفنا الصالح بتوفيقه لنا من القيام بمحابه ومراضيه.

والحبل من الناس هو تنفيذ أحكام الله التى ينزلها رحمة منه بترغيب اليهود فى الإسلام ولكنهم قاتلهم الله هم كما قال تعالى **"ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا"** فلا يزالون أشد الناس عداوة وأحرص على كيدهم وآثارهم ماثلة أمام أعيننا بفلسطين ، فجدد الله للمسلمين ما كان لسلفهم حتى نكون على الإيمان الكامل فيمنحنا الله تعالى العزة ويمكن لنا فى الأرض بالحق ، فيعود الخزى والذل والصغار على اليهود كما كان أنه مجيب الدعاء.

"وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ" يقال باء بالمكان سكن فيه ولزمه ، والمعنى فلزمهم غضب من الله كما يقال تبوأ الرجل المكان ، وقد تقدم معنى هذه الآية فى سورة البقرة.

"وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ" هى البلاء الذى يلزم الإنسان التراب فيسكن إليه ، ومنها المسكين ، كما أن الفقر هو كسر فقار الظهر الذى يلزم الإنسان السكون إلى التراب أعاذنا الله تعالى ، وهى بشرى لنا بعد بشرى وتتحقق تلك البشائر برجوعنا إلى ما كان عليه سلفنا ، ومن دلائل إيمان الأمة أن تكون فى عزة بالله على أعدائه جميعا.

وسبب نزول هذه الآية خاص بأهل الكتاب لارتباط الآيات بعضها ببعض ، ولكن الحكم عام لجميع من كفر بالله تعالى فرق بين أهل الكتاب وغيرهم فيه.

"ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ" سبق أن الله تعالى أخبرنا بقوله **"كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ"** وبين لنا حكمة ذلك بقوله **" تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ"** وهنا أخبرنا سبحانه أنه ضرب الذلة والمسكنة على اليهود وأنهم باؤا بغضب من الله ، ثم بين سبب ذلك بقوله **"ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ"** واسم الإشارة هنا عائدة إلى ما تقدم فى الآية السابقة من ضرب الذلة والمسكنة وإنهم باءو بغضب من الله ، والكفر بآيات الله جحودها وإنكارها ، وآيات الله ما أنزله من كتبه السماوية ، وخصوصا فى التوراة والإنجيل من ذكر سيدنا ومولانا محمدε أو أحكام وبيان مقامات أنبيائه ، وهم فى كل ذلك يكفرون ويجحدون ، وهى الخطيئة التى لا يغفرها الله أبدا إذا مات الإنسان عليها.

معلوم أن قتل الأنبياء لا يكون إلا بحق ، وقد بينا فى سورة البقرة معنى بغير الحق ، ولا يكون القتل بالحق إلا لمرتد أو قاتل أو زان محصن ، كون قتلهم الأنبياء للحظ والهوى والهوى أخو العمى ، كما قتل زكريا ويحيى وغيرهما عليهما السلام ، أما دعوى النصارى بأن عيس عليه السلام صلب فقد كذبهم الله تعالى وكذبهم الإنجيل الذى رواه برنابا ، والحقيقة فيما سق أن الذى صلب هو يهوذا الاسخربوطى ، وقتل أنبياء الله إنما يدعوا إليه ما جاءوا به عليهم الصلاة والسلام من قهر النفوس الخبيثة والنفوس الجامحة للظلم ، والتمكين فى الأرض بالباطل ، والنفوس العنادية التى تنازع الربوبية بكيد وخدع يظهرون من نفثات إبليس ، فيفسدون العقائد ويسيئون إلى أخلاق العالم ويخرجونهم من النور إلى الظلمات ببدعهم المضلة وأهوائهم المفسدة وهم كثير ، وتلك النفوس لم تمحى من على وجه الأرض ، فهم فى زماننا هذا لا ينفكون يحاربون الله ورسوله بما يخدعون به أهل الغرة من البسطاء ، فيخالفون الله ورسوله ويبتدعون بأهوائهم ما لم ينزل الله به سلطانا ، وما كاد المسلمون يدفعون شرور الصليبيين عنهم حتى ظهرت الفتنة من أدعياء الإسلام وهم ليسوا منه فى شئ ، وهم طائفتان كما قال على عليه السلام "إنما قصم ظهرى فئتان من الناس عالم متهتك وناسك جاهل" ، وقد عظم شأن هاتين الطائفتين وأنتشر دعاة الصليبية بين المسلمين ، فأصبح الذائدون عن حياض الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح يسألون الله إغاثة الإسلام والمسلمين من شرور أهل البدع من المدعين الإسلام بالباطل ، ومن شر الافرنج الذين يحاربون الدين بما ينشرونه على السنة جنودهم المسلحة بما وراءهم من قوة الحديد والنار ، وبما يجدونه من مسارعة من فى قلوبهم مرض إلى تقليد الافرنج ، وما من آية من الآيات السابقة لا وجرت بذيلها أقواما فى تلك الأمة ، رزقنا الله الرجوع إلى ما كان عليه سلفنا الصالح حتى يعود لنا التمكين فى الأرض بالحق.

"ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ" الإشارة هنا عائدة إلى ما أخبرنا الله به من ضرب الذلة والمسكنة عليهم من كونهم باؤا بغضب من الله ، كل تلك الحقائق من العذاب والنقم حكم الله بها عليهم لما تقدم منهم كما قال تعالى **"بِمَا عَصَوْا"** أى خالفوا ما أنزله الله على أنبيائه.

وقوله تعالى **"وَكَانُوا يَعْتَدُونَ"** أى باعتدائهم والاعتداء هو الخروج عن الوسط والتصرف فى حق الغير بما لا يرضيه ولا يوافق مصالح العباد.

قوله تعالى : **"لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ"**(113).

ولك أن تقول من أهل الكتاب بيان ليسوا سواء ، ويكون المراد بهذه الآية هم عبد الله بن سلام ومن أسلموا معه من اليهود ، وتكون الجملة المقابلة لها محذوفة للاكتفاء بتلك الآية ، والمحذوف يكون ، وأمه كافرة جاحدة وقد تقدم ذكرها فى قوله تعالى **"مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ "** تقدم الكلام عليها.

"قَائِمَةٌ" صادقة القيام بالمسارعة إلى العمل بكتاب الله وبسنة رسول اللهε.

وجائز أن يكون المراد بالقيام ملازمة العمل مع الاستمرار ومطابقته لآداب الشريعة.

وقوله تعالى **"يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ"** ظاهرة هذه الآية أنهم كانوا يتلون القرآن فى الصلاة لأن السجود هنا عبارة عن الصلاة الشرعية ، وعلى ذلك فأنهم كانوا يصلون العشاء الأخيرة فى جوف الليل ويصلون الصبح فى الغلس.

وقوله تعالى **"آنَاءَ اللَّيْلِ"** يعنى ساعات الليل ، وآناء الليل جمع آن أو آنى مقصورا ، وذلك لأن قراءة القرآن فى الصلاة فريضة وللقرآن فيه هو الفاتحة قال الله تعالى **"وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا"**[1] أى إذا قرأ الإمام القرآن فى الصلاة فالواجب على من يسمعه أن يستمع منه ، وعلى البعيد الذى لا يسمعه أن ينصت ، والواو فى "وهم" للحال ، والجملة حالية وكان ذلك عمل أصحاب رسول الله.

وقوله تعالى **"آنَاءَ اللَّيْلِ"** أى أنهم لا ينامون الليل ، والحقيقة أن الله تعالى جعل لمن يصلى العشاء والصبح فى جماعة أجر قيام الليل كما ورد فى الحديث "من صلى العشاء والصبح فى جماعة فقد قام الليل كله" ، وكما قال الله تعالى **"كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ"**[2] أى كانوا يصلون الصبح والعشاء فى جماعة فكتب الله لهم قيام الليل كله.

قوله تعالى : **"يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ"**(114).

أى أنهم يصدقون الله تصديقا جعلهم يتمثلون حضرته وكبرياءه وقدرته وحكمته فيقوى يقينهم بما أخبرهم به من الغيب المصون ، ويسارعون بإخلاص إلى عمل ما يحبه ويرضاه رغبة فى نيل رضوانه والفوز بنعيمه المقيم يوم القيامة وخوفا من غضبه الذى يوقع فى عذاب جهنم.

"وَالْيَوْمِ الْآخِرِ" لما كان اليوم الآخر هو يوم البعث الذى صدق به المسلم بحجة خبر الله تعالى عنه تصديقا جعله كأنه يراه عند طاعته ومعصيته لقوة تصديقه به ، حتى كأنه يرى جهنم بعينى رأسه ويرى الجنة كذلك بدليل قوله تعالى **"كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ"**[3] يعنى ف الدنيا وقال كذلك **"ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ"** يوم القيامة فكأن المؤمن يرى جهنم فى الدنيا بعلم اليقين ثم يراها يوم القيامة بعين اليقين ، وينجيه الله من عذابها بسبب رؤيته لها فى الدنيا فملأ قلبه خوفا من الوقوع فيما يوبقه فيها ، ومن ضعف علمه لا يرى جهنم فى الدنيا فيرتكب ما حرمه الله تعالى من المعاصى لنسيانه يوم الحساب ، فقد يكذب ويسرق وينظر إلى الحرام بل قد يرتكب الكبائر من الفواحش والخطايا أعاذنا الله تعالى من عمى البصيرة.

والبرهان الذى يقوم على كمال الإيمان هو الإيمان بيوم القيامة ودوام ذكرها قبل كل عمل من طاعات الله ويبتعد عن المعاصى ، ومن نسى يوم القيامة كان من أهل جهنم ولا محالة قال تعالى **"وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا"**[4] وقال تعالى "بما نسوا يوم الحساب" ومسلم لا يعتقد أن الموت حق وأن الذين سعدوا يدخلون

([1]) سورة الأعراف آية : 204.
([2]) سورة الذاريات آية : 17.
(3) سورة التكاثر آية : 5 ، 6.
([4]) سورة الجاثية آية : 34.

الجنة وأن الذين شقوا يدخلون النار ، كيف يراقب الله تعالى العظيم وهو لا يعتقد أن الإيمان بيوم القيامة حصن الأمن للمسلم ، ونسيان يوم القيامة هو الشقاء الأكبر.

قوله تعالى "واليوم الآخر" وقد بين الله تعالى فضل الذين يؤمنون بالله وباليوم الآخر فى آيات كثيرة من القرآن المجيد وشرح لنا ما تفضل الله به عليهم من حسن الجزاء ، كما بين لنا ما يناله من نسى يوم الحساب فى آيات كثيرة ، من شديد العذاب وأليم العقوبة والطرد والغضب وحرمانهم من شهود جمال الله تعالى.

"وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ" معلوم أن الأمر بالمعروف هو أن يبين للمسلمين ما كان عليه رسول اللهε وأصحابه فى كل شأن من الشؤون ، حتى يعمل بسنتهε ، وقد تقدم بيان ذلك ، وأما النهى عن المنكر ، فالمنكر ما أنكره الله ورسوله من قول أو فعل أو حال ، والنهى عنه هو تنويع أفكار الواقعين فيه ليتركوا العمل به إنابة إلى الله تعالى **"وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ"** أى أنهم يتمثلون وقوع الموت فيحافظون على أنفاسهم قبل هجوم المنية عليهم ، قال تعالى **"فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ"**[1] فمسارعتهم إلى الخيرات حرصا على الأنفاس أن تصرف فى غير طاعة.

"وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ" الإشارة هنا إلى من بين الله صفاتهم من الآيات المتقدمة ، وهذا الحكم من الله تعالى شرف لمن جملهم الله بتلك الصفات ، لأن الذين أخبرنا الله عنهم أنهم صالحون هم رسله وأنبياؤه عليهم الصلاة والسلام ، فقد وردت الآيات الكثيرة أن الصالحين هم رسل الله ، قال تعالى مخبرا عن ابراهيم **"رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ"**[2] وعن يوسف عليه السلام **"وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ"**[3] ، فهؤلاء الأنبياء عليهم السلام سألوا الله أن يلحقهم ويدخلهم فى الصالحين ، والله تعالى يخبرنا أن من وفقهم لما مدحهم به من الصفات هم من الصالحين ، وكفى بهذا الخبر من الله شرفا ورفعة لهم جعلنا الله منهم ، والصالحون عند الله تعالى ضنائنه الذين أفردهم لذاته ، وأقامهم خلفاء عنه فى الأرض لأعلاء كلمته وبيان محابه ومراضيه رضى الله عنهم وعنا . .

قوله تعالى : **"وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ"**(115).

معنى هذه الآية الشريفة أن الله يطمئن قلوب من وفقهم للقيام لحضرته بما وصفهم به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله ، أن كل أعمالهم التى يعملونها بقلوبهم وجوارحهم فى السر والعلانية فأن الله عليم بها لا يخفى عليه شئ منها ، وأنه تبارك وتعالى متفضل وعدل فى أحكامه فيوفق لطاعته من يحبه ثم ينسب العمل إليه فضلا منه ، ثم يحسن إليه بأن ينعم عليه بخير جزاء على العمل بفضله سبحانه ، وهو جل جلاله كما أنه عليم بالمتقين خصوصا فأن خبره هذا بشرى تقوى بها همهم بالإقبال على الله وبمجاهدة النفس فى ذات الله ، وهو يعلم بغير المتقين ن وتخصيص المتقين هنا للعناية بهم ولرفعة قدرهم فى الدنيا والآخرة ـ فأن المسلمين إذ رأوا من جملهم الله بهذا الجمال يعظمونه ويجلونه ويسارعون فى مساعدته والانقياد له فى الدنيا، وأنه سبحانه يرفعهم ويكرمهم بأن يجلسهم على منابر من نور قدام عرشه.

وجائز لك فى قراءة هذه الآية أن نقول – وما يفعلوا من خير فإن يكفروه – بالياء فى الفعلين على سياق الغيبة خبرا عمن أثنى الله عليهم بالصفات الممدوحة المتقدمة ، وتقرأ بالتاء – وما تفعلوا من خير فلن تكفروه – على سياق الخطاب لهم ، ويكون المخاطبون هم من مدحهم الله بتلك الصفات المحبوبة لحضرته العلية.

ومعنى فلن تكفروه – أى فلن تجحدوه ولن تحرموا ثوابه وجزاءه الحسن ، لأن الله ذو علم به قال تعالى **"وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا"**.

قوله تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"**(116).

بعد أن ذكر الله الكافرين وسوء أعمالهم ،والمؤمنين وما تفضل به عليهم من القيام لله بما يحبه ويرضاه ، بشر المؤمنين بقوله **"وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ"** وبأنه عليم بالمتقين ، وبأن ما يعلمونه مما يحبه لن يكفروه ، ثم بين سبحانه وتعالى ما حكم به على الكافرين جزاء كفرهم ومحاربتهم الله ورسوله.

فقال سبحانه **"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ"**.

---

(1) سورة البقرة آية : 132.

(2) سورة الشعراء آية : 83.

(3) سورة النمل آية : 19.

وسبب نزول هذه الآية أن اليهود كانوا مغرورين بأموالهم وأولادهم فأذلهم الله وقهرهم ، فالآية خاصة بهم ، وجائز أن يكون ذلك لقوم من قريش معلومين ، بدليل الآية بعدها فى قوله تعالى "مثل ما ينفقون" وهم أبو سفيان وأبو جهل ن أما أبو سفيان فأنه أنفق فى واقعة بدر أموالا كثيرة ، وكان أبو جهل يفتخر بماله ، وكان أصحاب الأموال من قريش يقولون لو كان محمدا على الحق ما عاش فقيرا ، فأنزل الله فى هذه الآية تشنيعا عليهم وتقبيحا لسوء فهمهم ، لأن خير الذخائر عند الإنسان الأموال والأولاد ، ولا تجد إنسانا إلا وهو يعتمد على ماله وولده حتى يخرج من الإنسانية بكمال الإيمان بالله والتوكل عليه وتوكيل الأمر إليه سبحانه ، فكانت هذه الآية قوة لإيمان المؤمنين ومزيدا لكمال يقينهم وخزيا وذلا للكافرين.

وجائز أن تكون أنزلت فى الكافرين أجمعين ، ولك أن تقول السبب خاص والحكم عام.

ومعنى الآية المفتتحة بالتوكيد المقوى للخبر أن الله تعالى يخبر أهل الكفر به بما سجل عليهم من القضاء من أن أموالهم وأولادهم لا تغنى عنهم فى الدنيا والآخرة ، وقد تكون الأموال والأولاد عذابا فى الدنيا والآخرة ، لأن الكافر يوم القيامة يكون كما قال الله تعالى **"فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ"**[1] وقال تعالى **"يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ"**[2] وقال تعالى **"فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ"**[3] وما من عبد اعتمد على غير الله تعالى إلا أذله بمن أعتمد عليه ، وفى الآثار من استعذ بغير الله تعالى أذله الله على يده.

ولنا أن نأخذ من هذه الآية أن الذين آمنوا إذا اتبعتهم ذريتهم بأيمان يكونون مزيدا فى نعيم والديهم ، وكما ورد فى الأثر الصحيح قالε "إذا مات ابن آدم انقض عمله إلا من ثلاث . . إلى أن قال "أو ولد صالح يدعو له بالخير" والله تعالى أكرم المؤمنين بفضل لم ينله الكافرون.

"وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ".

المشار إليهم بأولئك هم الذين كفروا المذكورون فى هذه الآية ، وصاحب الشئ هو ما يلزمه أبديا وفى قوله تعالى "أصحاب" إشارة إلى الخلود ، حتى كان فى هذه معنى الملك الذين لا ينفك أبدا وفيها تشنيع عليهم وتبكيت بهم ، وكفاهم شرا صحبتهم للنار كما قال تعالى فى الكافرين "وبشرهم بعذاب أليم".

وقوله تعالى **"هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"** بيان للفظة أصحاب أو تأكيد لها.

قوله تعالى : **"مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ"**(117).

لما حكم الله تعالى على الكفار بأنهم لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، أقام المحجة لأهل الإيمان بأن الكافر لو تقرب إلى الله بخير الأعمال وهو مصر على الكفر لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا ، قال تعالى **"إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ"**[4].

لتعلم أن ما ينفقه الكفار من أنواع البر والمساعدة التى لا يعملها إلا أهل الرحمة والشفقة ، كما ينفقون فى تحرير الرقيق ، وفى الرفق بالحيوانات، وف بناء المستشفيات وغير ذلك مما نراه من الشفقة والتعاون على البر ، فأن ذلك كله مردود عليهم ولا ينتفعون منه بشئ فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأن ما نراهم فيه من القوة وكثرة الأموال والأولاد إنما هو من نقم الله عليهم ، ومن الأدب لنا بسبب مخالفتنا لوصايا شريعتنا ، ولو أننا عملنا بكتاب الله وبسنة رسوله اللهε ، لمنحنا العزة عليهم ولكن لنا فى الأرض كما مكن لسلفنا الصالح بالحق لمحافظتهم على إتباع السنة والعمل بها.

فقوله تعالى **"مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"** أى مثل أبطال وإهلاك ما ينفقونه فى هذه الحياة الدنيا كتدمير وإهلاك – ريح فيها صر – أى لهيب أو برد قارس ، فالصر لغة هو شدة البرد المهلك للزرع أو الحر اللافح ، وهذا الريح الذى فيه صر إذا هب على غيضة أهلك نباتها ، فكما أن هذا الريح مهلك للزرع فكذلك الكفر يهلك أعمال البر ، فالكفر مشبه والريح مشبه به ووجه الشبه بينهما التدمير فى كليهما ، أعاذنا الله بجماله من جلاله.

([1]) سورة الشعراء آية : 100 – 101.

(2) سورة الشعراء آية : 88 – 89.

(3) سورة الزلزلة آية 7 – 8.

([4]) سورة المائدة آية : 27.

"أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ" والظلم هو وضع الشئ ف غير موضعه ، ولما كان الكفر بالله هو الظلم العظيم ، وكان الظلم فقط سببا فى إصابة الريح والزمهرير حرث الظالمين ، كان الكفر بالله الذى هو الظلم العظيم أشد نكاية فى حرمان الكافر ثواب نفقته.

وقد ورد فى الأثر أن المؤمن يؤجر رغم أنفه ، ومعنى ذلك إنه قد يتصدق مكرها أو يعمل البر غير ملاحظ وجه الله تعالى فيمنحه الله جزاءه لأنه مؤمن ، ولأن الله إذا أعطى الإيمان لعبد من عباده – والإيمان هو أصل الخير – تفضل الله تعالى عليه بالفروع ، وكل المقامات التى ينالها أهل الإيمان بالله هى فروع عن الإيمان ، فلا تستعظم الولاية على مؤمن ولو كان عاصيا بعد تفضل الله عليه بالإيمان ، ولا يكبر على التوبة مؤمن ولو كان نبيا ، لأن الله تعالى قال **"وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ"**[1] . . . **"وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ"** نفى الله تعالى الظلم عن نفسه بالنسبة لحرمانه أهل الكفر به من عدم إعطائهم ثواب ما أنفقوه ، لأن الكافرين لم ينفقوا نفقة يريدون بها وجه الله تعالى ، وكيف يريدون وجه الله تعالى وهم كفار به والله سبحانه وتعالى هو الملك الخالق العظيم ، يعطى من يشاء بفضله ويحرم من يشاء بعدله.

"وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" وذلك لأن الله تعالى أقام لهم الحجج والأدلة على كمال وحدانيته وقدرته وحكمته ، ثم أرسل لهم الرسل ببيان ما يحبه ويرضاه منهم مما به صلاح حالهم ونيل الخير لهم فى الدنيا والآخرة ، وبعد أن قامت الحجة واتضحت الحجة جحدوا وأنكروا وحاربوا الله ورسوله وعاندوا ، وذلك هو الظلم لأنفسهم ، فكان حرمانهم من جزاء نفقاتهم عدل من الله تعالى وخلودهم فى نار جهنم عدل منه سبحانه ، وقد ورد فى الأثر "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه" . .

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ"**(118).

هذه الآية الشريفة من معجزات القرآن المجيد ، وكأنها نزلت فى يومنا هذا مع مضى ألف وثلاثمائة وخمسون سنة على نزولها [2] ، وكان الله تعالى يتكلم بهذه الآية مع أهل زماننا ويخاطبنا بمعناها ، وكيف لا وكل ما أخبرنا الله تعالى به من أعمال أعدائنا اليهود والنصارى والمنافقين من محاربة الإسلام بالباطل ، ومن حرصهم على إيصال الخبال إلينا بنشر الفتن والدسائس بالشك فى ديننا والريب فيه طمعا فى كفرنا بالله ورسولهε ، وقد بلغ من إشهار هذه الحرب علينا فى كل مجتمع إسلامى ما نراه ونسمعه من جيوشهم الجرارة التى يرسلونها لنشر النصرانية بين المسلمين ، وجيوش الفتن والمفاسد والهرج والمرج التى يفتحون بها أبواب الفتن والمفاسد وسلب مرافق الحياة من يد المسلمين كالجيش الصهيوني الذى يحارب الإسلام والمسلمين فى فلسطين ، وكم حاربونا فى ديننا وأعراضنا وأنفسنا وأوطاننا بجيوش من الظلم تحت ستائر الضلال ، كتحرير الرقيق وحماية الاقليات وإصلاح الأمم باستعمارها ، وصدق الله العظيم ينهانا سبحانه عن الركون إليهم والاستسلام لكيدهم وخدعهم بقوله سبحانه "لا تتخذوا بطانة من دونكم" ألا لا تستسلموا لمن ليسوا من دينكم ولو دعت الضرورة إلى ذلك ، والبطانة هو ما يلصق على البطن ، والمعنى لا تتخذوهم أصحابا وأصدقاء كما تتخذون أهل الإسلام فتكاشفوهم بعوراتكم التى لا تكاشفون بها بعض أقاربكم ، ثم بين الله سبحانه حكمة هذا النهى بيانا يفهم معناه كل مسلم لا فرق بين الصغير والكبير والعالم وغيره.

بقوله تعالى **"لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا"** أى لا يقصرون فى إيصال الخبال إليكم، والخبال هو الإفساد فى الدين والوقوع فى الشك والريب وإطفاء نور الإيمان من القلوب أعاذنا الله من شر أهل الكفر بالله ، ثم أردف هذه الآية بيانا آخر يعلمنا به سبحانه أنهم إذا عجزوا بفعلهم عن إيصال الخبال فى الدين إلى قلوبنا نشطوا فى إيصال شرهم إلينا يريدون قهرنا وإذلالنا.

قوله تعالى **"وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ"**.

ومعنى هذه الآية ، أى أحبوا وتمنوا عنتكم أى وقوعكم فى العداوة والخصومة ، حتى إذا ظفروا بضعفكم بالتفرقة أسعروا نار الفتن بينكم فأيدوا فريقا على فريق ، حتى إذا ضعف الفريقان احتلوا وطنهم ونهبوا وقهروا

([1]) سورة الأنعام آية : 91.

([2]) هذا تاريخ إملاء الإمام لأسرار القرآن.

البقيـة الباقيـة فاسـتبعدوهم ، كمـا فعلـوا ف أسـبانيا وفـى مـراكش والجزائـر وتـونس وطـرابلس ومصـر والسـودان وفلسطين وسوريا والعراق وحضرموت والهند والصين وسيبريا وأمريكا واستراليا ، وكما فعلوا فى تركيا وإيران وأفغانستان واليمن والحجاز ونجد ولكن الله تعالى سلم تركيا وإيران وأفغانستان ، ونسأل الله تعالى أن يوقظ بقية الأمم إلى العمل بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه.

وفى قوله تعالى **"قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ"** برهان على إعجاز تلك الآية ، فإن نصارى أوربا واليهود قد رأوا أن يذموا الإسلام بعد أن أحسن إليهم الإسلام فى صريح آياته ، ويذموا سلفنا الصالح بعد أن رحموهم وواسوهم وحفظوهم – أيام كان لنا الحول والطول – من أن يكونوا طعمه للسيوف وغذاء للعقبان والوحوش ، وهذا جزاء من خالف الله ورسولهε وأتخذ بطانه من غير المسلمين ، وأى بغضاء تبدوا من الأفواه لنا بعد أن يمسوا جناب رسول اللهε . . اللهم إنك بينت لنا كل البيان ، فنسألك أن تؤيدنا بروح منك وأن تمدنا بنصرك على أعداء دينك وأعدائنا أنك مجيب الدعاء.

والبغضاء زيادة البغض ، وأفواه جمع فوه ، وهذه البغضاء هو ما يرمون به الإسلام ويسيئون به إلى نبينا عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام رضى الله عنهم ، ثم أنه سبحانه وتعالى زادنا بيانا بما نعلمه وبما لا نعلمه لنتحرز من شرورهم التى يظهرونها ونحتاط لأنفسنا مما يخفونه عنا . فقال تعالى **"وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ"** فهم يظهرون ذم الإسلام بأفواههم ويطعنون فى ديننا وفى صدورهم عزم على محو الإسلام وإهلاك المسلمين ، أو استعبادهم بعد أن كان النصارى واليهود فى أوربا وغيرها عبيدا يباعون فى أسواق المسلمين، وسلفنا الصالح يحسن إليهم ويرحمهم ، حتى إذا خالفنا وصايا نبينا ودأبنا على ذلك فمكنهم الله منا فأظهروا ما كانوا عليه من خبث نفوسهم ومن محاربة الله ورسوله ، وظلموا العباد بنشرهم الفساد **"وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ"**[1] فالله يمهل ولا يهمل ، قال الله تعالى **"حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"**[2].

بعد هذا البيان يجب علينا أن نتدارك أنفسنا بالرجوع إلى الله تعالى ، وبالعمل بكتابه جل جلاله وبسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، لكى ينجينا الله سبحانه وتعالى من الذل والخزى فى الدنيا لمن كانوا أذلاء لنا ، وينجينا من العذاب الأليم يوم القيامة باستضعافنا لهم ، قال سبحانه وتعالى **"الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا"**[3] الآية بعد هذا البيان الصريح لم يبق عذر لمسلم سمع كلام الله تعالى ، ورأى بعينى رأسه وقوع ما حذره الله تعالى منهم بحسب ميله وتقليده لأهل الكفر بالله ، بل وبعد أن قامت الحجة بإعجاز تلك الآية لوقوع البلاء الذى كان يحذرنا الله تعالى من وقوعه بنا ، وياليتنا استسلمنا لهم عن قهرهم الشديد أو لغلبهم أيانا ، كل ذلك لم يكن ، بل الذى كان أن مرضى القلوب وأهل النفوس الخبيثة النزاعة إلى الشر ، سارعوا فيهم خشية أن تصيبهم دائرة ، وطمعا فى الزخرف الفانى ، ورغبة فى نيل المشتهيات الباطلة ، وها هى المجتمعات الإسلامية بعد أن كانت جسدا واحدا يحس المراكشى بآلام من فى جنوب الهند بل كان المسلم فوق جبال البربنات شرق بلاد الأندلس يؤثر المسلم فى بغداد على نفسه ، وقد فتح المعتصم بالله الخليفة العباسى "عمودية" لما سمع من عيون له هناك أن روميا لطم امرأة أسيرة هناك فقالت ومعتصماه ، فلطمها وقل خل معتصم يأتيك على خيل بلق من بغداد ، فلما سمع ذلك أقسم أن لا يجلس على كرسى مائدته حتى يفتح "عمودية" لينقذ تلك الأسيرة رحمة بها ، وجمع خيلا بلقا وغزى بها عمودية ووهب للأسيرة عن لطمها مالا لها ولأولادها ، وهكذا كان المسلمون ، يتألم الخليفة على سريره مما يؤلم أسيره فى أرض الروم.

ولذلك يقول الله تعالى **"قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ"** أى كشفنا لكم الستر عن قلوب أعدائكم وبينا ما يصرونه لكم ولدينكم لتسمعوا وتطيعوا وتنصروا الله سبحانه بتنفيذ أوامره ونواهيه لينصركم سبحانه وتعالى بقهر أعدائكم وبتمكينكم فى الأرض بالحق ، وما بين الله تعالى آياته هذا البيان إلا لنعقل عن الله كلامه ، فإذا عقلنا كلام الله تعالى سارعنا إلى القيام بمحابه ومراضيه فيعيد لنا مجد سلفنا ويمكن لنا فى الأرض بالحق ويديم لنا هذا المجد حتى

([1]) سورة ابراهيم : 42.

(2) سورة الأنعام : 44 – 45.

(3) سورة النساء : 97.

نلقاه وهو راض عنا ونحن راضون عنه . قال تعالى **"الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ"**[1].

قوله تعالى : **"هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ"**(119).

الهاء هنا للتنبيه . وفصل بين حروف التنبيه وبين الإشارة بأنتم للتقريب وعليها اللغة الفصحى ، وكان جائز أن يقول هؤلاء أنتم ، ولكن القرآن هو ميزان الفصيح من الكلام ، وهذا السياق كثير فى كلام فطاحل البلغاء كما يقول الرجل جوابا للسائل ها أنا ذا ، وهذه الآية نزلت بيانا من الله تعالى للمؤمنين عن معاملتهم لليهود والنصارى والمنافقين ، لأن الإسلام جمل قلوبنا بالرحمة والعطف ، فجعلنا نطمع فى إيمان اليهود والنصارى وفى توبة المنافقين ، فنحسن إليهم بإخلاص لله تعالى ومعاملة لوجهه الكريم ، فبين لنا الحقائق وحذرنا من مخالفته واتخاذهم بطانة ، ثم أظهر أحوالنا التى تدعونا إليها الرحمة بهم والشفقة عليهم بقوله تعالى "تحبونهم" أى تعاملونهم بأنواع من الرحمة والحنانة والشفقة معاملة لا تكون إلا من أهل المحبة لهم ، وفى ذلك مخالفة لأمر الله تعالى ، بل الواجب علينا أن لا نحكم العواطف فى قلوبنا بل نطيع أمر الله تعالى ، ونجاهد تلك العواطف والميول بقدر الاستطاعة لأننا بمخالفتنا أمر ربنا واتخاذنا بطانة من دوننا ، وتلك البطانة كما اخبرنا الله تعالى تبطن لنا السوء والخبث وتتمادى فى خداعنا اعتقادا أننا بله يغرنا خداعهم ، وليس عبد بيان الله لنا بيان خصوصا إذا فقهنا حقيقة قوله تعالى "ولا يحبونكم" وهذا خبر من الله تعالى يفيد علم اليقين أن اليهود والنصارى والمنافقين أعداء مهما أظهروا لنا من الملق والود ، وأنهم يسعون فى إصلاح حلانا ، أو أنهم مسلمون مثلنا ، فكل ذلك خبث يدعوهم إليه الخوف من حرمانهم مما هم ممتعون به من الرحمة والشفقة وحسن المعاملة ، وإقامتهم فيما يجعلهم أغنياء آمنين نافذى الكلمة ، وهناك شر أكبر يدعوهم إلى ذلك ، وهو أن يلقوا بيننا وبين بعضنا العداوة والبغضاء طمعا فى تفرقنا ، وفصما لعروة الرابطة الإسلامية ، فكما أنهم إذا رأونا أظهروا الإسلام ، وإذا خلوا لبعضهم تمنوا لنا الضر والشر ، فهم لذلك إذا رأوا بعضنا القوا من الزور والبهتان ما يفسد الإخاء ويزيل التوادد والتعاطف الإسلامي بين الأخوة من المؤمنين.

"وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ" – أى تصدقون بالكتاب ، وال فى الكتاب أى تؤمنون بكل الكتب السماوية التى أنزلها الله ، فلا تفرقوا بين رسل الله ولا تغيرون أحكام الله بل تراعون أحكام شريعته ، وهم قد بلغوا من الكيد بكم بعد أن تحققوا من سلامة ضمائركم ومما فطركم الإسلام عليه من الرحمة والشفقة أن يظهروا لكم ما يرضيكم كما أخبرنا الله تعالى بقوله سبحانه **"وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا"**.

والواجب علينا جماعة المسلمين أن نحذر منهم ونحطاط لأنفسنا من كيدهم لنا حتى تقوم الحجة على صدقهم ، فإذا ظهر لنا منهم ما يخالف أقوالهم كنا فى حفظ وسلامة من شرورهم وفى سنة رسول اللهε ، فأن اليهود كانوا يأتونه فيقولون السام عليكم يا محمد فيقول عليكم – والسام يعنى الموت ، فكان عليه الصلاة والسلام يردها عليهم من غير أن يسئ إليهم ، وذلك من جمال الأخلاق وكمال البصيرة ، كما قالε "لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين".

وما آل الأمر بنا إلى ما نحن عليه من التفرقة وشتات الحال وتمكين الأعداء إلا من تلك الناحية ، وهى أن البسطاء من المسلمين لا يثقون إلا باليهود والنصارى فى أعمالهم الخاصة بل وفى معاملاتهم وفى شرائهم وبيعهم ، حتى بلغ بهم البله والغرور إلى أن كانوا يفخرون بهذا ويرمون إخوانهم المسلمين من التجار أو الصناع أو العمال بما ينفرهم ، كل هذا البلاء أصابنا لمخالفتنا أمر ربنا ، وكيف وقد أصبحنا وكل نوع من أنواع المجتمع أهلكته الغفلة عن آيات الله ، فالحسد قطع العلماء عن الله ، والخيانة قطعت التجار ، والظلم قطع الحكم والزعماء ، والكيد قطع النساء ، وهذه هى أمهات الكبائر، وكفى المسلمون تعسة أن يغضب الله تعالى عليهم ، وفى ذلك تعسة فى الدنيا وعذاب يوم القيامة ، لأنهم لم يرضوه سبحانه باتباع أمره واجتناب نهيه ، وفى رضاء الله عنا نيل المجد فى الدنيا والنعيم المقيم فى يوم القيامة.

وكيف لا يكون هذا حالنا والله يكشف لنا أسرار اليهود والنصارى والمنافقين كشفا جعل ما يخفونه عنا جليا بقوله سبحانه **"وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ"**.

أى أن هؤلاء القوم الذين هم أعداء ديننا جعلونا كاللعبة فى يد الغلام الصغير يلونها بأى لون ، ويفسدون علينا عقائدنا وعباداتنا ومعاملاتنا وأعراضنا ولا يرضيهم ذلك منا ، وإنما الذى يرضيهم أن نصبح كفارا معهم ، أو

([1]) سورة الحج آية : 41.

أن يبيدونا عن أخرنا ، كل ذلك قصدهم منا ، ونحن نراهم يستحقون الرحمة والمساعدة وهم شياطين الأنس كما قال سبحانه **"إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ"**[1] فهم يرونا مخدوعين بلهاء لا نتبصر فى أمورنا ، ونحن نراهم نشطاء أمناء متقنين للصناعة والتجارة صادقين فى معاملاتهم لنا ، ولا يكون ذلك حتى من البهائم السائمة ، فالنجاة النجاة ولا نجاة إلا بالرجوع إلى ما كان عليه سلفنا الصالح قال تعالى **"إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ"**[2] والأمر يسير لأن النجاة من عذاب الله يصغر فى جانبها كل غال ورخيص ، بل تصغر الشهوة واللذة فى جانبها.

وقوله تعالى **"عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ"** أى وضعوا أطراف أصابعهم بين ثناياهم وعموا بقطعها حسرة على عجزهم عن إبادتنا أو إطفاء نور ديننا ، ولا يفعل الرجل هذا إلا وقد رخصت حياته فى نظره واستعد للانتقام من عدوه ، والأنامل جمع أنملة وهى طرف الأصابع وتعض من غيظ فى القلب لا يطفأ إلا بالانتقام ، ولا يكون الانتقام فى الغيظ إلا بإرهاق الدماء ، وقد لا تطفأ هذه الحرارة إلا بشرب دم المقتول كما فعل أهل الكفر بالله يوم أحد عند ما آكل بعضهم كبد حمزة بن عبد المطلب ، فالمسلم الذى يسمع عن الله هذه الآيات ويخبره التاريخ عن تلك الأنتقامات ثم يخالف الله تعالى فيتخذ بطانة من أهل الكفر بالله حكم على نفسه بالردة عن الدين وحرمت عليه زوجته وحرم على المسلمين دفنه فى مقابرهم قال تعالى **"لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ"**[3].

بل أى مسلم يسمع أن كافرا بالله يدعوا إلى ذم الإسلام وذم رسول اللهε ثم يجتمع عليم ويسمع كلامهم ويخرج من مجلسهم وهو مسلم – ولا أشك – أنه يخرج كافرا ، لأن الغيرة الإيمانية خرجت من قلبه ولانه غير مكره على الاجتماع بهم حتى نقول خاف على دمه وأهله ، قالε "من أكثر سواد قوم فهو منهم" والذين يجتمعون على من يعتقدون أنه عدو الله ورسوله وعدو المؤمنين لا تقبل توبتهم ، إلا إذا دفعوا عن المنكر بأيديهم وألسنتهم وقلوبهم ولو كان فى ذلك قتلهم فى سبيل الله تعالى ، فإن القتل فى هذا الموطن شهادة حقيقية فكيف يبلغ بالمسلم أنه يدعى الإسلام ويسمع عدوا من أعداء الإسلام يكذب القرآن ويقيم الحجة على أن الله لم ولد تم يخرج وفيه نفس يتردد ، أنا لا أعتقد أن هذا مسلم ن وأن كان يخالفنى فى رأيى هذا من لا خلاق لهم ، فإن الرجل إذ قال له رجل أنت تشرب الخمر أو أبوك يشربها أخذته العزة فغضب غضبه يكاد يقتل بها من قال ذلك فى حقه أو حق والده لولا يدفعه الناس عنه ، فكيف يرضى أن يمس جانبا يجب أن يكون أغلى عليه من روحه التى بين جنبيه وأعز عليه من الدنيا والآخرة ، لا يقول بإسلام مثل هذا رجل عقل عن الله كلامه ولا رجل فى قلبه ذرة من إيمان.

أن الشريعة المطهرة رخصت لنا فى حد مخصوص ، وكل تجاوز له كفر ، وهو أننا نرضى بظلمهم لنا وسلبهم لأموالنا عند غلبتهم علينا انتظارا للفرج وتحرفا لقتال وتحيزا لفئة مسلمة قوية ، فإذا بلغ الشر والضر أن مسوا جانب الدين أو طعنوا فيه وجب علينا الجهاد فرض عين وإلا بؤنا بالكفر ، ويكون القتل فى هذا السبيل طلبة المؤمن الكامل ورغبته ، قال تعالى **"وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ"**[4] وهذه الآية وأن كان سببها خاصا فحكمها عام ، وأنى على يقين أن بشاشة الإيمان لا تفارق القلوب وأن فارقتها المراقبة والمحبة.

والمجتمع الإسلامي كالبركان ينتظر أول صيحة من تقى كامل الإيمان تهيج قلبه إلى لقاء ربه ، وأن ننس ل الحوادث لا ننسى الحروب الصليبية التى كانت فى زمان تفرق فيه المسلمون وخرج بعضهم على بعض ، ولكن الصيحة الحقه جمعت شتاتهم ولمت شعثهم وردوا الصليبين بشر هزيمتة ، ولا ننسى ما فعله نابليون بالمسلمين من الكيد والظلم وما آل إليه أمره ، والقوم الظالمون يجيدون الضغظ على البركان ناسين نقم القوى الديان ، بل وناسين غضبة المجتمع الإسلامي لغرورهم بزعماء يسارعون فيهم ، والغيب مستور ، وكم فى الزوايا من خبايا ، قال الله تعالى **"حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا**

([1]) سورة الأعراف : 27.
(2) سورة الرعد : 11.
([3]) سورة المجادلة : 22.
([4]) سورة التوبة : 12.

حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ"[1] وقد أخذت أرض أوربا وأمريكا واليابان وغيرها زخرفها وأزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، ووعيد الله كائن لا شك فيه وسيأتيها أمره فيلقى نار الحرب الانتقامية بينهم فتصبح حصيدا أن لم تغن بالأمس.

"قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ"

هذه الآية الشريفة تنزل من الله تعالى ليطمئن قلوبنا بفوزنا فى الدنيا والآخرة ، فأنه سبحانه يخاطب رسولهε يأمره أن يقول لليهود والنصارى والمنافقين الذين يكيدون للإسلام والمسلمين قل لهم يا محمد "موتوا بغيظكم" والباء هنا للسببية أى أن الله يخبرنا أن أعداء الإسلام والمسلمين يموتون بغيظهم منا ، لأن الله تعالى يسرع عليهم بالنقمة ف يمكنهم منا فيدوم غيظهم وذلهم فى مزيد حتى يموتوا مما يرونه فينا من إحسان الله تعالى إلينا بالتحاب والتوادد والتعاطف والإيثار ، وفى هذه الآية بشرى لنا من الله تعالى وقهرا لأعدائنا ، وأنا نسمع تلك الآية بأذان قلوبنا كأنها نزلت اليوم فيقوى يقيننا وينكشف لنا قولهε "أحفظ الله يحفظك أحفظ الله تجده أمامك كن مع الله ترى الله معك".

"واللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ" أى أن الله ذو علم بما تخفيه صدورهم وبما فى قلوبهم من سوء النوايا ومن سعير نار الحقد والحسد وحب الانتقام من المسلمين ، وكفانا إكراما من الله تعالى علم الله تعالى بما ف صدور أعدائنا لنا من الحرص على الضرر والشر وعلمه سبحانه وتعالى بما فى قلوبنا لهم من العطف عليهم لنجاتهم يوم القيامة ولكن بعد أن بين الله لنا هذا البيان ، يجب أن تكون الرحمة التى فى قلوبنا خاصة بإخواننا المسلمين محافظة عليم من كيد أهل الكفر بالله تعالى بهم.

وهنا أبين لك أن المسلم بصير على نفسه بصير فى دينه ، يجب عليه أن لا يجعل للعاطفة حكما إلا فيما يرضى الله ورسولهε ، ومسلم تدعوه العاطفة إلى أن يتخذ من غير المسلمين بطانة حكم على نفسه بأن لا بصيرة له ، ومن لا بصيرة له أتبع الهوى ، ومن أتبع الهوى فقد غوى ، لأن الهوى أخو العمى ، وما أضر المجتمع الإسلامي إلا أن المسلمين قلوبهم ملئت بالرحمة والعطف على كل ذى كبد رطبة ، ومن لم يحصن تلك الرحمة والعاطفة الإسلامية بالحصون الشرعية هلك وأهلك ، وكيف يعطف مسلم على كافر أو يرحم عدوا لله كافر به سبحانه والكافر عندى أشر من إبليس وأضر من الوحش الكاسر ، يجب على المسلم مهما رآى منه من الإحسان والتقرب أو التودد أو يسئ به الظن ، وكيف يأمن المسلم عدوا من أعداء الله تعالى ، والمسلم يتحفظ من مرتكبى المعاصى فيكف يركن إلى كافر اللهم الاما رخصت لنا فيه الشريعة معاملة أهل الذمة بما بينته لنا الشريعة.

وهذه الآية وأن دلت على أن الله قدر فى أزله أن المنافقين من اليهود والنصارى وغيرهم الذين كانوا إذا رأو المؤمنين قالوا أنا معكم وإذا خلوا عضوا عليهم الأنامل من الغيظ ، قال سبحانه فى كتاب أن هؤلاء الأعداء يموتون مما يرونه فى المسلمين من عناية الله و أكرامه لنا ، لأن هذه الآية أيضا تبين أن الله تعالى يأمر نبيه محمداع بالدعاء عليهم أن يهلكهم الله بغيظهم فأن قوله تعالى : "قل موتوا بغيظكم" صادق أن يواجه أعداءه بهذا القول ويسأل الله بالدعاء به عليهم ، وأحياء للسنة قدسن لنا أن ندعوا عليهم بهذا الدعاء ، فنسأل الله أن يهلكهم جميعا ، وأن لا يمكن لهم فى الأرض.

قوله تعالى : **"إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ"**(120).

يزيدنا الله بيانا عن أحوال أعدائنا من اليهود والنصارى والمنافقين ، بأنهم أن نصرنا الله وأقبل بوجوه خلقه على الإسلام ، وأظهر المعجزات الباهرات على يد حبيبه محمدε الدالات على صدق نبوته ورسالته ، وفتح لنا كنوز عطاياه ظاهرا وباطنا من الحب والتعاون والتقاصد بيننا ، ومن تأييد الله لنا ، ومن توالى الخيرات منه سبحانه وهى الحسنة التى يتفضل الله بها علينا ، لأن كلمة حسنة بغير أداة التعريف تفيد شمول الحسن ، بمعنى أن الله تعالى إذا تفضل علينا بأنواع الحسنات الدنيوية والأخروية تسؤهم أى تحزنهم وتبكيهم وتغمهم.

وفى هذه الآية الشريفة يقظة لقلوب المؤمنين لينشطوا فى القيام بطاعة الله والمسارعة فى تنفيذ أوامره ، وليدخلوا على أعدائهم الذل والخزى ، فيكونوا دائما فى عمل يرضى الله وينيلهم خيرى الدنيا والأخرى ويذل لهم أعدائهم ، ويقيم الله لنا الحجة على ما كمن فى قلوبهم لنا من الحقد والضغائن ، قاتلهم الله حيث يسرهم ما يعيبنا من السوء ، كما حصل منهم جميعا فى موقعة أحد ، وفى سفر رسول اللهε إلى تبوك ، حين أرتد عبد الله بن أبى سلول

---

(1) سورة يونس : 24.

هو والمنافقون إلى المدينة ، وتركوا رسول اللهε ومعه أصحابه رضوان الله عليهم لمحاربة الروم فى الشام ، وكما فعل يهود خيبر من مساعدة قريش فى موقعة الخندق وقيام قريظة وقينقاع وبني النضير من ذم رسول اللهε ومن مساعدتهم لقريش فى عصر رسول اللهε.

ولو تصفحنا أوراق التاريخ لوجدنا ألف حجة وحجة على صدق خبر الله عنهم ، ولا يزالون ولن يزالوا تنموا الخبائث فى قلوبهم وتقوى على عمل الشرور نفوسهم ، ولا نزال نحن ولن نزال مأيدين بروح من الله تعالى مادمنا على ما كان عليه سلفنا الصالح رضى الله عنهم.

قوله تعالى : **"وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ"**.

بعد أن شرح الله تعالى لنا ما عليه أعداء الإسلام والمسلمين من سوء قصدهم وخبث نواياهم ومسارعتهم إلى الكيد للإسلام والمسلمين فى الآيات السابقة ، بين لنا ما به نجاتنا من شرورهم بقوله تعالى : **"وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا"**.

افتتح الآية بأن الشرطية ، بيانا لخبثهم فى إرادتهم السوء لنا لأن أن تدل على ضعف مكائدهم ، والصبر هنا يراد به العمل بأوامر الله تعالى ، خصوصا التى أنزلها فى نهينا عن موالاتهم وعن اتخاذ بطانة منهم ، وفى أمرنا بالتحفظ من شرورهم وخدعهم فى الظاهر ومما يضمرونه لنا إذا خلوا ، لأن تلك الحقائق تحتاج فى تحملها إلى دوام الصبر والصبر هو حبس النفس عن ما تحب عملا بأوامر الله تعالى ومخالفة للعواطف والميول النفسانية والأهواء الشهوانية.

"وتتقوا" والتقوى هى مخالفة الله تعالى ووقاية من الوقوع فيما يغضبه بدوام مراقبته.

"لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا" أى لا يصيبكم شئ من كيدهم لكم ، بإظهار الإيمان إذا قابلوكم وعض الأنامل عليكم غيظا إذا فارقوكم ، والسعى فى عمل ينتج الفساد بينكم فى الدين والإخاء وغيرهما.

وهذه الآية ميزان ، حق لأن المسلمين إذا عملوا بوصايا القرآن وأوامره ونواهيه حصنهم الله بحصن الحكمة والوقاية ، وأيدهم بالعناية وبروح منه ، وجملهم بالعزة التى وعدنا بها جماعة المسلمين ، والأسباب التى وضعها الله تعالى لا نرى فيها تفاوتا ، فإن نرى النظام والأسباب التى وضعها الله تعالى لا نرى فيها تفاوتا ، فإن نرى النظام الشمسي مرتبط كمال الارتباط لا يختلف فى الغالب ، وكذلك الأسباب التى وضعها الله تعالى وجعل القيام بها وتنفيذها مقتضيا لنيل الخير منه سبحانه فى الدنيا والآخرة لا تختلف أبدا ، فإن الله سبحانه لا يخلف وعده قال تعالى "وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ"[1] لأن الأسباب والأواسط أقامها الله تعالى للعقول لتتعرف بها إليه وتشهد البصائر حكمته فى إبداع بدائع صنعه سبحانه.

"إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ" أكد الآية الشريفة بأن ليهش قلب المؤمن ويبش بها ، والإحاطة هنا ليست هى الإحاطة الحسية التى تجعل المحيط ظرفا للمحاط به ، ولكنها حيطة مجازية أى أنه قادر على الانتقام منهم ودفعهم عن بلوغ ما يريدون من إساءتهم وضررهم ، وذلك بعد تمكينكم فى الأرض بالحق رغم أنوفهم.

قوله تعالى : **"وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"**(121).

بعد أن أخبرنا الله تعالى بأحوال اليهود والنصارى والمنافقين التى تدل على بغضهم للإسلام والمسلمين كما تقدم ، وأعلمنا أنه محيط بأعمالهم ونوايا قلوبهم ، وبعد أن بشرنا بأننا إذا صبرنا على طاعة أمره ولم نخالف رسولهε ، لا يضرنا كيدهم شيئا ، وحصلت المخالفة عندما أحب عليه الصلاة والسلام أن يلقى عدوه فى المدينة ، فرأوا الخروج إليهم فأصابهم بذلك بلاء فى معركة أحد وقل فصل ذلك فقال سبحانه **"وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ"** يذكرنا بغزوة أحد بدليل ما بينه فى هذه الآية من قوله **"غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ"** أى خرجت من أهلك غدوة من المدينة و **"تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ"** أى تنزل المؤمنين محال القتال بما تقضيه الخطط الحربية ، فجعل أحد ضلعا للقلعة وأوقف الرماة فى موضعهم وأمرهم أن لا ينتقلوا منه سواء كانت لنا أو علينا ، وجعل ضلعين للقلعة من الصحابة.

"وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" يعنى أن الله سمع كلام الصحابة لرسول اللهε عند استشارته لهم فيما يفعل بقريش ، الذين جمعوا العرب وأتوا لحربهε وكان قد أخبرهم بأنه يحب أن لا يخرج إليهم من المدينة ، وأحضر عبد الله بن

([1]) سورة الحج آية : 47.

أبى بن سلول ليستشيره ولم يكن تكلم معه فى شأن من تلك الشئون قبل، فكانت نتيجة مخالفتهم لرسول اللهع أن تولوا فرارا من المعركة.

قوله تعالى : **"إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ"**(122).

هذه الآية الشريفة برهان ساطع على ما للإيمان من المكانة عند الله ، حيث تفضل سبحانه على أهل الإيمان بفضله العظيم حتى ولو وقعوا فى المعاصي ، فكيف لا وهو بعد أن يخبرنا بأن طائفتين همتا بالفشل ، ويخبرنا سبحانه أنه وليهما يعصمهما من الوقوع فيما يكره ويوفقهما لما يحب وبعد قوله تعالى **"وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا"**[1] فحكم سبحانه أنهما مع وقوعها فى القتال لم يسلب منهما الإيمان ، وبعد أن أخبرنا أن الكفر بالله لا ينفع معه عمل ولو كان من خير أو شر بدليل قوله تعالى **"لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا"**[2] . "والهم" وأن تأوله بعضهم بأنه لم يبلغ درجة الاختيار ولا العزم فهو من الصغائر عندهم ، وعلى فرش أنه من الكبائر لا يضر عقيدة الإيمان ولا يخرج المسلم عن دينه وما دام الإيمان ثابت فى القلب فالله يغفر الكبائر والصغائر ، ولكنه سبحانه لا يغفر أن يشرك به ، ومن منحه الله تعالى الفقه فى دينه علم مراد الله تعالى من كلامه ، وكل عبد منحه الله الإيمان فى قلبه – وهو أصل الخير ، ولم يعتوره شك ولا ريب فى عقيدته ، لا نحكم عليه بالكفر ولا بعذاب النار والخلود فيها.

وفى تلك الآية بشرى من الله تعالى لأهل الإيمان جميعا ، وفيها روح تقوى به الحياء من الله سبحانه وروح المراقبة له سبحانه ، والأحرى بمن ينتسبون إلى العلم أن لا يفتحوا أبواب الفتن على المسلمين بتأويل مثل هذه الآيات الشريفة ، بل الواجب أن يسارعوا إلى تلقى فهمها ممن هو أعلم منهم، والله لا يخلى الأرض من قائم له بحجة.

والمعنى أن هذه الآية معطوفة على قوله تعالى "وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال و **"إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ"** عند التبوئ ، ومعنى "الهم" قد يكون واردا أو خاطرا أو إرادة للنجاة من كثرة العدو لا مفارقة للدين وبغضا له ، وفى الوارد والخاطر والتردد . فالهم صغيرة ، وفى العزم والاختيار كبيرة ، والكبيرة والصغيرة يمحوا ظلمتها نور الإيمان الذى نعقد عليه القلب ، وحتى لو وقع المؤمن فى شئ منها ، فإن نور القرآن يبين له خطأه ويرجع به إلى التوبة والإنابة رحمة من الله بالمؤمنين وعطفا عليهم ، وفى قوله تعالى "منكم" حجة على أن القوم كانوا على إيمان كامل ، "أن تفشلا" الفشل هو الجزع والرعب والفزع ، ولولا أن الله تعالى دفع عنهما هذا البلاء لنهزم القوم.

وكان سبب هذا الهم أن عبد الله بن أبى بن سلول لما أشار على رسول اللهع بالبقاء فى المدينة ومحاربة الأعداء فيها ، وأشار عليه بعض الصحابة بالخروج إليهم بعد أن كان يريد عليه الصلاة والسلام أن يقيم فى المدينة ، فوافق على رأى من رغبوا في الخروج إلى لقاء العدو وبشرهم بالنصر عليهم ولبس آلة الحرب وخرج ، فحزن عبد الله بن أبى ابن سلول – وقال خالفني وأطاع غيري – فانتهز فرصة لقاء الأعداء وكاد للمسلمين لأنه كان رأس المنافقين ، وقال لأهل النفاق منهم إذا نحن لقينا العدو نرجع من الجيش فيرجع معنا غيرنا وهذه عادة أهل النفاق مع النبي وأصحابه ، فلما رجع عبد الله بن أبى بن سلول ورجع معه ثلثمائة رجل من المنافقين هم بنوا سلمة وبنوا حارثة من الأوس تبعا لعبد الله بن أبى قاتله الله ، فأكرم الله المؤمنين بدفع الشر عنهم وثبت قلوبهم ، وأيدهم بروح منه.

"وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا" وفى رواية "وليهم" وولاية الله تعالى تأييده لأهل الإيمان ، وحفظ قلوبهم من أن يكون للشيطان عليهم سلطان ، قال سبحانه **"إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ"**[3] وفى المؤمن فخرا ولاية الله له حتى كان من تأثير الآية على قلوب المؤمنين الذين لم يهموا بالفشل قالوا ما يسرنا إذا لم نهم بالفشل بعد قول الله تعالى "والله وليهما" فأن فى ذلك من صلاح الله والثناء منه سبحانه ما يشرح صدور المؤمنين بعد أن أنزل فيهم تلك الآية بالثناء والمدح ، وولاية الله كلمة جامعة لكل خيرات الدنيا والآخرة ، فمنهما النصر على الأعداء والتمكين فى

([1]) سورة الحجرات آية : 9.

(2) سورة آل عمران آية : 10.

([3]) سورة الحجر آية : 42.

الأرض بالحق ، والسلامة والعافية فى الدين والدنيا والآخرة ، ونفوذ الكلمة والتوفيق لمحاب الله وماضيه ، وغير ذلك مما لا يحصر من الفضل العظيم.

"وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" التوكل هو تفويض جميع الأمور إلى الله تفويضا يطمئن به القلب حتى يتجمل العبد بالرضا عن الله فى كل شأن من شؤنه ، والتوكل أرقى مقامات اليقين ، وهو فضل الله الذى يتفضل به على كمل أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام وورثتهم من بعدهم ، قال تعالى مخبرا عن هود عليه السلام **"إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا"**[1].

والتوكل بعد مقام المحبة ، والمحبة لا تكون إلا بعد كمال المعرفة ، والمعرفة لا تكون إلا بعد مقام التوبة والرجاء والخوف ، فإن الجاهل بالله لا يحبه ولا يتوكل عليه ، وكيف يحب الإنسان من يجهل ، ومن أحب من يجهل عاداه ، فقد يحب معنى من معانى جماله ويكون الله تعالى قدر عليه شيئا من جلاله ينكره العبد نفورا منه ، فيكره الله تعالى لعدم رضاه بقدره ، وذلك من جهله بربه ، وما أمر الله المؤمنين أن يتوكلوا عليه إلا لأنه يحب أن يرفعهم إلى أعلى مقامات اليقين بعد أن تفضل عليهم بالإيمان وبمزيده وبالمحبة وأهلهم لمقام التوكل.

ومعني الآية فى الله تعالى يقول : وعلى الله فليعتمد ويلتجأ ويستعين كل مؤمن حصل له وهن أو ضعف أو رعب مما لا طاقة له به أو خوف من نزول مصاب فادح ، وهذه الآية بشرى للمؤمن بعد بشرى ، لأن أمر الله للمؤمن أن يتوكل عليه سبحانه ، حجة على إغاثة الله له ونصرته وفوزه بطلبته فى الدنيا والآخرة.

وفى هذه الآية أيضا دليل على أن الله سبحانه وتعالى ، يسرع فى إجابة من أقبل عليه ، وتوكل وتاب وأناب ورجع إليه ، فما على المؤمن إلا أن يلتجأ إلى الله فى كل حاجاته موقنا بإغاثة الله وسرعة إجابته ، لأن المؤمن إذا التجأ إلى الله فى حالة الاضطرار ، شرح الله صدره ومنحه اليقين الحق بنيل مقصده ، أما ضعيف الإيمان فأنه إذا نزلت به مصيبة ، تحير قلبه وسخط على الزمان والمكان ، وأنزعج فلم يصبر وطاش عقله فنسى الله ونسى الاستغاثة والاستعانة ، والله يقول **"وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ"**[2] وصدق الله العظيم ، وكذب العبد ضعيف الإيمان.

والمؤمن لا يجرب ربه ولا يخاف أمره ن فالتوكل على الله صولة يقين فى القلب ، تجعل العبد يرى ما فى يد الله أقرب إليه مما فى يده ، بل ويسمع بأذن قلبه تلبية الله له عند الشدائد ، بل ويحس بإمداد الله له بالخير الذى يحتاج إليه فى دنياه ودينه وأخرته فالتوكل ذخيرة المؤمن وكنز المحسن وخير أهل اليقين ، وهو مقام على خصه الله تعالى بأهل القرب منه ، جعلنا الله من المتوكلين عليه سبحانه.

قوله تعالى : **"وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"**(123).

هذه الآية الشريفة مرتبطة بقوله تعالى **"وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا"**[3] والمعنى إذا صبرتم على لقاء عدوكم وكيده لكم واتقيتم ربكم ينصركم ويؤيدكم بنصره العزيز ، الذى نصركم به يوم كنتم قلة وكان عدوكم كثرة ، وكنتم أذلة وأعداؤكم أعزة فى معركة بدر فإن الله نصر أهل بدر وكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا ، وكان جيش الكفار أكثر من ألف معهم السلاح والدروع ، ومعهم أحباشهم وخدمهم وليس مع أهل بدر سلاح ولا خيل ، لأنهم خرجوا من المدينة ليسوقوا عير قريش القافل من الشام إلى مكة وعليها أموالهم وتجاراتهم ، كما أخبرنا الله تعالى فى قوله : **"وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ"**[4] أى العير بما عليها تكون لكم ، وليس الجيش الذى لم تكونوا مستعدين له ، فنصركم الله وأيدكم وهزم المشركين وأذلهم وجعلهم غنيمة لكم ، وذلك لأنكم سمعتم واطعتم وصبرتم واتقيتم ، وكذلك يكون لأهل الإيمان إذا هم صبروا واتقوا ولو أجمع على قتالهم أهل الكفر بالله جميعا فإن الله ينصرهم ويهلك الكافرين بقوته وقهره ، وكيف لا يكون ذلك وكان جيش أهل بدر ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا فهزم الله به جيوش قريش رغم أنهم كانوا أربعة أضعاف أهل بدر.

---

(1) سورة هود آية : 56.
(2) سورة البقرة آية : 186.
(3) سورة آل عمران : 120.
(4) سورة الأنفال : 7.

والمسلمون الآن أربعمائة مليون [1] تقريبا ، وكلهم أذلاء تحت يد من كانوا بالأمس عبيدا يباعون فى أسواقهم ، فذلوا مع كثرتهم ، وافتقروا مع وفرة خيراتهم ، وهانوا مع قوتهم ، وذلك لأن النصر لا يكون إلا من عند الله ، والله لا ينصر إلا من صبروا واتقوا.

والواجب علينا فى مثل هذا الزمان أن نرجع إلى ما كان عليه سلفنا الأول ، فنجدد سنة رسول اللهε ، ونعمل بكتاب الله ، ونصبر على بلاء الله ، ونجاهد فى سبيل الله موقنين بأن النصر لا يكون إلا من عند الله.

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى يخبرنا أن نصرنا ونحن فى قل وذل ، والعدو فى كثر وعزم يوم بدر ، هو نصر من حيث لا نحتسب فعلينا أن نتذكر هذا الفضل العظيم فنتوكل على الله ونلتجأ إليه وننتظر الفرج منه سبحانه.

"فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" تقدم الكلام على التقوى ، ولما كان من معانى التقوى رعاية جانب الله تعالى رعاية تجعلنا نتمثل ما تفضل به سبحانه علينا من الخير فى وقت الإعطاء والمنع ، أمرنا بالتقوى لنشكره على ما أكرمنا به من نصرنا كما وعدنا ، ومن إغاثتنا عند اضطرارنا إليه ، فإذا نحن اتقيناه شكرناه ، وإذا نحن شكرنا منحنا المزيد من فضله ،قال تعالى **"لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ"** فالتقوى أصل كل إحسان وفضل من الله تعالى ، قال سبحانه : **"وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ"** وقد تقدم الكلام على معني "لعل" فى القرآن.

قوله تعالى : **"إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ"**(124).

هذه الآية الشريفة نزلت فى غزوة بدر على الأرجح من الروايات وعلى هذا تكون "إذ" متعلقة بقوله تعالى **"وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ"** وروى بعضهم أنها نزلت فى أحد وتكون "إذ" متعلقة بقوله **"وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ"** وظاهر اللفظ يدل على أن هذه الآية أنزلت فى غزوة بدر ، ودليل ذلك اتصالها بالآية السابقة ، وأن الملائكة قاتلوا يوم بدر وهزموا الأعداء ، وقيل أن المؤمنين علموا أن كرز ابن جابر المحاربى عزم على أن يمد المشركين بجيش فحصل للمؤمنين حزن شديد ، فقال هلم رسول اللهε : "ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين" ، والاستفهام هنا لإنكار عدم الكفاية ، ولن لنفى المستقبل.

"يكفيكم" من الكفاية وهى دفع الأذية ونيل الخير ، وأن ما دخلت عليه مؤولة بمصدر ، أى بإمدادكم بالملائكة.

قوله تعالى : **"بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ"**(125).

و "بلى" إيجاب للنفى بلن ، وثلاثة آلاف اصلها ألف ، بدليل قوله تالى فى سورة الأنفال : **"إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ"**[2] ، فأكمل الله الألف فجعلهم ثلاثة آلاف ، ولك ذلك فى غزوة بدر ، ولم يرد خبر يثبت أن الملائكة قاتلوا فى غزوة غير بدر على الأصح.

والحقيقة أن الله أمد أهل بدر بألف ملك قاتلوا قريشا مع الصحابة ، ولما بلغهم خبر كرز بن جابر وحصل لهم الحزن ، أمر الله تعالى رسولهε أن يقول للصحابة : **"أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ"** ، قال الصحابة : بلي ، إيجابا للمنفي ، ولم يأت كرز بجيشه ، وهزم الله قريشا ، ونصر نبيهε ، فثبت بأن الله أنزل ملائكة يوم بدر زيادة عن الألف تقاتل مع الصحابة ، ولما أن اطمأنت قلوب الصحابة بخبر الله فى أن يمدهم بثلاثة آلاف زادهم الله طمأنينة وشكرا وفرحا ، بقوله لرسول اللهε قال لهم : **"إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ"** الآية.

شرط الله تعالى الإمداد بخمسة آلاف ، الصبر والتقوى ومجئ كرز بمن معه من الجيش ، ولم يأت كرز فى بدر لما علم بهزيمة قريش ، وهذا كله دليل على أن هذه الآيات نزلت فى بدر.

ومن أول تلك الآية الشريفة أنها كانت فى معركة أحد ، يرى أن انقلاب عبد الله بن أبى بن سلول مع ثلاثمائة رجل من جيش رسول اللهε ، وقد هم أن تفشل طائفتان من الصحابة مع عبد الله وآخرين ممن بقي منهم فأيدهم الله وثبتهم وطمأن قلوبهم فى يوم أحد بقوله : **"أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ"** ، بلى أن تصبروا على لقاء عدوكم "وتتقوا" ربكم فى الرغبة فيما عنده والزهد فيما فى الدنيا.

---

(1) كان هذا عدد المسلمين عام 1930 وقت أن كان يملى السيد الإمام هذه التفسير.

(2) سورة الأنفال آية : 9.

وقد تقم معنى **"تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا"** **"وَيَأْتُوكُمْ"** أى قريش من فورهم أى من غضبهم وحقدهم على من قتل منهم يوم بدر.

"يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ" أى يؤيدكم وينصركم "بخمسة آلاف من الملائكة مسومين" ومسومين من سامت الإبل ، أى انطلقت فى المرعى ، أو من قولك الأنعام السائمة ، فمعنى مسومين أى مهلكين الكفار لأن الأنعام إذا سامت أرضا أهلكت ما فيها من النبات.

وتأويل كلمة مسومين بمعلمين بالكسر ، أو معلمين بالفتح اقرب إلى بيان الآية ، وفى هذه الآية طهور مدار على أرواح أهل الإيمان إذا وفقهم الله تعالى فصبروا على مناواة الأعداء "واتقوا الله" بالرغبة فيما عنده والزهر فيما فى الدنيا من بزخها الفاني وزخرفها الباطل ، أمدهم سبحانه بروح منه تقوى بها هممهم وتطمئن بها قلوبهم وبالملائكة مردفين ومسومين ، وكم أكرم الله هذه الأمة وأمدها بالتأييد والنصرة حتى فى الحروف الصليبية وبعدها إلى اليوم ، والواجب علينا في مثل تلك الظروف العصيبة ونحن فى القرن الرابع عشر من الهجرة [1] أن نعمل بقوله تعالى : **"بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا"**.

وقد جربنا السياسة العوجاء مع الأفرنج ، واقتدينا بزعمائها ونسينا وعد الله تعالى ، وكانت نتائج هذه السياسة العوجاء والمخالفة للشريعة هى إذلالنا وتمكين عدونا منا ، وقد وضحت الحجة لكل ذى عقل ، فلهم بنا نرجع إلى ما وعدنا الله به ونثق أنه حكيم عليم.

قوله تعالى : **"وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ"**(126).

يزيد الله المؤمنين إيمانا حتى تبلغ بهم طمأنينة قلوبهم الدرجة التى تمناها الخليل عليه السلام ، فأنزلهم سبحانه وتعالى منازل أنبيائه الكرام ، لن الخليل عليه السلام قال بلى ولكن ليطمئن قلبى . . فسأل الله أن يريه تعلق القدرة بالمقدور بقوله : **"أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى"**[2] والله تعالى إكراما لحبيبه محمدع يكرمنا بما به تطمئن قلوبنا كما أكرم حبيبه سيدنا ومولانا محمداع بشرح صدره بدون سؤال ، فقال سبحانه : **"أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ"** بعد قول موسى عليه السلام **"رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي"** ، فقوله تعالى : **"وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ"** ، أى وما جعل الله وعده بإمدادكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين إلا بشرى أى خيرا وسرورا لكم.

"وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ" عطف الفعل على الاسم ، وكان يمكن أن يقول وطمأنينة لقلوبكم ، ولكنه سبحانه أتى بالاسم ، وعطف عليه الفعل ، لأن الوعد بالإمداد يحصل منه للإنسان أمران عظيمان ، أولهما البشرى ، وثانيهما الطمأنينة وهى القصد الأعظم ، فقدم سبحانه البشرى ثم أتى بالمقصد الأعظم متصلا بلام التعليل ليأتي به تعالى فعلا تقوية للاطمئنان كما قال تعالى: **"وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً"**[3] ، فعطف الفعل على الاسم هنا لتلك الحكمة.

وجائز أن تقول الواو هنا زائدة وتكون المعني "وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به" ولما أن وعدنا الله تعالى بإمداد الملائكة لنصرتنا على أعدائنا ، طهر قلوبنا من شوب التوحيد بالنظر إلى الأسباب ، وأن كل الصحابة بل وكمل المؤمنين من المسلمين لا يشوب توحيدهم شوب لأسباب، لأنهم يرون الأسباب قد وضعها الله تعالى لنتعرف بها إليه ، ولكنه سبحانه تفضل فأشهدنا حقيقة التوحيد لتكون طهره لنا مما يلم بقلوبنا من النظر إلى الأسباب ، أو من الوقوف عندها ، عصمنا الله تعالى مما يشوب التوحيد ويوقع فى الشرك الأخفى.

"وَمَا النَّصْرُ" أى وما الظفر والفوز بالنجاة من الأعداء ونيل الخير فى الدنيا والآخرة **"إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ"** وحده فهو سبحانه القادر على أن ينصرنا من غير إمدادنا بالملائكة ، قال تعالى : **"كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ"**[4] ، وما وضع الله الأسباب ألا لتقوم الحجة له سبحانه على النفس والعقل والحس والجسم ، وليظهر للأرواح ظهور القادر الحكيم الفاعل المختار المدبر شئون خلقه ، وصدر الجملة بأداة الحصر ، وهو النصر الحقيقى ، أو قصر الصفة على الموصوف ، يعنى النصر لا يكون لأحد من الخلق إلا من عند الله ، فمن

---

(1) هذا زمن إملاء السيد الإمام لكتاب أسرار القرآن.

(2) سورة البقرة آية : 260.

(3) سورة النحل آية : 8.

(4) سورة البقرة : 249.

شهد النصر بكثرة عدد ، أو بقوة عدد ، أو بحيلة وكيد ، أو بسياسة وخدع ، فهو مشرك يجب عليه أن يجدد إسلامه ، لأن الشؤون قدرها الله أزلا بإرادته ومشيئته ، ونفذها أبدا بقدرته وحكمته ، وأظهر الأسباب للعقول والأبصار كمال إيمان المؤمنين ، أو شرك المشركين بوقوفهم عند الأسباب.

قوله : "**الْعَزِيزِ**" أى القهار الذى يؤيد أوليائه الذين جملهم بالصبر والتقوى بقوته العلية ، فيذل أعداءهم وينصرهم عليهم بقهره وانتقامه ، وذلك بتدبيره وتقديره الخير لهم من الأزل ، وتنفيذ ما قدره فى سابق علمه سبحانه.

قوله " **الْحَكِيمِ**" أى الذى يظهر ما قدره بحكمة علية وتدبير ، ليقوى إيمان من آمنوا ، وليدخل فى الإيمان أهل الكفر بالله الذين أذلهم الله بالمؤمنين بما أظهره من عنايته بهم وإكرامه لهم.

قوله تعالى : "**لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ**"(127).

يزيد الله المؤمنين قوة فى إيمانهم بما بينه لنا من حكمة إمدادهم بالملائكة ، فيجعل من تلك الحكمة قطع طائفة أو جماعة أو فئة من الذين كفروا ، وقطعهم إهلاكهم ، والحقيقة أن الحرب إذا قامت أهلكت الطرف الذى يواجه المجاهدين ، وأيقظت الطرف الثانى والوسط ، فمعنى قوله تعالى "**طَرَفًا**" أى الطائفة التى برزت للحرب وتركت الوسط والطرف الثاني وراءها ، وفى قطع هذا الطرف إذلال لمن وراءهم من قومهم وقهر لهم ، وأراد سبحانه بالطرف المقاتلين منهم ، ومتى قهر الله طرفهم سرى القهر منه إلى الوسط وإلى الطرف الثاني.

ولذلك يقول سبحانه "**أَوْ يَكْبِتَهُمْ**" والكبت لغة هو لصق الوجه والبطن على الأرض ذلا وقهرا ، وهو مأخوذ من كبه على وجهه ، ومنها كبته ، أى رماه على وجهه فوق الأرض ، والمعنى أن من يقتل منهم يهان حتى يسقط على وجهه فوق الأرض من الجراح والخوف.

"**فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ**" أى فيؤول من كبتهم الله ولم يهلكوا فى القتال بالخيبة من الظفر بما كانوا يقصدونه ، ومن سلب ما كان فى أيديهم من الأموال والنعم باستيلاء الصحابة عليها غنيمة ، والخيبة حرمان الإنسان من الضروري والكمالي ومن آماله.

قوله تعالى : "**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ**"(128).

معنى هذه الآية بحب النظم ، ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم ، أو يتوب عليهم ، أو يعذبهم فإنهم ظالمون ،ليس لك من الأمر شئ ، فقد سبحانه : "**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ**" على نظم الآية ، لأنه هو المقصود الأعظم من البيان ، لأن قوله تعالى : "**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ**" ، أى ليس لك من أمور عبادى فى الرحمة بهم والشفقة عليهم وتمنى الخير لهم ، أو فى الانتقام منهم وقهرهم ، لأن ذلك كله إلى لا إليك ، والذى لك هو أن تنفذ أمرى مسارعة إلى رضاى ، ولا تجعل لك مرادا إلا المسارعة إلى القيام بما أمرتك به ، فإن فى ذلك نيل مرضاتى ، أما ما جعلته فى قلبك من الرحمة العامة والشفقة الشاملة وحب الخير للخلق جميعا ، فذلك إنما تستعمله فيما أمرتك به ونهيتك عنه لأكون أنا الفاعل المختار وحدى لا شريك لى ، وذلك لأن رسول اللهε بقدر ما كان يحصل من الرسل السابقين من الدعاء على قومهم وتمنى إهلاكهم ودمارهم ، كان قلبه عليه الصلاة والسلام مفعما بالرحمة على الخلق ، والعطف عليهم وتمنى هدايتهم ، حتى عاتبه الله سبحانه فى هذه الأحوال الرحمانية ، قال تعالى : "**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**"[1] ، وقال سبحانه : "**عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ**"[2] ، وقال سبحانه : " **فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ**"[3] ، وقال جل جلاله : "**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ**"[4] ، وأمثالها من الآيات الشريفة ، بعد قول نوح عليه السلام : "**رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا**"[5] ، وقول موسى عليه السلام : "**رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا**

([1]) سورة آل عمران آية : 159.

(2) سورة التوبة : 43.

(3) سورة فاطر : 8.

(4) سورة الكهف : 6.

(5) سورة نوح : 26.

اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ"[1] الآية ، مع أن رسول الله محمداع كان إذا اشتد عليه البلاء ، قال : "رب أهد قومى فإنهم لا يعلمون" ، وهذه الآية الشريفة من هذا المعنى.

فقوله تعالى : **"لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ"** أنزلها الله عتابا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على ما كان يتمناه للخلق أجمعين من الهداية والنجاة من الكفر والعذاب يوم القيامة ، وعلى تأويل أن الآية افتتحت بـ ليس لك من الأمر شئ ، تكون "أو" الداخلة على يتوب عليهم ، وعلى يعذبهم بمعنى حتى، ويكون الفعل منصوبا بها ، والآية الشريفة من قوله سبحانه : **"لِيَقْطَعَ طَرَفًا"** إلى قوله تعالى : **"فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ"** ، نزلت فى غزوة أحد.

سبب نزول هذه الآية أن رسول اللهع صلى الفجر بعد غزوة أحد ، وبعد أن كسرت رباعيته وشجت رأسه دعا للمستضعفين من المسلمين فى مكة، ودعا على جبابرة قريش ، وهى المرة الفذة التى دعا فيها فأنزل الله عليه : **"لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ"** ، أى ليس لك من الحكم والقضاء على خلقى شئ إلا أن تنفذ أمري فيهم ، لأني أنا الحكم العدل الذى قضيت ما قضيته أزلا حتى أتوب عليهم أو أعذبهم ، فإني لا أعذب إلا الظالمين ، بدليل قوله تعالى: **"فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ"** والظلم هو الشرك بالله ، وتقدم الكلام فى غزوة أحد بالإجمال ، ومن رغب التفصيل فليراجعه فى مكانه.

وفي هذه الآية الشريفة من الإشارات إلى على مشاهد التوحيد ما منها أن الله تعالى يقول : **"أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ"** يبين الله تعالى أن الخلق أجمعين لن يضروه شيئا ولو كانوا على قلب أكفر رجل منهم، وأنهم أنما يظلمون أنفسهم بالكفر والمعصية ،وهو جل جلاله أخبرنا أن له سبعين اسما من أسماء الجمال ، وله تسعة عشر اسما من أسماء الجلال ، وأن رحمته وسعت كل شئ ، فله فضل وإحسان على عباده ، فيقدر الخطايا جل جلاله ، ويقدر العفو والمغفرة سبحانه ، ويوفق العبد بما ينيله به التوبة إليه ، ويتفضل فيقبل التوبة ، ثم يتفضل فيغفر الذنوب ، ثم يتفضل فيبدل سيئاته بحسنات ، وهو الحكم العدل ، فيؤاخذ من شاء من عباده بخطاياه فيحرمه سبحانه من التوبة ، وتكون مؤاخذته جل جلاله للعبد على قدر الخطايا وذلك كله برهان على أنه سبحانه هو الفاعل المختار الملك القادر الحكيم الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

وإذا نحن فهمنا أن قوله : "فأنهم ظالمون" خبر عن مفعولى يتوب ويعذب ، فيكون "فأنهم ظالمون" صادقا على من تاب عليهم وعلى من عذبهم، ونحن نجوز أن الله تعالى يخلف وعيده وأن لم يخلف وعده ، ويجوز أن تكون المغفرة منه لأهل الظلم لأنفسهم يوم القيامة ، لأن الله على كل شئ قدير لا يتقيد بوعيده بل ولا بوعده ، إلا أن وعده تفضلا منه فلا يخلفه لأنه سبحانه ذو الفضل العظيم.

قوله تعالى : **"وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"**(129).

هذه الآية مرتبطة بالآية قبلها ، والمعنى أن الله تعالى يقول لحبيبه محمدع ليس لك من الأمر شئ ، بل الأمر كله لله سبحانه وتعالى فيتوب على من شاء ، ويعذب من شاء ممن خالفوا أمره ن وذلك لأنه سبحانه وتعالى له ما فى السموات وما فى الأرض ملكا وإيجادا ، ولما كانت السموات والأرض مكانا لخلقه ، وكان من خلقه من هم أفضل من السموات والأرض ، لزم أن تكون السموات والأرض له جل جلاله ، بدليل قوله تعالى : **"لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"**[2] .

وقوله تعالى : **"وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"**[3] وبهذا يثبت أن من فى السموات والأرض وما فيهما له سبحانه ملكا وإيجادا ، ومتى ثبت ذلك قامت الحجة على أنه سبحانه يفعل ما يشاء فى ملكه ن ويتصرف فيما يريد سبحانه من غير أن يسأل عما يفعل ، لأنه مالك كل شئ وموجد كل شئ.

وفى هذه الآية الشريفة حجة على أن كل مخلوق وأن رفعه الله فهو عبد الله طوعا أو كرها ، وبها تجريد الشوب من التوحيد حتى تثبت وحدة الأفعال ، وهى أن الفاعل المختار هو الله الواحد الأحد الذى وضع الأسباب وأقامها أواسط بينه وبين خلقه ، فظهر سبحانه بمعانى صفاته فى تلك الأسباب والأواسط ، فإن الكائنات جميعها لا تخلو من خصوصيات ليست لها من تلقاء نفسها لأنها مادة ، بل لأن القادر الحكيم خلق تلك الخصوصية فى كل مادة

---

(1) سورة يونس : 88.
(2) سورة الحديد : 5.
(3) سورة الأنبياء : 19.

بحسبها ، وفى طى تلك الخصوصيات تجليات لأهل البصائر تتجلى للناظر إليها بعيون عقله ونفسه ، وجمالا عليا يشهد الأرواح أنوار الأسماء العلية التى أفاض الله منها جماله وجلاله على الخلق ، وما من مادة من المواد ولا حقيقة من الحقائق إلا وأبدع الله فيها من بدائع إبداع صنعه أنواع كثيرة من الخواص لا حياة للعالم بأجمعه إلا بها ، فترى الشمس مع أنها تضئ تعطى الحرارة للأجسام ، وتبخر الماء وتؤثر فى الهواء ، وتنمى المعادن وتجعل المد فى البحار العظيمة ، وتغذى النباتات بما تكنه فيها من أنواع الحرارة التى تكون فى أليافها وجزوعها وفروعها وتوجد عند التهاب النهار بها ، وتعطى الألوان للزهور ، وتنضج الفواكه وتوجد الزيوت فى البذور المؤهلة لها وتعمل غير ذلك بالخواص التى أودعها الله فيها ، وقد جمع الله السموات وأفرد الأرض ليدل على أن السموات كثيرة وأن الأرض واحدة ، فإنه ما ذكر السماء فى القرآن إلا وأخبر سبحانه أنها سبع سموات ، وما ذكر الأرض إلا وأفردها.

وما وقع الخلاف بين علماء تخطيط الأرض وعلماء الأحكام الشرعية إلا من عدم تحقق علماء الأحكام وجهل علماء الحقيقة بآداب المناظرة ، فالقرآن أنزله الله تعالى الذى خلق كل شئ وعلم بكل شئ قبل خلقه ، فخبره لا يخالف المشاهدات الحسية والعقلية ،وقد أثبت الحس ان الأرض واحدة وأنها ليست كروية تامة التكوير ولا مبسوطة كل البسط ، ولم ترد فى القرآن آية تدل على أنها مبسوطة تماما ولا أنها كروية تماما.

ولكنا نرى أن كل ما خلقه الله من تلك الأجرام الهائلة يكون مستديرا ، والأرض وأن كانت منقسمة إلى سبعة أقسام هى آسيا وأفريقيا وأوربا وأستراليا والأمريكتان وجزائر الأقيونوسات فإنها كتلة واحدة فصلت بالبحار ولا يجوز أن نسميها سبعة أراضى ، وأن ورد فى الآية الشريفة قوله تعالى : **"خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ"** فإن المشبهة به السموات والمشبه الأرض ووجه الشبه هنا أن الله خلق الأرض سبع طبقات ، وأن الله خلق الأرض كما خلق السموات ولم يرد نص صريح على أن الأرض سبع طبقات تقوم به الحجة ، وهذه الآية لا تقوم بها الحجة على ذلك.

وما مال إليه الباحثون فى طبقات الأرض مما وصلوا إليه من أن الأرض فيها طبقات ترابيه ثم حجرية ثم معدنيه ثم بعد ذلك أجسام أشف من ذلك واهش فذلك مما لا يستدل به على شئ ، فإن تأثير الأفلاك على الطبقات العليا وما تقبله تلك الطبقات العليا من تأثير تلك الأفلاك حرارة ورطوبة ، وما يحدث فيها من تفاعلات كيماوية ، وفى جوف الأرض الباطن يجعل تلك الأجسام التى كمنت فيها تلك الآثار تخالف كل المخالفة سطحها الظاهر ، كما يحصل هذا التأثير فى الأجسام الحية التى تكون فى الأقاليم الباردة أو الحارة ، والواجب ألا نتعصب لما نفهمه فى كتاب الله حتى تقوم الحجة فلا تفتح أبواب الفتن على المسلمين فيقعون فى الجدل الذى حرمه الله تعالى.

"يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ" المغفرة فى اللغة هى الستر على المذنب حتى ينسى ذنوبه فلا يرى أحد عليه ذنب ولا الملائكة ، قالε "إذا تاب العبد أنسى الله الحفظة ذنوبه وأنسى ذلك معالمه وجوارحه من الأرض حتى يلقى الله وليس عليه شاهد بذنب" والعذاب هو الانتقام من المجرم المرتكب الكبائر.

وفى هذه الآية دليل على أن الله تعالى لا يتقيد بشئ ، فهو الملك المطلق يتفضل بفضله العظيم على من يشاء بغير استحقاق ، ويعاقب من يشاء باستحقاق.

"وَاللَّهُ غَفُورٌ"

أى ستار يستر العيوب والذنوب الصغائر والكبائر بفضله وإحسانه.

"رَحِيمٌ" أى عطوف وسع خلقه برحمته ، ولولا رحمته لما وجد كون ، ولما بقى فى السموات والأرض مخلوق ، فبرحمته أوجد الخلق ، وبرحمته أمدهم بما به بقاؤهم إلى الأجل المحتوم ، وبرحمته تفضل فأرسل الرسل وأقام العلماء ، وبها أنزل الأمطار وسخر السحاب ، وصرف الرياح وأجرى الأنهار وزرع النباتات وأمد الخلق بما لابد لهم منه وأكمل ، فسبحان الغفور الرحيم ، وقد ذكر هذين الاسمين الشريفين ليشهد النفوس فضله العميم وبره وجوده ولطفه ورأفته فتنجذب إلى الإسلام بعمل المحبة.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"**(130).

بعد أن بين الله تعالى أحكام الجهاد وما يجب على المؤمنين أن يقوموا به بالنسبة لأعداء الله تعالى ، استأنف الكلام بأحكام يجب أن يراعيها المؤمنين ، وجائز أن يكون كفار قريش حصلوا من ربح الربا أموالا أنفقوها فى محاربة الله ورسوله ، فجائز أن تميل قلوب الصحابة إلى استعمال الربا ليجمعوا منه أموالا كثيرة يجاهدون به أعداء الله تعالى ، فبين لهم حرمة الربا بقوله تعالى **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا"** الآية ، أى يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله **"لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً"** هذه أول آية نزلت فى الربا وهى منسوخة بقوله تعالى **"وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ**

الرِّبَا"[1] ومعناها أن الرجل فى الجاهلية كان إذا أعطى الرجل مالا وزاد عليه ربا ، ولم يتمكن من دفع المال فى ميعاده زاد عليه مالا آخر وأجله حتى قد يبلغ الربا أضعاف راس المال ، فنهانا الله عن ذلك . وهذه الآية لا تفيد إباحة الربا قل أو كثر.

قوله تعالى : **"وَاتَّقُوا اللَّهَ"** تقدم معنى التقوى والفلاح فى سورة البقرة ، ولكنا نزيد هنا بأن الله تعالى جعل كل خير يمنحه للعبد متوقفا على التقوى ، فالتقوى سبب كل خير فى الدنيا والآخرة ، لأن تقوى الله تعالى تكسب الإنسان أخلاقا جميلة بسبب مراقبته لربه ، فيحب لغيره ما يحب لنفسه ، بل ويؤثر غيره على نفسه فى مرضاة الله تعالى ، فيلقى الله عليه محبة منه سبحانه فيحبه الخلق ، وبذلك يعيش سعيدا عزيزا ، فإذا مات واجهه الله بما يواجه به الأتقياء من عباده ، فأنزله فى دار كرامته وجمعه مع النبيين والصديقين والشهداء وفى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ومن أتقى الله تعالى ملأ الله قلبه غنى وأرواح جسمه من العناء ووسع له رزقه ، والتقى قريب من الله ، قريب من الخلق ، قريب من الجنة ، بعيد عن النار.

قوله تعالى : **"لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"** أى لتفلحوا والفلاح هو الفوز بجميع المقاصد ، فمن كان مراده الله فاز بمقصده ، ومن كان مراده ما دون الله تعالى من نعيم الآخرة ومسراتها فاز به بسبب التقوى.

قوله تعالى : **"وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ"**(131).

بينت لك فيما سبق أنواع التقوى ، وهى تقوى الله ، وتقوى الرب ن وتقوى اليوم ، وتقوى النار ن وقد تقدم لك تعريف التقوى ، وتقوى النار هنا هو التحفظ من كل عمل يستوجب دخول النار.

"أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ" أى أعدها الله للكافرين ، فإذا قارف المؤمنون عملا لا يعمله إلا أهل الكفر بالله اتصلوا بهم ، وهذه الأعمال التى سبقت الآية الشريفة لها هى الربا ، فإن آكل الربا لا يستطيعه إلا أهل الكفر بالله الذين سلب الكفر الرحمة من قلوبهم ، وأبدلها بالطمع والحسد والحرص ، ولا تكون تلك المعانى فى قلب كمل فيه الإيمان ، فإن الإيمان كما قررت لك هو عقد القلب على أفراد الله بالتعظيم ، وعلى المسارعة إلى العمل بأمره والبعد عما نهى عنه ، فإقرار باللسان فعمل بالجوارح ، وقلب عمر بعقيدة التوحيد واطمأن بذكر الله يعصمه الله من الوقوع فى الكبائر ، قال تعالى : **"إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ"**[2] ، ولا يفرح عبد بعمل المعاصى وقلبه فيه الإيمان ، قالε : "لا يزنى الزانى حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن" الحديث ، وهذه الآية تدل على أن مرتكبى الكبائر التى لا يقع فهيا أهل الكفر بالله تعالى يدخلون النار ، وهذا لا يخالف ما عليه أكثر المسلمين من أن المؤمن لا يدخل النار ، فإن المراد منها أن المؤمن الذى طهره الله من الوقوع فى الكبائر لا يدخل النار مهما أرتكب من صغائر ، وذلك لأن الإيمان يزيد وينقص ونقصانه بعمل المعاصى، وزيادته بتحصيل العلم النافع والمسارعة الى العمل الرافع.

قوله تعالى : **"وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ"**(132).

هذه الآية يعتب الله بها على الصحابة الذين شاهدوا يوم أحد من الرماة الذين خالفوا رسول اللهε وتركوا مواقفهم وأسرعوا للغنيمة فكان ما كان ، وأن كان سببها خاصا ولكنها عامة فى الحكم ، ومعناها أن الله يقول للمؤمنين أطيعوا الله تعالى ، فيما كلفكم به فى كتابه العزيز ن وأطيعوا الرسول فيما بينه لكم من كتاب الله وما أمركم به بالقول والعمل.

"لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" أى لتنالوا النجاة فى الدنيا من عقوبة الله تعالى فيها، وتنالوا النجاة فى الآخرة بالفوز بالجنة والبعد عن النار ، وهذه الآية وما بعدها وما قبلها متصلة بغزوة أحد.

وفى هذه الآية إشارة إلى أن طاعة الرسول فرض عين علينا فيما أمرنا به ولم يكون له دليل من القرآن . وهى حجة على بعض من لا خلاق لهم ممن إذا سمعوا الخبر عن رسول اللهε ، قالوا ما رأيناه فى كتاب الله عملنا به وما لم نره فى الكتاب لم نعمل به ، وقد ورد فى آخر الحديث الطويل قولهε: "أما وأنى أوتيت القرآن وأكثر من القرآن" ونحن لم يصل إلينا القرآن إلا منهε ، وقد قامت الحجة بالمعجزة وبالعقل وبما أنزله الله فى الكتب السالفة من أنهε خاتم الرسل وأنه معصوم ، سر قول الله تعالى : **"وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى"**[3] .

([1]) سورة البقرة : 275.

([2]) سورة النساء : 31.

([3]) سورة النجم : 3 – 4.

قوله تعالى : **"وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ"**(133).

هذه الآية الشريفة من متعلقات غزوة أحد والحكم فيها عام أيضا ، والمسارعة لا تكون إلى المغفرة ولكنها تكون إلى ما ينيل العبد المغفرة من الله تعالى ، والأمر فيها عام لا يختص بحكم دون حكم لأن السياق يقتضى المسارعة إلى إطاعة الله وإطاعة رسوله فى كل أمر ونهى ، وأنه خصه بعضهم بقوله هو الإسلام أو الجهاد أو الحج ،والظاهر أنه لا قريبة تعين نوعا من أنواع الأحكام دون غيره ونيل المغفرة من الله لا يكون إلا بالقيام بتأدية كل الأوامر، واجتناب كل ما نهى الله عنه.

قوله تعالى : **"وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ"** هذا دليل على أن الجنة مخلوقة ، وأن مكانها فوق السماء السابعة وسقفها العرش ، وهى محيطة بالسماء السابعة وأكثر ، حتى أن عرضها يساوى طولها لو مدت الأرض واتصلت بطبقات السموات لكانت مثله ، والعرض أقل من الطول بكثير ، فكيف يكون طولها؟؟

وهذا ما دعا بعض من يجهل قدرة الله تعالى إلى السؤال بقوله . إذا كان عرض الجنة كالسموات والأرض متصلة بعضها ببعض ممتدة فأين تكون النار ؟ ؟ . والأمر هين عقلا لأن دارا سقفها العرش ومكانها فوق السموات السبع، والسموات السبع تحت أرضها من كل جهة ، وكل سماء فى جوف الأخرى ، وبين الجنة والسماء السابعة كما بين الأرض والسماء السابعة من الارتفاع ، هذه الدار يكون طولها بعد هذا التصوير مساويا لعرض السموات والأرض ولكن الجاهل عدو نفسه.

وقد كتب هرقل ملك الروم فى الشام إلى رسول اللهε يسأله أنت تقولن – الجنة عرضها السموات والأرض فأين تكون النار ، فأجابه رسول اللهε بقوله – سبحان الله – هذا النهار فأين يكون الليل ، وفى هذا الجواب الحجة البالغة التى أخضعت أهل الشك والريب.

"أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ" أى أن الله تعالى خلق الجنة وجعلها دار نعيمه المقيم ، وأعدها مجملة بما به مسرات الروح وبهجة العقل ولذة الجسم وأنس الحس ، وأكرم بها أهل التقوى من عباده المؤمنين ، وجعلها دائمة أبدية ، ولما كان هذا الخبر من الله تعالى يجعل نفوس أهل الإيمان يشتاقون إلى علم ما يحصلون به الفوز بهذا النعيم الأبدي ، فبين الله صفات المتقين ولم يذكر أشخاصهم رحمة بعباده ووسعة لرحمته سبحانه ، حتى يسارع من سبقت له الحسنى فى علمه تعالى العمل لها ، وذكر تلك الصفات وافتتحها بما هو شاق على النفوس وهو الإنفاق.

قوله تعالى : **"الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"**(134).

والإنفاق هو صرف المال فى سبيل الله تعالى كالجهاد والحج وإغاثة الغريب والأسير والفقير ، ليعلموا أكلة الربا ممن سلبت الرحمة من قلوبهم فصاروا أضر من الوحوش الكاسرة ببنى الإنسان ، وكيف لا والله تعالى أعد الجنة التى عرضها السموات والأرض لكل تقى بمفرده ، وجعل من أعظم صفاتهم وأجلها الإنفاق فى السراء والضراء فى سبيل الله تعالى.

والسراء هى مزيد السرور ، ومن أسبابه الوسعة فى الأرزاق والعافية فى الأبدان والصلاح فى الأهل والأولاد ، والضراء هى الشدة فى الضرر ، وتكون بالفقر والمرض وسوء الحال ، والتقى هو الذى ينفق ماله فى وجوه الخير حالة الغنى والفقر ، كما قال الله تعالى : **"وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ"**[1].

"وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ" أى الذين يقهرون أنفسهم عند أسعار نار الغضب وهيجان شهوة الانتقام فيحبسون أنفسهم عن إظهار مقتضى الغيظ ، وكظم الغيظ برهان على جهاد العبد نفسه مسارعة إلى نيل رضاء الله تعالى.

"وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ" لما كان كظم الغيظ تجرع مرارة الصبر على مضض ، وكان هذا مقاما من مقامات أهل المعرفة ، ولكن أعلى منه وأفضل أن يحسن إلى المسيء ، قال رسول اللهε : "أحسن إلى من أساء إليك تكن أعبد الناس" وفى الحكمة ، "أن الإحسان وراء الإحسان إحسان ، وأحسن منه الإحسان وراء الإساءة ، والإساءة وراء الإساءة ، إساءة، وأسو منها الإساءة وراء الإحسان" ،وكظم الغيظ لأهل الصبر ، العفو عن المسيء عفوا ينتج عنه صفاء جوهر النفس ، صفاء يجعل العافي عن المسيء يعطف عليه ويتودد إليه، وهو من أعلى مقامات أهل اليقين.

([1]) سورة الحشر : 9.

"وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" فجعل محبته سبحانه التى هى أعظم نعمة ينعم بها على من اصطفاهم من خيرة خلقه ، تفضلا منه على من جملهم بتلك الصفات المحبوبة لحضرته ، ومن أجلها العفو عن الناس ولهذا أخبرنا سبحانه بأنه يحب المحسنين ، والمحبة من الله هى إيثار الله للعبد إيثارا يجعله فردا لذاته ، كما قال مخبرا عن أخوة يوسف عليه السلام : **"تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا"**[1] وخبر الله بأنه يحب المحسنين حجة على منكرى محبة الله للعبد ، وقد بينت هذا الموضوع فى كتاب : "أصول الوصول" فى مقام المحبة فليرجع إليه طالب المزيد من العلم ، والمحسن هو الذى سارع إلى القيام بأوامر الله تعالى ابتغاء مرضاته جل جلاله ، مراعيا فى ذلك الاقتداء بالسنة الشريفة ، ولا يكون الإحسان إحسانا إلا إذا كان عمل الجوارح مستمدا من القلب حتى يكون القلب والجوارح متحدين ، نيه واردة وعملا ، قال رسول اللهع : "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك" ، والمحسن فى هذا مقامين.

المقام الأول : مقام اليقين المؤيد بالشهود.

والمقام الثاني : مقام المراقبة والرعاية المؤيد بالعلم الحق.

وكفى المحسنين شرفا أن الله يخبرنا بمحبته لهم ، وهذا هو المقام الذى تسارع إليه أرواح الصفوة من عباد الله المؤمنين ، وما أحب الله عبدا إلا جمله بجاذبة المحبة لحضرته العلية ، قال سبحانه **"يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ"**.

قوله تعالى : **"وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ"**(135)

لما بين الله تعالى لنا أنه أعد جنة عرضها السموات والأرض لكل تقى من عباده ، وبين لهم الصفات التى تجعل لمن تجمل بها هذه الجنة ، وذكر صفاتهم ، فجعل من أهم تلك الصفات وأجملها تلك الأخلاق المحمودة التى يتجمل بها المتطهرين من دنس البشرية ، ولوازم الحيوانية ، ودواعى النفوس الأمارة بالسوء ، وشرحها بقوله مبتدئا بالقسم الحالى : **"الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ"** ، ثم بالنوع الأخلاقي ، بقوله : **"وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ"** وبشرهم بمحبته سبحانه لهم بقوله : **"وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"** ، وهو فضل من الله مضاف إلى تفضله سبحانه عليهم بتلك الصفات العالية ، وبعد أن بين سبحانه صفات المتطهرين من خلقه ، طمأن قلوب أهل المعاصي ، فذكر صفات النوع الثاني التي ينال من وفقه الله للقيام بها جنة عرضها السموات والأرض.

فقال تعالى : **"وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً"** أى وقعوا فى ذنب ، تجاوزا بوقوعهم فيه حد الأدب مع الشريعة تجاوزا فاحشا ، وأن كان خصه بعضهم بأن الفاحشة هى الزنا ، بدليل قوله تعالى : **"وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا"**[2] ، والمعنى والذين فعلوا فعلة فاحشة نكرة ، ونسلم بأن الفاحشة هى الزنا ، إلا أن ذلك لا يمنعنا من أن نفهم أن فاحشة هنا قد يراد بها كل كبيرة ، وهذه وسعة من الله تحفظ قلب المؤمن من اليأس أو القنوط بارتكاب الكبائر، وتطمعه في نيل مغفرة من الله وثوابه ، وهذا كمال الفضل من الله العظيم الذي لا تضره المعاصي ، ولا تنفعه الطاعات ، وعلى هذا فالمؤمن فتح الله له أبواب التقرب إليه وجذبه بجواذب الإحسان ليفوز بما لديه ، فلا يدخل مؤمن نار جهنم إلا إذا كان ممن سبقت لهم السوءى وقفل الله قلوبهم عن ذكره.

"أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ" ذكر ظلم النفس هنا بعد الفاحشة دليل على أن ظلم النفس هو وقوع المؤمن فى الصغائر التى لم يحد لها القرآن المجيد حدا يقام على مرتكبيها ، إلا أنها تكون سببا فى الوقوع فى الكبائر أن تمادى المؤمن على فعلها . . . ومثل التهاون فى عمل السنن المرغب فيها أو ما أشبه ذلك مما لا يتنزه عن الوقوع فيه أكمل الرجال أهل المقام العالية ، هنا نتحقق أن الله تعالى هون علينا رحمة بنا.

فنعم الرب ربنا نسأله سبحانه أن يجعلنا له نعم العبيد ، فإن ذلك بفضله وإحسانه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وعلينا أن نحكم على أنفسنا بالعجز عن شكره جل جلاله ، ونسأله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته ، قياما لحضرته العلية بواجب علينا على قدرنا لا على قدره.

"ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ" ولما كان ذكر الله تعالى يكون على قدر علم العبد به سبحانه حذف المضاف إليه ، فإن من المؤمنين من يذكر عقوبته فى الدنيا كالفقر والمرض والزلزال وعداوة الخلق . فيستغفره عند وقوع الكبائر والصغائر ، ومنهم من يذكر الموت وعذاب القبر ، فيسارع إلى الاستغفار ، ومنهم من يذكر حساب

([1]) سورة يوسف : 91.

([2]) سورة الإسراء : 32.

الآخرة وعقوبتها ونعيمها ، فيستغفره سبحانه مما ألم بنفسه من اللقس ، ومنهم من يذكر رضوانه الأكبر ومشاهدة جماله العلى فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، فيستغفر الله من أصغر الهفوات التى يراها كأكبر الكبائر بالنسبة لأهل الغفلة ، إنما يعظم الهفوات بقدر تعظيمه لربه، كما أن أهل الغفلة بجهلهم بالله لا تعظم فى نفوسهم إلا الكبائر ، ومنهم أهل الرضا عن الله الذين رضى الله عنهم وأرضاهم ، فإنهم يستغفرون الله إذ لم يقوموا بما قام به أهل العزائم من السلف والخلف ، ومنهم أهل الوراثة الكلية الذين يستغفرون من شهود الحسنات ، فيكون استغفارهم من أعظم القربات، لأنهم تمثلوا استغفار رسول الله الذى كان يستغفر الله فى المجلس الواحد سبعين مرة ، وهو سيد المحبوبين ، وأمام المرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام ، وهذا الاستغفار منهg لأنه أعلم بنفسه وبربه ، قال تعالى : **"إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا"**[1] .

ومن احتسى جرعة من هذا الطهور المحمدى ، يعلم كيف أن الله أمر نبيه وأصحابه بعد نصر الله لهم فى الجهاد ، ودخول الناس فى دينه أفواجا بفادح جهادهم وبذلك أنفسهم تحت شفار السيوف ، أمرهم بعد ذلك بالتسبيح والاستغفار ، وهم فيها كانوا فيه من مرضاته جل جلاله ، فكيف بنا ونحن فى كمال الغفلة والنسيان ، ونحن والله أولى بأن نستغرق أنفاسنا فى الاستغفار والتوبة إلى الله تعالى ونتمنى أن يغفر لنا ، بل نطمع فى غفرانه لعلمنا بأنه رب غفور رحيم.

"ذَكَرُوا اللَّهَ" أى ذكروا عقوبته ومؤاخذته فى الدنيا والآخرة **"فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ"** ، أى ذكروا ما قررت لك فأنتجت الذكرى انفعالا نفسانيا ، تمثلت فيه النفس وقوع المكروه ولا محالة ، ولم يبق لها إلا طلب الخلاص منه أو الوقوع فى اليأس والقنوط ، فيسر الله للمذنبين سبل النجاة ، وفتح لهم أبواب القبول ، فسارعوا إلى الاستغفار بوجدان جاذب إلى الله تعالى بعد تمثيل ما توعد الله به أهل الكفر والنفاق.

فلما أنتجت تلك الذكرى ، وأنتج هذا الانفعال والمسارعة إلى الاستغفار بعد كسر القلب من ندم بمجاهدة النفس مجاهدة فادحة ، تفضل الله فطمأن قلوبهم وبين لهم أنه سبحانه هو المنفرد بالعفو والمغفرة والقبول دون غيره ، وأنه سبحانه لا تضره معاصى الخلق كمالا تنفعه طاعاتهم.

قوله تعالى : **"وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ"** هى جملة حالية مقحمة بين الآيتين ليبشرهم بقبول توبتهم بأنه غفر لهم ، ثم ساق الآية الثانية متصلة بالتى قبلها مبينا فيها أن هذا الاستغفار نتج عن يقين حق وتمثيل صحيح ، فقويت الإرادة ، وعظمت لديهم الرغبة فى بغض الذنوب وكراهتها ، حتى ذاقوا مرارة الذنب بعد وقوعه ، كما ذاقوا حلاوة المعصية عند وقوعها.

"وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا"يخبرنا الله أن الذين فعلوا الفاحشة وظلموا أنفسهم ، كانوا مصرين عليها فرحين بالوقوع فيها ، فلما ذكروا الله تعالى وتمثلوا هول الموقف أمامه ، دعتهم العناية الإلهية إلى الندم ، وبغض المعاصي ، وانكسرت قلوبهم أمام من ذكروا عقوبته ،والجملة معطوفة على قوله تعالى : **"وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً"** ، والإصرار على الشئ الرغبة فى العودة إليه ، والعزم على عمله.

"عَلَى مَا فَعَلُوا"أى من المعاصي **"وَهُمْ يَعْلَمُونَ"** معناها أن الله تعالى يتجاوز عن الناسي والساهي والجاهل ، والمكره لا لوم عليه وله العذر ، أما العالم بالأوامر والنواهي المخالف لما أمر به ، فهو المؤاخذ الذى لا عذر له.

قوله تعالى : **"أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ"**(136).

الإشارة عائدة إلى المتقين ، الذين بين الله صفاتهم لنا وأعد لكل واحد منهم جنة عرضها السموات والأرض ، ولما ان شرح لنا صفاتهم المتعلقة بقواهم النفسانية والأخلاقية والجسمانية ، أعاد لهم البشرى بما يطمئن قلوبهم، فقال سبحانه : **"أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ"** أى هؤلاء الذين أثنيت عليهم وأقمتهم موفقين للعمل بما أمرتهم به وتكر ما نهيتهم عنه ، جزاءهم مغفرة ، أى ستر ذنوبهم حتى ينساها كل مخلوق ، والملائكة الحفظة ، لأن الذنوب والمعاصى معلومة لله تعالى لا تمحى ، ولكنه يغفر ، والمغفرة هى الستر فيسترها عن الشخص نفسه وعن الخلق أجمعين ، فيلقى الله تعالى ، وليس عليه شاهد بذنب.

"مِنْ رَبِّهِمْ" أى تلك المغفرة فضل من ربنا جل جلاله لا بشفاعة ولا وسيلة **"وَجَنَّاتٌ"** أى وبساتين زاهرة زاهية جامعة لأنواع المسرات الجسمانية والعقلية والروحانية بحسب ما احتوت عليه من الجمال والكمال والنور ،

([1]) سورة النصر : 1،2،3.

وقد أفرد الجنة فى أول الآيات وجمعها فى هذه الآية ، ليدل على أن كل واحد منهم له جنة خاصة لكمال مسراتهم وطهارة قلوبهم من غل التنافس والحسد.

"تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ" أى من تحت أشجارها ، وهذه الآية إشارة إلى دوام النعيم مع راحة الأبدان من عناء التعب فى تحصيل ما لابد منه لنضرة النباتات من الماء.

"خَالِدِينَ فِيهَا" أثبت الله لهم البقاء فى الجنة لتطمئن قلوبهم بدوام المسرات فى غير إنزعاج من خوف حصول نقص ، أو أمل فى مرغوب فيه لتوفر كمالياته ، لأن الله تعالى لما قال **"جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ"** أمنا العذاب ، ولكنا تشوقنا إلى نيل الخير ، فقال : **"وَجَنَّاتٌ"** أى بساتين ففرحنا ، ولكنا تشوقنا إلى أن تكون تلك البساتين توفرت فيها لوازمها ، وأعظم اللوازم هو الماء الذى كنا نتحمل فى تحصيله الشدائد الفادحة التى تقع فيها المشاحنات والمنازعات والخصومات خصوصا إذا قام الظلمة بالانتفاع بالماء وأهملوا الفقراء.

فقال تعالى تجرى من تحتها الأنهار ففرحنا براحتنا من هذا الوجه ، ولكن خطر ببالنا الموت الذى كنا نتوقعه فى الدنيا فى كل نفس ونخاف منه ومما بعده ، فأزال الله عنا هذا الخوف لتكتمل لنا المسرات ، وتتم علينا النعمة، فقال سبحانه : **"خَالِدِينَ فِيهَا"** فلما بشرنا بالخلود عجزنا عن شكره سبحانه وصرنا معه جل جلاله بعد أن أكرمنا بما هو فوق ما نشتهيه ونتمناه ، فقال سبحانه : **"دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"**[1].

انظروا إلى فضل الله وإحسانه ، كيف وفقنا وهدانا فى الدنيا للتوبة والإنابة إليه من معاصينا ، وكيف أقامنا فيما يحبه ويرضاه من الأعمال القلبية والبدنية ، وكيف تنزل جل جلاله فنسب ما تفضل به بإحسانه ومننه من التوفيق والهداية إلينا ، ثم تفضل فضلا أكبر وأعظم ومنحنا نعيم الآخرة الأبدي والأنس فى رياض الجنة وجعل ذلك الفضل جزاء لنا وهو جل جلاله الفاعل المختار.

وإذا كان هذا فضله فالواجب علينا أن نعرف قدر أنفسنا ، لنعرفه ونعلم أننا عبيد مقهورون وعباد مربوبون ، أبدعنا البديع القادر الحكيم من العدم وتفضل فجملنا بما يحبه من صفاته العلية ، وهدانا لما يحبه من الإسلام والإيمان وأعاننا على العمل بشرائع الإسلام ، ثم أتم نعمته علينا بما أقامنا فيه من الخير فى دار كرامته ، والأنس فى جوار حضرته فله الحمد وله الشكر حتى يرضى.

"وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ" يعنى أن المغفرة والجنات التى تجرى من تحتها الأنهار والخلود فيها أجر عظيم لعملهم ، ونعم هذا الأجر على عملهم.

هذا ظاهر هذه الآية ، أما ما فيها من سرها الغامض فهذه الآية تنزل من الله لأحبابه ليعلمهم كيف تفضل عليهم بما قاموا به ، وكيف نسب إليهم هذا الفضل ليعلموا كيف يتأدبون لحضرته العلية ، وكيف ينظروه إلى أعمالهم القلبية والجسمانية فى جانبه جل جلاله ، وهذا مشهد أهل التوحيد الكامل ، وظاهر الآية لأهل الظاهر وسرها لأهل المحبة والقرب ، جملنا الله بما به نكون مقربين من حضرته مشاهدين لغيب أنواره حاضرين معه سبحانه.

قوله تعالى : **"قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ"**(137).

هذه الآية الشريفة خبر من الله تعالى تبيينا للمؤمنين وعبرة لهم ليعتبروا بها ، وتشنيعا وتوبيخا للكافرين ليتحققوا أن وقوع ما وقع منهم على المسلمين فى يوم أحد إنما كان استدراجا من الله تعالى لهم ، وإمهالا منه سبحانه لا إهمالا حتى إذا أخذهم لم يفلتهم ، كما أخذ من قبلهم ممن كذبوا الرسل وكفروا بهم ، كقوم نوح وعاد وثمود ولوط وقوم عيسى من بنى إسرائيل.

وفى ذلك يقظة لقلوب المسلمين من الرماة الذين خالفوا رسول اللهε وفارقوا مواقفهم فى غزوة أحد طمعا فى الغنيمة فكان وقوع ما وقع من سفك دمائهم ، وسلطة المشركين عليهم آية من الآيات الكبرى ليعلموا أن مخالفة رسول اللهε تنتج ما لا يرضوه لأنفسهم فى الدنيا والآخرة.

"قَدْ خَلَتْ" أى مضت ، فإن لفظة خلا إذا دلت على الزمان كانت بمعنى مضى ، وإذا دلت على المكان كانت بمعنى انفرد ، فيقال خلا المكان أى انفرد من الناس ، **"مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ"** والسنة هى العادة والعمل الذى يقع ممن يقتدى به فى كالإمام ، والمعنى أن الله تعالى يقول قد مضت من قبلكم أمم من أهل الإيمان ، الذين أقامهم الله دعاة إلى الحق بالحق فصبروا على ما أوذوا مسارعة إلى نيل رضوان الله الأكبر ، ومضى أقوام من أهل الكفر بالله

([1]) سورة يونس : 10.

كذبوا رسله وآذوهم فأمهلم الله تعالى ولم يهملهم حتى انتقم منهم فى الدنيا بما أنزله بهم من خسف وغرق ومسخ وتسليط الأعداء عليهم ، ثم أجل الانتقام منهم بالخلود فى نار جهنم يوم القيامة ، ولكل من الطائفتين آثار ، فآثار أهل الإيمان مدح الله لهم فى كتبه المنزلة وحسن الأحدوثة الباقية لهم فى تلك الدار ، ثم بنيلهم النعيم الابدى ، كما أخبرنا الله بذلك ، وآثار أهل الكفر بالله ما تراه من مدن خاوية على عروشها ، وآثار مشيدة تدل على ظلم وقهر واستعباد لعباد الله ، كما نراه فى مصر ، وفى بابل ، وفى غيرها مما أثبته التاريخ.

قوله تعالى : **"فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ"** وهذا أمر من الله تعالى لأهل الإيمان الذين صدقوا الله تعالى وصدقوا رسولهε ، يأمرنا سبحانه أن نتنقل فى البلدان لنرى بأعيننا آثار عن **"إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ"** حتى غرتهم الدنيا وما خولهم الله من الملك فهلكوا وأهلكوا من كان معهم وصارت آثارهم غبرة لمن يعتبر.

"فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ" يكلفنا الله بالنظر الفكرى فيما نراه من آثار الكفار التى شيدوها وأقاموها ، وأبادهم الله وأهلكهم ولم يبق لهم أثرا يذكر فيشكر ، بل كل ما نراه دال على الظلم والانتقام **"الْمُكَذِّبِينَ"** أى الذين لم يمنحهم الله القابل ، فلم ينتفعوا بما جاءهم من عند الله على السنة رسله صلوات الله وسلامه عليهم.

وسبب نزول هذه الآية أن الله تعالى يبين لمن شهدوا معركة أحد أن ما أصابهم من البلاء وكان سببه مخالفة الرماة لرسول اللهε إنما هو تمحيص لهم وعبرة لمن يأتى بعدهم ليحسنوا اتباع السنة بإخلاص.

قوله تعالى : **"هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ"**(138).

الإشارة هنا التى لا تكون إلا للقريب المسموع أو المرئى تعود إلى الآيات السابقة التى بين الله فيها غزوة أحد وختمها بالعبرة التى ذكر فيها : **"قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ"** الخ الآية.

وجائز أن نقول الإشارة عائدة إلى القرآن المجيد والبيان هو كشف الحقائق لتظهر لمن يدعى إلى الحق رغبة أن يقبل البيان فيفوز.

والهدى هو الدلائل التى تظهر أحكام الدين للعمل بها بعد ظهور السبل للهدى ، والموعظة وهى القول المؤثر على المتساهل ليسارع إلى الإقبال بكله على ما يقيمه فى مقام الأبرار.

فالهدى هو القول الذى تستبين به أصول الدين وفروعه.

والموعظة هى القول الذى يلفت القلوب والأبدان إلى ترك ما يخالف الدين ، وعمل ما يوافق السنة.

ولذلك فالله تعالى لقول : **"هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ"** فخص البيان بالناس عامة وخص الهدى والموعظة بالمتقين ، وكل قول أو عمل لأهل الجهل أو لغيرهم من أهل النفاق أو الكفر بالله يسمى بيانا.

وما كان لأهل الإيمان الراغبين فى تحصيل العلم وقبوله للعمل به فهو هدى ، وما كان لأهل الإيمان الذين حصلوا العلم اللازم للمسلم وتساهلوا فى العلم به ، أو وقع منهم ما يخالف السنة فهو موعظة **"لِلْمُتَّقِينَ"**.

وفى هذه الآية دليل على أن أهل التقوى هم الذين يقبلون الهدى والموعظة من العلماء غير الحكماء ، لأن ظرف الجوهرة لا ينقص الرغبة فيها ، وكذلك المتقين إذا سمعوا الهدى والموعظة من العدو البغيض البعيد أقبلوا عليه وقبلوا منه ، ε : "الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها" ، فميزان أهل الإيمان الذى نعلم به مقدار إيمانهم ، هو أن يشرح الله صدورهم للهدى والموعظة حتى تظهر عليهم انفعالات نفسانية تدل على صدق توبتهم وحسن إنابتهم ، وأما أهل الإيمان الضعيف ، فإنهم إذا سمعوا الهدى والموعظة انتفخت أوداجهم واكفهرت وجوههم وظنوا أنفسهم أنهم فوق الهدى والموعظة ، وربما خاصموا من يدلهم على الحق ، ومن كان من المتوسمين يعلم من صحيفة وجوههم جهلهم بأنفسهم وغرورهم بما فى أيديهم من خراب قلوبهم.

قوله تعالى : **"وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"**(139).

هذه الآية مرتبطة بغزوة أحد إذ يكرمنا الله بأن ينهانا عن أن نضع أنفسنا فى هوان مما أصابنا يوم أحد ، ولا أن نحزن ، فقد قمنا مسارعين بنصرة الله تعالى ورسولهε ، ومن أقامهم الله أنصارا لدينه ونبيه ، واصابهم ما أصابهم يجب ان يفرحوا بتلك الإقامة ، ويجب أن يتمناها كل مؤمن ، لأن المؤمن إذا قتل فى الجهاد فاز فوزا عظيما لأنه شهيد ، وأن نصره الله وأيده شكر الله تعالى على ما أمده به من قهر الباطل ونصرة الحق ومن التمكين فى الأرض ومن الغنيمة ، فمن أين يلم به الهوان أو الحزن ، اللهم أن كان فى ذلك على أهل الباطل ، والله تعالى نفى نصرة الباطل على الحق بخبره الصادق ، بقوله تعالى : **"وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ"** وفى هذا يبشرنا ربنا نحن أمة محمدε بالمقام الأعلى مكانة فوق المقام الأعلى مكانا وهذه البشرى فوق البشرى بالجنة ونعيمها.

ومعنى هذه الآية بحسب ظاهر العبارة أن الله تعالى ينهانا عن أن يصيبنا الهوان مما قدره جل جلاله فى واقعة أحد من شج رأس رسول اللهε وكسر رباعيته وقتل من قتل من الصحابة ، والهوان هو الذل لفقد المحبوب ، والحزن هو هم يحبس القلب بسبب ضياع ما فى اليد ، وخبر الله أننا الأعلون لأنا نلنا من الكفار فى بدر أكثر مما نالوا منا فى أحد ، وبلغنا فى أحد فوق ما يتمناه كل مؤمن لخاصة نفسه من الشهادة فى سبيل الله ، ومن تأييد الله لنا بعد أن كان ما كان ، وأعلون بما أصاب كفار قريش فى بدر ، وبما أصابهم فى أحد ، لأن قتلاهم انتقم الله منهم عاجلا ، وينتقم سبحانه منهم آجلا يوم القيامة بالخلود فى نار جهنم ، فنحن والحمد لله الأعلون.

وأما معناها بحسب ما يفقه أهل العلم بالله فأعلون مكانة عند الله تعالى، وهنا أشير إليك بقوله تعالى عن إدريس عليه السلام **"وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا"** وفرق بين رفعة المكان ، ورفعة المكانة ، فمن أخبرهم الله أنهم أعلون أى قربهم سبحانه حتى صاروا عند العلى جل شانه ، لأن الله تعالى يقول : **"وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ"** من الآن إلى ما لا نهاية ، ومن فقه ما كان فيه الصحابة مع المشركين فى تلك الغزوات وما قاموا به مسارعة إلى نيل رضوان الله الأكبر يعتقد أنهم ليسوا من بنى البشر ، ومن يقول أن ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا ليس معهم سلاح للقاء الأعداء إذ أنهم خرجوا ليسوقوا عير قريش فوجدوا جيش قريش المستعر غيره وشوقا للانتقام لأنفسهم وأموالهم من رسول اللهε وأصحابه يهزمون هذا الجيش ويسلبون ما معه من ذخيرة . . . وإليك غزوة أحد جاء جيش قريش بأحباشه وحلفائه إلى المدينة لحرب رسول اللهε بعد أن أجج الشيطان فيهم نار حب الانتقام والثأر لقتلاهم فى بدر ، وهم أكثر من خمسة آلاف فارس ، فأسرع إليهم رسول اللهε ومعه ألف فارس فقط ، فارتد عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين وارتد معه ثلثمائة منهم ، وبقى مع رسول الله سبعمائة ، فهجم الصحابة بقلة عددهم على الكفار شوقا إلى نيل الشهادة ، وحبا فى لقاء الله تعالى ، فكان ما قدره الله تعالى من إحسانه إلى رجال لم يشهدوا بدرا بالشهادة يوم أحد ، ثم أمدهم الله بالملائكة الذين قاتلوا يوم أحد من غير أن يراهم مؤمن ، بل كان كل مؤمن بعد أن علم أن رسول اللهε حى بينهم يتمنى أن يقتل بين يديه ن هذا فضل من الله حق ، وتفضل بما هو أفضل من هذا الفضل لجعلهم الأعلون ، ولا يزال جل جلاله يتفضل بهذا الفضل على كل جماعة من المؤمنين رخصت حياتهم فى أعينهم فبذلوها لنصرة الحق فرحين مستبشرين ، فسبحان من منحهم الصدق فالعلم اليقين فالشهود فبيع الأنفس والأموال والأولاد لله تعالى فالشهادة فى سبيله، فالإحسان إليهم بأن يكونوا الأعلين عند العلى ، وهنا نمسك القلم عن أن يسطر على صفحات الأوراق ما لا يباح إلا لأهل هذا المقام من القلب إلى القلب.

"إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" المعنى الظاهر أى ما دمتم على الإيمان الذى هو اعتقاد بالقلب وقول باللسان وعمل الجوارح ، والمعنى الباطن أن لأهل الإيمان فى كل زمان ما تفضل الله به على أصحاب محمدε إلى يوم القيامة، والله سبحانه ما وعد المؤمنين وعدا وهم على الحالة التى يرضاها ، إلا زادهم إحسانا خصوصا أهل زماننا هذا الذى كثرت فيه الفتن المضلة ، وانتشرت فيه البدع حتى أصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر.

قوله تعالى : **"إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ"**(140).

هذه الآية الشريفة نزلت بمناسبة حادثة أحد **"إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ"** والقرح بفتح القاف الجراح والقتل ، والمعنى أن يصبكم جراح وقتل فى "أحد" فقد أصاب القوم جراح وقتل فى غزوة بدر ، وجرحاكم وقتلاكم شهداء عند الله فى مقام الأنس والقرب منه ، وجرحاهم وقتلاهم أعداء الله فى غضبه وانتقامه منهم فى الدنيا والآخرة ، وشتان بين من فاز بالشهادة برضوان الله الأكبر وبين من خسر الدنيا والآخرة بغضب الله عليه وانتقامه ، فالشهداء لهم المقام الأعلى عند الله ، وهم الأعلون فى الدنيا والآخرة.

"وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ" إشارة إلى بدر واحد والسبب خاص والحكم عام ، وهذه سنة الله الماضية فى عباده ، يسلط أعداءه على أوليائه لتقوم لهم الحجة عند الله أنهم كاملوا الإيمان حسنوا الظن والثقة به ، صادقوا الحال فى الإقبال عليه ، ويسلط أوليائه على أعدائه ليقهرهم بالذل فى الدنيا ، وليجعل لهم النقمة فيها ، ويؤجل لهم العذاب الأليم فى نار جهنم يوم القيامة، وأنا لنرى الدولة قد تدول للكافرين ، وهنا يكون البلاء الأكبر والامتحان الشديد ، فيظهر أهل اليقين والتمكين مطمئنى القلوب ثابتين على ما يحبه الله ويرضاه ويظهر المنافقون يترددون فى

نواياهم يقولون نخشى أن تصبينا دائرة ، وإنما قدر ظهور الكافرين على المؤمنين ليمحص أهل الإيمان، قال الله تعالى : **"لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ"**[1] وهو سبحانه الحكم العدل.

ومتى أظهر الله أهل الحق أخفى أهل الباطل ، وأهل الباطل لا يظهرون أبدا ومهما كثروا فهم الأذلاء ، وأن قويت شوكتهم وامتدت سلطتهم ، وكفاهم تعسة كفرهم بالله ، ومهما قل عدد أهل الحق فهم الأعزاء ، فهم كثير وأن قلوا ، وأعزاء عند الله وان ذلوا فى نظر أهل الجهل ، ولو أن قليلا من أهل الإيمان اتحدوا على العمل بكتاب الله وبسنة رسول اللهε ، وتسلط عليهم العالم أجمع لأظهرهم الله ونصرهم وأيدهم ، قال تعالى : **" كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ"**[2] ، وما كانت حادثة أحد إلا لحكمة اقتضتها إرادة الله إعلاء لمقامات أصحاب رسول اللهε ، وأدبا لمن خالفوا أمره صلوات الله وسلامه عليه من الرماة ليكونوا فى غزواتهم على بصيرة مسارعين إلى طاعة أمره عليه الصلاة والسلام ، وهناك سر غامض وهو أن الله إذا أحب قوما أدام لهم ما يجعلهم فى يقظة لشهود مقام العبودية الكامل لتدوم لهم المراقبة والأخذ بمحابه ومارضيه سبحانه ، فلا يعملون برأى ولا هوى ولا تأويل فيما هو صريح فى الكتاب والسنة كما حصل منهم فى "أحد" بعد أن أمرهم رسول اللهε أن لا ينتقلوا من مواقفهم مطلقا ولو أنهزم الكفار ، فتأولوا الأمر الصريح وفارقوا مواقفهم للغنائم ، فكان ما يسيء كل مؤمن.

وقوله تعالى : **"نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ"** أى نجعلها دولا فتدول الدولة لقوم على قوم ، وتدول منهم لغيرهم لينفرد الله تعالى بالملك والبقاء والعزة والجلال والبهاء والنور لاينازعه فى صفة من صفاته أو أسم من أسمائه أحد إلا قصم ظهره وأهلكه ، وفى تاريخ الأمم السابقة عبرة لكل معتبر ، وإلا فأين الأكاسرة والفراعنة والقياصرة وأبناء السماء من ملوك الصين وغيرهم ، وحسن العاقبة دائما للمتقين.

بعد أن بين الله تعالى أن تلك الأيام الدنيا يداولها بين الناس ، ولفظ بين الناس يراد به المؤمن والكافر والمنافق ، لأن الله تعالى ما ذكر الناس بال التعريفية فى القرآن كله إلا وهو يريد أن يخبر عن جميع الناس ، فإذا أراد أن يخبر عن المؤمنين ذكرهم بصفاتهم ، فقال : الذين آمنوا أو أحسنوا أو اتقوا ، والمراد بالمداولة هو انتقال الشئ من يد إلى غيرها ، وكانت عزوة أحد ، وظهور الكافرين فيها على المؤمنين ، وكان ظهورهم عليهم بعد قهر المؤمنين للكافرين فى بدر آية من آيات الله الكبرى التى يظهر بها مكنون غيبه ، فإن البلايا والمحن إذا أصابت الكافرين فحسب أسلم جميع الناس خوفا من البلايا ، ولكن الله تعالى أراد أن يقيم الحجة لأهل الإيمان على المنافقين والكافرين فامتحن أهل الإيمان بما أصابهم فى أحد ليميز الله تعالى أهل الإيمان بما جملهم الله به من الصبر واليقين والقيام لله بما يحب ، وأظهر جل جلاله أهل النفاق كعبد الله بن أبى بن سلول ومن معه الذين انقلبوا على وجوههم فارتدوا عن رسول اللهε كما بينت لك ، ولذلك فالله تعالى بين ذلك بقوله : **"وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا"** ، ولو جاءت الآية بغير واو لكانت متصلة بما قبلها ، وهى خبرية معطوفة على التى قبلها ، وفى هذه الآية مجاز بالحذف ويكون المعنى وليعلم نبى الله الذين آمنوا فحذف لفظ نبي وذكر أسم الله تعالى رفعة لقدر رسول اللهε ، وقد ورد فى القرآن ما يدل على هذا المعنى وهو قوله تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ"**[3].

وجائز أن يكون المعنى ليعلم الله أى ليظهر الله تعالى مكنون ما قدره فى علمه من تأييد المؤمنين بروح منه حتى يدوموا على الإيمان الكامل فى وقت المحن الشديدة والفتن الهائلة كما حصل فى غزوة أحد.

وجائز أن يكون المعنى لتميز أهل الإيمان من أهل النفاق والكفر كما حدث.

"وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ" هذه الآية الشريفة خير بشرى لنا لأن الله تعالى يقول : **"وَيَتَّخِذَ"** والله لا يتخذ إلا أصفياءه وأولياءه ، وفى قوله تعالى : **"شُهَدَاءَ"** أى جمع شهيد ، والشهيد هنا هو المقتول من المؤمنين بين الصفين، وهى مكانة عالية عند الله تعالى ، وتأتى بمعنى شاهد ، وهى إقامة الله تعالى من اجتباهم من أمة محمدε شهودا على الأمم يوم القيامة ، بدليل قوله تعالى : **"لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ"** ، وهى المكانة التى يجمل الله بها رسله وأنبيائه فأنزلنا منازل الرسل والأنبياء ، وفى ذلك من عظيم الفضل علينا من الله تعالى ما يعجزنا عن القيام بشكره سبحانه ، وتكون حكمة ما أصابنا يوم أحد تفيد الفضل من الله لنا ، لأن الله تعالى لا يخذل نبيه ولا أصحاب نبيهε وينصره أعداءه الكافرين أبداً ، ولكنه سبحانه أستدرج أعداءه ، وأظهر أحبابه بما فازوا به من الصبر والثبات والتفانى فى

([1]) سورة الأنفال : 42.

(2) سورة البقرة : 249.

([3]) سورة الفتح : 10.

نصرة الله تعالى ورسولهε ، وتلك الآيات وأن كان سبب نزولها خاص إلا أن أحكامها عامة وقول الله "من" فى منكم أما أن تكون للابتداء أو للتبعيض وهى للابتداء أقرب لوسعة رحمة الله ، وعلى هذا فكل من وقف موقف الصحابة مع رسول اللهε أمام أعداء الله وصبر حتى استشهد أو رجع بالنصر والغنيمة فله ما وعد الله به أحبابه فى هذه الآيات.

"وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ" تقدم الكلام على معنى محبة الله للعبد ومحبة العبد لله وقامت لك الحجة فيما سبق ووضحت المحجة ، وضد المحبة البغضاء ، ولهذا أثبت الله بغضه للظالمين ونفى عنهم محبته سبحانه ، والظلم هو الشرك ، والله تعالى يبغض من ظلم نفسه بالشرك بالله تعالى أو بارتكاب معاصى الله تعالى من الكبائر .

وقد بينت لك أن الرحمة إرادة الله الخير الدنيوي للعبد ، والمحبة إرادة الله الخير الأخروي للعبد أقامه فى محابة ومراضيه بسابقة الحسنى ، ويكون بغض الله تعالى للعبد تقدير السوءى له فى الأزل وإقامته فى مغاضب الله ومساخطه ، أعاذنا الله واخوتنا المؤمنين من ذلك.

قوله تعالى : **"وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ"**(141).

التمحيص هو التنقية والتطهير ، والمحق هو النقض والإبادة ، والمعنى أن الله تعالى قدر ما قدره فى غزوة أحد ليطهر المؤمنين بالتمحيص وينقيهم ممن لا بسهم من أهل النفاق الذين ارتدوا عن رسول اللهε فى غزوة أحد.

وبهذا علمنا أن الله تعالى محص المؤمنين ، أى طهرهم ، واللام فى قوله : "ليعلم وليمحص" متعلقة بقوله تعالى نداولها على فرض عدم وجود الواو ، وخبر بعد خبر من إثبات الواو وكان الجمل معطوفة على محذوف ملحوظ ، أى نداولها بين الناس وكيت وكيت.

قوله تعالى : **"أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ"**(142).

أم هنا منعطفة وتقدم الكلام عليها و **"حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ"** أى قوى ظنكم أن تنالوا النعيم المقيم والخير العظيم الذى أعده الله لأحبابه ومجاورة الأخيار من رسله الكرام وأنبيائه العظام ونيل المسرات العليا بمشاهدة وجه الله تعالى والأنس بما يجليه لأهل الصفوة من عبادة لإظهار أنوار أسمائه وصفاته ظاهرة فى أنواع الطيبات التى أعدها لهم.

"وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ" أى ولما يظهر لرسوله محمدε وللمؤمنين معه قوة إيمانكم وثباتكم عند الجهاد فى سبيل الله وصبركم على تحمل البلايا الفادحة فى لقاء العدو حتى تطمئن قلوبكم على نيل بغيتكم من الجنة ومن رضوان الله الأكبر ومن الفوز بالعندية التى وعد الله بها عباده الأخيار من صفوة خلقه فى قوله **"إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ"**[1] ، وكلنا نعلم أن العندية فوق المعية، فإن العندية تقتضي الرضا الأكبر ورؤية وجه الله العظيم ، بخلاف المعية فأن الله تعالى يقول **"وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ"** ، ويقول **"مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ"**[2] ، فهو سبحانه مع الخلق أجمعين بالإيجاد والإمداد والإعطاء والمنع ، وقليلون من يكونون عنده سبحانه أو معه.

"الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ" الجهاد هو بذل ما فى الوسع ابتغاء وجه الله تعالى وإعلاء لكلمته وتجديدا لسنة نبيهε وإظهارا لأهل الحق وإهلاكا لأهل الباطل ، وخير الجهاد جهاد النفس فى ذات الله تعالى ، قالε : "أكثر شهداء أمتى على الفرش" يعنى المجاهدين لأنفسهم الناشرين لشريعة رسول اللهε ، الذين لا يخافون إلا الله فى نشر الدعوة فلا يخوفون لومة لائم فى جهاد أنفسهم وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإن المجاهدين بين الصفين قد يشوب نيتهم الطمع فى غنيمة أو رياسة ، وأما الذين يجاهدون فى سبيل الله أنفسهم ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لا يمازجها طمع ولا أمل وهم الأفراد الذين أقامهم الله ورثة لرسله صلوات الله عليهم لا تأخذهم فى الحق لومة لائم ، وهذا هو الجهاد الذى يثنى الله على من قاموا به هذا الثناء فيجعل لكل رجل منهم جنة عرضها السموات والأرض.

"وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ" الصبر وهو قهر النفس على المسارعة إلى نيل مراضى الله تعالى ، والفرق بين الصبر والرضا هو أن الرضا أنس النفس بمواقع البلايا ، ويكون فى القضاء والقدر ، وأما الصبر فهو قهر النفس على دوام العمل بما أمر الله من العبادات المفروضة والمرغب فيها والأخلاق التى كان عليها المصطفون الأخيار من عباد الله

([1]) سورة القمر : 54 – 55.

(2) سورة المجادلة : 7.

تعالى ، فالصبر فى الأصل يكون على القيام بالعبادة والمحافظة عليها والمداومة على إقامتها كما قال تعالى : **"الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ"**[1] ، وقد شرحت مقام الجهاد والصبر فى كتاب أصول الأصول عند شرح مقامات أهل اليقين فراجعه أن شئت المزيد ، وهذه الآية سببا غزوة أحد أيضا وحكمها عام.

قوله تعالى : **"وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ"**(143).

اللام هنا للقسم "وقد" لتحقيق الخبر ، وكنتم تمنون الموت أى ترغبون فيه وتحرصون عليه بشدة فى الطلب ، لأن المتمني المتعذر الوقوع ، ومعنى هذه الآية أن الصحابة بعد غزوة بدر كانوا يسألون الله تعالى غزوة يستشهدون فيها حياتهم فى شهامة ، وهذا من الله تعالى يرتب عليه بيان الآتي ليعلمنا أن نتجمل فى كل أوقاتنا بالرضا عنه فيما أقامنا فيه من غير أن نتمنى غير ما أقامنا الله تعالى فيه ، بل نجعل كل أنفاسنا مستغرقة فى شكره سبحانه وذكره والتفكر فى آلائه وآياته حتى نفوز بشهود جماله الظاهر الجلى فى جميع مكوناته.

"مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ" أى من قبل أن يهاجمكم الأعداء ويطلبون قتلكم ، وهذه الآية الشريفة أدب من الله تعالى يبين فيه لبعاده أن المؤمن الكامل يعمل ولا يقول ، وينفذ ولا يتمنى ، أما تمنى عمل الخير وترك غيره يسبقه إلى عمل الشر ، فإن حرب الكفار شر عليهم وهم يسارعون إليه ، وجهاد المؤمنين خير لهم وهم يتمنوه بغير عمل ، وشتان بين التمني والعمل.

وفى هذه الآية إشارة إلى من خالفوا رسول اللهε من الرماة ، ومن خالفوه فى المدينة عندما كان يحب أن يحارب الكفار فيها فاستحثوا الخروج إليهم.

"وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ" أن كانت الواو للحال فالجملة جالية وأن لم تكن للحال فهى توكيد لقوله تعالى "رأيتموه" والمعنى أنكم تنظرون إليه وهو قريب منكم جدا وذلك يوم أحد.

قوله تعالى : **"وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ"**(144).

هذه الآية المفيدة للقصر الحقيقي الدالة على الرسل والرسالة ، لأن لفظة رسول تفيد فاعل ومفعول وأن تضمنت الرسالة بحسب دلالتها فهوε رسول ورسالة.

"قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ" يعنى مضت وسلفت وهى سنة الله فيمن يرسلهم ، ولما كانε رسولا لزم أن يخلو كما خلوا إذ لا بقاء لغير الله تعالى ، فأن كل رسول أو نبى أو ولى أو غيره بعد انتهاء ما قدره الله له من العمر يموت.

سبب نزول هذه الآية ما وقع للصحابة رضوان الله عليهم من الهلع والفزع فى غزوة أحد عند ما ظنوا أن رسول اللهε قد قتل ، وتفصيل هذه الحادثة أن رسول اللهε لما نزل بأحد أمر الرماة أن يقفوا بأصل الجبل ولا يتحولون عنه سواء كان الأمر لهم أو عليهم ، فلما حمل جيش المسلمين على الكفار وأمعنوا فيهم فتكا وقتل على ابن أبى طالب طلحة بن أبى طلحة صاحب لوائهم ، والزبير والمقداد وحمل الرسول مع أصحابه فهزموا أبا سفيان ورجاله ، أنهزم المشركون وتراجعوا ، فلما رأى بعض الرماة هزيمتهم طمعوا فى الغنيمة فتأولوا أمر رسول اللهε ، وفارقوا أماكنهم وانحدروا يطالبون الغنائم ، وكان خالد بن الوليد يقود يمينة الكفار ، فلما رأى الرماة قد تفرقوا فى طلب الغنيمة حمل على جيش المسلمين فهزمهم وفرق جموعهم ، ورمى عبد الله بن قميئة الحارثى رسول اللهε بحجر فكسر رباعيته وشج رأسه ، وأقبل يريد قتله فتصدى له مصعب بن عمير صاحب الراية يوم بدر ويوم أحد فقلته بن قميئة وظن أنه قد قتل رسول اللهε فصاح قتلت محمدا ، وصرخ الشيطان فى المسلمين وقال محمد ، فانتشر الخبر بين الناس فوقع الهلع فى قلوب المسلمين وقال بعضهم ليت عبد الله بن أبى يأخذ لنا الأمان من أبى سفيان ، وقال بعض المنافقين لو كان نبيا لما قتل ، أرجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم ، فصاح فيهم أنس بن النضر عم أنس بن مالك قائلا يا قوم أن كان قد قتل محمد فإن رب محمد حى لا يموت ، وما تصنعون بالحياة بعد رسول اللهε قاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات فى سبيله ، ثم قال اللهم أى برئ مما يقول هؤلاء وسل سيفه وهجم على المشركين فقاتل حتى قتل رضى الله عنه ، ولما شج الكفار وجهه عليه الصلاة والسلام دافع عنه أبو بكر وعلى وغيرهما ، واحتمله طلحة ابن عبيد الله وكان حوله ثلاثون من صناديد الصحابة يقاتلون عنه وكلما سقط واحد منهم جثا الآخر بين يديه وقال وجهى لوجهك وقاء ونفسي لنفسك فداء وعليك سلام الله غير مودع ، ولما تفرق المسلمون

([1]) سورة المعارج : 23.

وظنوا أن رسول اللهε قد قتل بدت عليهم الهزيمة وقتل منهم عدد كبير أخذ رسول اللهε يصيح قائلا إلى عباد الله ، فسمع بعض الصحابة صوته الشريف فانحازوا إليه وقد سرت فيهم روح الحياة فلامهم عليه الصلاة والسلام على هزيمتهم ، فقالوا يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا أتانا خبر قتلك فولينا مدبرين.

"أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ"

دخل الاستفهام على فعل الشرط وهو مقدم عن تأخير والأصل دخوله على الجواب ، والانقلاب الردة عن الإسلام والفرار يوم الزحف ، ولم يحصل من ذلك شئ في تلك الغزوة لا موت ولا قتل ، أما القتل فلأن الله تعالى بشرنا فى القرآن بأنه يعصمه من الناس بقوله تعالى **"وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ"**[1] فما بقى إلا الموت على الفراش كما بشره الله تعالى وهى معجزة كبرى.

"وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا" أى من يرتد عن الإسلام فيرجع إلى الكفر ، فلن يضر الله شيئا فإن الله هو الضار النافع سبحانه ، وقال تعالى **"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"**[2].

"وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ" معلوم أن الشكر عمل قال تعالى **"اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ"**[3] وثناء الله تعالى فى هذه الآية على الشاكرين الذين عملوا مع رسول اللهε عندما هجم عليه عبد الله بن قميئة ورماه بالحجر وهم بقتله فدفعه عنه مصعب بن عمير كما تقدم ، ووقف على وأبو بكر وغيرهما من أفذاذ الصحابة الذين ثبتوا أمام رسول اللهε فى وقت الفزع الأكبر ، وهم الذين يمدحهم الله تعالى بموقفهم هذا ويبشرهم بالخير العاجل والآجل ، وبالفعل قد تفضل الله عليهم فجعل أبا بكر خليفة عن رسول اللهε وأقام عليه هذا المقام بعد عثمان ، وأعد لمن مدحهم الله تعالى المقام الأعلى يوم لقائه فى مواجهة وجهه العظيم.

بينت لك الشكر عمل ، لأن الشكر قيام كل جارحة بما أوجبه الله عليها، والحمد قول لأنه لا يكون باللسان ، ولأن الشكر لله تعالى ولكل من أسدى إليك نعمة من الخلق كالوالدين ومعلم الخير والسلطان العادل وغيرهم ، أما الحمد فهو الثناء باللسان على جميل اختياري ، ولا يتفضل عليك بالجميل اختيارا إلا الله فهو خاص بالله فلا يحمد إلا الله فى السراء والضراء.

قوله تعالى : **"وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ"**(145).

تضمنت هذه الآية الشريفة حقيقة من حقائق التوحيد الذى يجب أن يكون عليه أهل الإيمان بالله ، لأن الله تعالى ينفى بتاتا أن تموت نفس إلا بأذنه ، وهذا القصر بالاستثناء حقيقى أى بتقديره ومشيئته وعلمه سبحانه ، فإذا كانت تلك الحقيقة قامت عليها الحجة بالآية الشريفة فكل كائن من إيجاد وإمداد يبرز فى الوجود الظاهر لا بد وأن يكون بتقدير الله تعالى ، وإذا نصدق الله تعالى حيث يقول **"وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ"**[4] أى خلقكم وخلق أعمالكم والمكان الذى تعملون فيه والمادة التي تنوعونها بعملكم ، وقال سبحانه : **"هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ"**[5] ، وهذه الآية مرتبطة بالآية السابقة وسبب نزولها أرجاف المبطلين بقولهم أن محمدا قتل فيقصم الله ظهورهم ، بقوله تعالى : **"وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ"** أى أن الله لم يقدر موت محمدε فى غزوة أحد وعلى ذلك فإنه لم يمت ولم يقتل.

ولأسباب نزولها حكم كثيرة ومعناها أن الله تعالى يعتب على من انهزموا من الصحابة يوم أحد مبينا لهم الحقائق الإسلامية التى بايعوا عليها رسولهε من أن الأعمار والأرزاق قدرها الله قبل أن يخلق الإنسان ، وأن الموت والقتل لا يكونان إلا بأذنه أى بتقديره وإرادته ، وتلك العقيدة تنتج للمتمسكين بها شجاعة إسلامية وإقداما على الشدائد العظام من غير خوف من القتل والموت ، فإن الله إذا قدر على العبد الموت أو القتل فى وقت معين نفذه مهما احتاط الإنسان وتحفظ ، وإذا لم يقدر عليه شيئا من ذلك وألقى به فى النار أو فى متلاطم البحار لا يصيبه شئ ، ومسلم يعتقد تلك العقيدة الحقة ويفر من الصف أقام الحجة أنه ضعيف الإيمان ، وعلى ذلك فأنى أعيد ما قررته قبلا من أن

([1]) سورة المائدة : 67.

(2) سورة يونس : 23.

(3) سورة سبأ : 13.

([4]) سورة الصافات : 96.

(5) سورة فاطر : 3.

العلم إذا لم يبلغ اليقين الذى تؤيده الحجة أو يبلغ حق اليقين الذى هو شهود الحقائق قد يضر ولا ينفع ، وكم نرى الآن من عالم يقرر الحقائق وهو يخالفها فى مجلس التقرير ، فيشرح ضرر الغيبة والنميمة والحسد ، وهو فى أثناء الشرح يذم وينم ويغتاب ويظهر ما يفيد أنه حسود وحقود ، ولو كان للعلم فائدة لحفظة علمه من الوقوع فيما يخالفه ، فالله سبحانه يكشف لنا غيبا مصونا من أسرار التوحيد كشفا تهش له القلوب وتبش حتى لا تجبن عند لقاء الأعداء مهما كثر عددهم وعددهم ، لأن الموت والقتل مقدرا أزلا لا مفر منه ، ولأن يموت المسلم أو يقتل مجاهدا خير من أن يقتل منهزما.

"كِتَابًا مُؤَجَّلًا" كتابا مصدر منصوب بفعل محذوف ملحوظ تقديره ، كتب الله كتابا أى كتبه فى اللوح المحفوظ كما بينته السنة ، وإنما كانت كتابته لأن الله وضع الأسباب قائمة وسطا بينه وبين خلقه من الملائكة والأنس والجن فكتب فى اللوح المحفوظ ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ، وأقام لتلك الأحداث المؤقتة ملائكة فى أوقاتها الخاصة يتلقونها من اللوح لتنفيذها فى الأعيان الحادثة ، وهذا غيب القدر ولا يطلع على هذا الغيب إلا ملك أقامه الله عاملا فيه أو مقربا من الله تعالى يطلعه عليه ليقوى إيمانه بعجائب قدرة الله تعالى وحكمته ، أما الغيب المصون الذى هو جمال الله جل جلاله وبهاؤه ونوره وضياءه وكماله وأحكامه التى يحبها من أمره ونهيه فأنه لا يطلع عليها إلا من ارتضاه واصطفاه ، قال سبحانه : **"فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ"**[1].

ومعنى الآية أن الله تعالى كتب الأقدار التى خصصتها إرادته فى حضرة علمه فى اللوح المحفوظ ، كما ورد أنه محدود بأوقات مخصوصة مرتبطا بأسباب خاصة اقتضتها حكمة الله.

"وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا" هذه الآية جملة شرطية بينت أن العقوبة فى الآخرة والنعيم فيها مرتبا على المعصية والطاعة وأن المؤاخذ عليه بالعقوبة أو المجازى عليه بالنعيم هى الإرادة ، ومعنى الإرادة هنا الاختيار ، فإن الإرادة أولا هى التردد بين عمل الشيء أو تركه ، أما الاختيار فهو أعلى من الإرادة وهو العزم المؤكد على عمل الشيء ، قالε "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرىء ما نوى".

ومعنى الآية أن الله يقول : من كان يريد ثواب العاجلة مختارا له ، فلم يرد ثواب الله ونيل النعيم المقيم يوم القيامة والفوز بجوار الأخيار وبالمغفرة من الله والرضوان نعطه منها أى فيها ، فيعطه ما يريده من مال أو بنين أو جاه وشهرة ، وكل ما يناله فيها زائل تعقبه العقوبة بعد السؤال عن العمل ، وتكون الحجة قامت على العبد أنه ضعيف الإيمان جاهل بحقائقه.

"وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا" .

أى يختار وينوى الفوز بالنعيم المقيم فى جوار الأخيار والصديقين والشهداء فيعمل بكل ما فى وسعه مستصغرا نفسه وما له فى سبيل الله تعالى نؤته من ثواب الآخرة فيها.

سبب نزول هذه الآية خاص لمن شهدوا أحدا ، فإن منهم من كان يريد الدنيا وهى الغنائم والشهرة والانتقام من الأعداء لوم يرد غير ذلك من ثواب الآخرة وهؤلاء إذا عاقهم عن بلوغ مرادهم عائق فروا وانقلبوا إلى أهلهم خاسرين ن وأما من كان يريد ثواب الآخرة فأنه إذا أشتد الفزع وهلعت قلوب أهل النفاق تمنى الشهادة ليفوز بمراده الذى من أجله جاهد فى سبيل الله وهو الفوز بنعيم الآخرة ولا ينال نعيم الآخرة وهو فى الدنيا أبدا وسبيل الوصول إلى الآخرة هو القتل فى سبيل الله تعالى أو النصر على الأعداء فكيف يتحقق الفوز بمراده المختار إذا فر مدبرا.

وهذه الآية تقريع شديد من الله تعالى لكل مؤمن يريد الدنيا ، ويقظة لقلوب أهل الإيمان أن يطهروا قلوبهم للعمل فى سبيل الله تعالى ، وما ترك الله شيئا ننال به الزلفى عنده إلا وبينه بيانا يشفى القلوب من أمراضها ، ولا شئ يوقعنا فى نار جهنم إلا وبينه بيانا جليا ، أسأل الله تعالى التوفيق لما يحبه ويرضاه ، والحفظ من عقابه سبحانه.

"وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ" تقدم شرحها فى قوله تعالى "وسيجزى الله الشاكرين" إلا أن هذه الآية قال فيها وسنجزى وفى الآية المتقدمة قال وسيجزى الله – والفرق بينهما أن الآية الأولى نزلت فى أفراد وقفوا موقفا لا يقفه إلا أهل التمكين الكامل ، كأبى بكر وعلى حيث كانت النفوس رخيصة فكان قوله تعالى وسيجزى الله تعظيما لمقاماتهم وعلو درجاتهم حيث أسند الجزاء لذاته العلية ، وأما هنا فالآية خبر لمن أرادوا الآخرة فأخبر عنهم بقوله وسنجزى أى يكون جزاؤهم بنعيم الجنة والفوز فى الفردوس الأعلى ، وأما فى الآية المتقدمة فيكون الجزاء نيل

([1]) سورة الجن : 26.

رضوان الله الأكبر وشهود وجهه العلى العظيم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وقد أخبرنا بالفعل المضارع المتصلة به السين الدالة على تأخير الجزاء على الحال الحاضرة فدل ذلك على أن الجزاء يكون يوم القيامة.

قوله تعالى : **"وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ"**(146).

هذه الآية الشريفة قرأت بهذه الرواية ، وبرواية أخرى وهى وكأين من نبى قتل – بضم القاف – معه ربيون ، والروايتان صحيحتان ، أما تأويل الأولى وكأين – أى وقاتل مع أى جاهد معه "ربيون" أى جموع كثيرة أو مؤمنون به من عامة أمته ، ويكون الربانيون هم العلماء والولاة ، والربيون بكسر الراء العامة المتبعون ويكون التفسير على الرواية الثانية قتل بضم القاف ن أى أن النبى قتل والحال أن معه جموعا كثيرة.

وجائز أن تقول قتل معه ربيون كثير على تأويل بضم القاف حالا ، ويكون المقتول فيها هو نبى الأمة ، وإذا كان المقتول أكثر الربيين يكون الوهن والضعف والاستكانة منفية عن القليل منهم الذى لم يقتل ، ويكون ربيون نائب فاعل قتل ، وتكون المعنى على التأويل الأول أن كثيرا من الأنبياء قاتل معه ربيون كثيرون جيوش كثيرة ، فكأن الجيوش الذين يقاتلون مع الأنبياء يثبتون فى القتال سواء قتل بينهم أو لم يقتل ، وأن لم يثبت بطريق صحيح أن نبيا من الأنبياء قتل فى الحرب ، فكان الربيون لا يزدادون كلما حمى الوطيس إلا إقبالا على الأعداء بطمأنينة قلب ن وكان الأولى بتلك الصفات هم أصحاب رسول اللهε لأن الله تعالى أكمل لنا به الدين فأتم علينا نعمته ، وهذه الآية أدب لأهل الإيمان.

"فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا" .

الوهن حالة فى القلب تجعل الواهن فى هلع وجزع ويأس وفزع ، والضعف ما يعترى الجوارح عند الخوف الشديد من الرعب وانحلال القوة ، والاستكانة هى الاستسلام للأعداء أو الردة عن الإسلام ، ومن استسلم للأعداء أحاط به الذل والخزى ومن أهلكه الفزع فارتد عن الإسلام يتمنى أن يكون ترابا يوم القيامة، أعاذنا الله وإخواننا من الكفر بعد الإيمان ، فالله تعالى يشنع على من يفر يوم الزحف بخصال ثلاثة.

الخصلة الأولى ضعف القلب وجزعه.

والثانية انحلال الأعضاء من شدة الضعف والفزع.

والثالثة حصول اليأس للإنسان حتى يذل للأعداء أو يرتد عن دينه بالاستكانة إلى دين أعدائه.

"وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ" هذه الآية ثناء من الله ومدح لمن ثبتوا فى غزوة أحد ، والحكم فيها عام وأن كان سببه خاصا ، فالله تعالى يحب كل عبد صبر على القيام بتأدية ما فرضه الله عليه وسنه رسول اللهε ، وقد يكون الصبر أيضا على مر القضاء ، والصبر هو حبس النفس على القيام بمحاب الله ومراضيه ، وقد تقدم الكلام عليه فى قوله تعالى **"وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ"**.

وبينت لك محبة الله للعبد أنها إرادة الله اصطفاء العبد لحضرته العلية وإيثاره على غيره ممن أقامهم فيما يحبه ويرضاه ، قال أخوة يوسف له تالله لقد آثرك الله علينا أى أحبك وأن أنكر بعض من لا علم لهم محبة الله للعبد وتأولوا قوله تعالى **"يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ"** على قدر عقولهم ، وقد فصلت هذه المقام فى كتاب أصول الوصول باب المحبة.

ومن فقه خطاب الله تعالى فى تلك الآية المشيرة إلى غزوة أحد لعلم أن الشدائد التى يصاب بها المؤمن التقى سوابغ إحسان من الله تعالى يرفع بها درجات من امتحن قلبه للتقوى ، وجواذب حب يصطفى الله بها من ابتلاهم فصبروا وسارعوا إلى محابه ومراضيه وهو التمحيص الذى يظهر به أهل سابقة الحسنى بعزائمهم العلية وكمال علمهم – وكفاهم شرفا ثناء الله عليهم بقوله **"وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ"** وليس فوق محبة الله للعبد مقام تتشوق إليه أرواح المقرين – وإذا تفضل الله بمحبته على العبد فقد رفعه إلى أعلى عليين.

قوله تعالى : **"وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ"**(147).

بين الله لناما كان عليه اتباع الرسل السابقين عليهم السلام من حيث أجسامهم التى واجهوا بها سيوف الأعداء ورماحهم ونبالهم مع الهمة والفرح بلقاء الله تعالى ، وما كانت عليه قواهم الروحانية من التبرئة من الحول والقوة إلا بالله ، ومن لزوم العبودية بالابتهال والتضرع والدعاء بدليل قوله سبحانه **"وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا"** الآية هنا يقف العقل البشرى عن أن يدرك مقدار ما تفضل الله عليم من مواجهتهم بوجهه

الجميل حتى كأنهم ليسوا بشرا فى القتال ، وأى عقل يتصور أن إنسانا يمزق جلده بالنبال والرماح والسيوف وقلبه حاضر مع الله يتمثل أنه مذنب مرتكب للكبائر – فى وقت يتصور أعلم الناس بالدين أنه نصر الله وجاهد فى سبيله – فلا يرى له عملا يطمعه فى نيل الزلفى عند الله ، وهؤلاء يرون أقرب ما يتقربون به إلى الله ذنبا يستغفرون الله منه ، وهذا هو كمال الأدب مع الله تعالى والعلم به سبحانه.

"اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا" أى أستر لنا ذنوبنا وعيوبنا ، فأن الغفر هو الستر – لأنهم بلغ تعظيم الله فى قلوبهم مبلغا شهدوا به قدرهم فى هذا الجانب العلى فرأوا عجزهم وقصورهم عن القيام له سبحانه بما يحب ، قال سبحانه **"وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ"**[1] فكان شهود العجز والقصور منهم ذنبا فى نظرهم يستغفرون الله منه ، والإسراف هو التفريط والتبذير **"فِي أَمْرِنَا"** أى فى جميع شؤوننا ، ولما كان الأنس والجن لو اجتمعت قواهم فى فرد واحد وعبد ذلك الفرد الله بجميع القوى وكانت تلك العبادة خاصة به لكان مقصرا فى جانب الله ، لو انكشف للإنسان حقيقة نفسه فعرف بها ربه ، وفى قولهم **"رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا"** الآية حجة على كمال عبوديتهم لله تعالى ومعرفتهم به.

"وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا" بيان لكمال شهودهم حقيقة التوحيد شهودا جعلهم يتبرءون من الحول والقوة إلى من بيده الحول والقوه.

وهذه الآية برهان على أن الله تعالى خلق الإنسان وخلق عمله ، قال سبحانه **"هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ"**[2] وأن تأولها من حجب عن شهود كمال التوحيد بأن تثبيتهم يكون بألطاف الله تعالى ليثبت للإنسان عملاً بنفسه فله العذر قال تعالى **"وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ"** وإنما هى البصائر إذا منحها الله نورا تستبين الحقائق شهدت بما وهبها الله ،وأن حرمت النور حجبت عن الغيب المصون ، وكان المشهود للإنسان حكمة الله فى إيجاد الكائنات ولكنه حجب عن شهود قدرة الله تعالى وآثارها فى المبدعات.

وشتان بين من يرضى بالجنة وبين من يجذبه العلم بالله حتى يكون على منبر من النور قدام عرش ربنا تعالى ، فأهل العلم بالله فوق أهل الإيمان بالغيب مكانة ومكانا.

والتثبيت هو التمكين الذى يجعل العبد لا يعتوره شك ولا ريب ولا خوف ولا فزع حتى يكون الشئ الذى يخاف منه يجعله شجاع مقدام يتمناه بنفسه شوقا إلى لقاء ربه تعالى.

"وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ" إشارة لكمال توحيدهم لأنهم يعتقدون العقيدة الكاملة أن النصر من عند الله قال سبحانه **"وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ"**[3] فابتهلوا إليه أن ينيلهم التأييد بروح منه وأن يقهر أعداءه وأعداءهم الكافرين حتى يكون الدين لله.

وهذه الآية بيان من الله لنا وعتب منه سبحانه على أهل أحد ، فهى وأن نزلت فى غزوة أحد إلا أن الحكم فيها عام ، والواجب علينا أن نسأل الله تعالى أن يجملنا بما جمل به أتباع الرسل السابقين خصوصا ونحن أمة خاتم النبيين ،وفى هذه الآية مزيد فى الإيمان لأهل الغيرة والفقه عن الله تعالى.

قوله تعالى : **"فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"**(148).

أى أعطاهم جزاء ما أخبرنا به عنهم ،وجعلها عطية عامة لكل من جمله سبحانه بصفاتهم إلى يوم القيامة لأن "آتى" أى أعطى عطية عامة لكل من آتاه ولغيره ، وأعطى بمعنى عطية خاصة للمعطى له ، وفى قوله : "آتى" بشرى لنا جماعة المسلمين بأن هذا الخير المعطى لهم ينالنا أن شاء الله تعالى.

ومعنى الآية أن الله تعالى تفضل على من وصفهم بأنهم صبروا على لقاء الأعداء بعد قتل أنبيائهم صبرا أثبت أنهم بلغوا كمال الشهود وتحققوا بالوجود الحق ، وكيف لا وقد قامت الحجة لهم بما وصفهم الله به أنهم من المصطفين الأخيار.

"ثَوَابَ الدُّنْيَا" أى نفوذ الكلمة على الأعداء والتمكين فى الأرض بالحق وقهر أعداء الله وأعدائهم ، والفوز بالغنائم والحفظ من الفتن والمحن ، وتوالى نعم الله عليهم من السماء والأرض فى الحياة وبعد الممات.

([1]) سورة الأنعام :91.

(2) سورة فاطر : 3.

([3]) سورة الأنفال : 10.

"وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ" وهو الخير الحقيقي الذى يتفضل به على أصفيائه من عباده لأن الجنة ونعيمها هى ثواب الآخرة فقط ، أما حسن هذا الثواب يضم الحاء فهو ما فوق مقعد صدق جوار الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام عند مليك مقتدر ، فرضوان الله الأكبر لأهل الذكر الأكبر ، فالأنس بالله على بساط إكرامه ،وهذا هو حسن ثواب الآخرة ، وليس فوق هذا المقام إلا مقام فى قوله تعالى **"أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ"**[1] والآخرة مأخوذة من اليوم الآخر ، فأن الدنيا والبرزخ يوم ، والآخرة يوم آخر ، وآخر بكسر الخاء أى متأخر عن يومى الدنيا والبرزخ.

"وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" تقدم ذلك الكلام على محبة الله للعبد وهنا يبشرنا الله تعالى بأنه يحب المحسنين فمن هم المحسنين الذين يحبهم سبحانه ؟ بين رسول اللهε هذا المقام فى الحديث الطويل الذى أورده البخارى بسنده إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى قولهε : "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" فبين أن أهل الإحسان نوعان:

الأول : نوع أعلى وهو الشهود الذى دل عليه كأنك تراه.

والثاني : نوع يليه وهو مقام المراقبة الذى يجعل العبد حاضرا مع الله بدليل قولهε : "فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

وبعد مقام المراقبة مقام المحاسبة للنفس ، وبعدها لا مقام للعبد وهو سالك يطلب العلم حتى يعرف نفسه فيعرف ربه فيحاسب نفسه ثم يراقب ربه ، ثم يشاهد جماله.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ"**(149).

سبب نزول هذه الآية أن أبا سفيان واليهود المنافقين لما علموا أن رسول اللهε قتل ، قام أبو سفيان فطلب ممن يعرف من المهاجرين أن يرجع إلى دينه وبلده ، وقام عبد الله بن أبى بن سلول ومن معه من المنافقين يوسوسوا إلى الأنصار بقولهم : لو كان نبيا مرسلا ما قتل ، وقام اليهود يدخلون الريبة والشك فى قلوب المسلمين بما فطرت عليه نفوسهم الخبيثة ، وخصوصا فى وقعة أحد عند إشاعة قتل رسول اللهε ، فأيدهم الله تعالى بقوله سبحانه : " **إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ"** .

ومعلوم أن سبب نزول هذه الآية خاص ولكن حكمها عام ،والله ينهانا ضمنا عن إطاعة كل كافر ،ويرتب عليها الكفر به سبحانه ،والحكم هنا عام لم يتقيد ، فما هى الشئون التى ينهانا ربنا عن إطاعة الكفار فيها ، هل ذلك ما يعنيه سبب نزول الآية أم الأمر شامل لكل ما يأتينا من قبل الكفار ، والظاهر أن الله تعالى نهانا عن اتباع الكفر ، وعن نصرتهم وتأييدهم وعن سماع مشورتهم ، وعن الركون إليهم والمسارعة فيهم وعن التقرب إليهم ، اللهم إلا ما دعت إليه الضرورة كالمبادلة التى لا يتسرب منها فساد فى دين ولا عرض ولا نفس ولا خلق ، فإن المسلم إذا وجد ما يحتاج إليه من لوازمه الضرورية والكمالية عند أخيه المسلم يتعين عليه إلا يأخذ حاجاته إلا منه ، فإذا دعت الضرورة وفقد ما يلزم من عند المسلم جاز له معاملة غيره ، والمسلم الذى يستحسن معاملة غير المسلمين يقيم الحجة على نفسه أنه ضعيف الإيمان ، وربما تسرب إلى قلبه شئ من حب غير المسلمين ، فيكون بذلك فارق الإسلام من حيث لا يشعر ، فإن معاملة غير المسلمين وخصوصا فى بلاد إسلامية تقوى شوكة الكافرين بما يكتسبون من الأموال ، وتضعف شوكة المسلمين ، ولا ترى مسلما يحب أن تقوى شوكة أعداء الإسلام ، وإذا كان الله تعالى يبين لنا أن إطاعة الكافرين ردة ، فكيف تكون طاعة من طعنوا فى ديننا وآذونا فى نبينا ، وفتحوا علينا أبواب الفتن بعد هذا كله حتى لا ترى بلدا من بلاد المسلمين إلا ويحتلها جيش من جيوش الكفار طليعته دعاة النصرانية الذين لم يجدوا أمامهم غيرة إسلامية تصدهم بالقوة ، فإن أعداء الله ليست لهم حجة يقيمونها على دعواهم ، وحجتهم السب والتنبذ ونشر أباطيلهم ، تحت حماية جيوشهم الجرارة ، فلو أن المسلمين تمسكوا بدينهم فصدوا قوة تلك الطليعة المضلة لما وجدنا فى الشرق جيوشا تستعمر أهله وتستعبدهم ، ولكن قالت الله الطمع وهل بعد قوله تعالى **"إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ"** يقف مسلم فيسمع قول دعاة النصرانية ، اللهم إلا مفقود الغيرة لدينه ووطنه.

"يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ" الفعل جواب الشرط ، والردة والعياذ بالله معلوم **"عَلَى أَعْقَابِكُمْ "** أى منهزمين فى الدنيا والآخرة ، لأن الكفر بالله خسران فى الآخرة وهو شأن المنقلب على وجهه منهزما.

([1]) سورة الأحقاف : 16.

"فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ" الفاء هنا للسببية ، والمعنى ترجعون خاسرين فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فبالذل للكافرين بسبب الطمع فى المتاع الفانى ، فإن حادثة "أحد" كانت أدبا من الله للمسلمين ، وأما فى الآخرة فبسبب الانتقام منهم بخلودهم فى نار جهنم.

وفى هذه الآية إشارة إلى أن الله يحفظ المسلمين من الردة ومن الخسران فى الدنيا والآخرة بدليل الإتيان بأن الشرطية ، ولله الحمد فأنا ما سمعنا بمسلم باشر الإسلام قلبه فهش له وبش أطاع كافرا أبدا ، وما أرتد عن الإسلام مسلم من أب مسلم وماء حلال ودليل ذلك ما يقوم به دعاة النصرانية المؤيدون بالحديد والنار وبعشرات الملايين من الجنيهات من أيام الحروب الصليبية فى الآن ولم نسمع أن أجهل مسلم تنصر ولو بذلوا له المال والجاه والسلطان بينما نرى أهل العقل منهم والثراء يعتنقون الإسلام فى كل دولة من الدول.

قوله تعالى : **"بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ"**(150).

هذه الآية الشريفة متعلقة بالآية قبلها ووجه تعلقها بها أن الله تعالى يقول : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله أن تطيعوا أى لا تطيعوا إلى آخره وسبب إطاعة الكافرين تكون لطلب النصرة منهم أو دفع الأذى أو الطمع فى عاجل الحياة الدنيا ، ومن اعتقد ذلك فقد وقع فى شرك خفى وحرم الفوز بمقاصده التى لأجلها أطاع الكفار ، والواجب على أهل الإيمان أن يفردوا الله تعالى بالقصد دون غيره ، فلا يطيعوا غير أهل العلم بالله العاملين بكتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

"بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ" أى هو الذى يتولى أموركم فيؤيدكم بروح منه ، وينصركم على أعدائكم ويمكن لكم فى الأرض بالحق ، إذ هو الفاعل المختار لا شريك له سبحانه.

وجائز أن يكون الكلام لا تطيعوا الذين كفروا وأطيعوا الله مولاكم بنصب لفظ الجلالة أى الذى هو وليكم يتولاكم بفضله السابق لكم واللاحق.

"وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ" أى وهو الناصر وحده ، إذ لا قدره لمخلوق على نصرة مخلوق ، بل ولا على نصرة نفسه إلا بأذن الله تعالى : فلفظة خير ليست فعل تفضيل بمعنى أن هناك نصراء كثيرين وهو سبحانه خيرهم تنزه وتعالى ، بل لفظة خير هنا دالة على نفى النصراء سوى الله تعالى ، بل ونفى النصراء من الملائكة والأنس والجن ، وكيف لا ولك من فى السموات والأرض عبيد مقهورون وعباد مربوبون لرب العالمين.

قوله تعالى : **"سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ"**(151).

ويطمئن قلوب أهل التوحيد بما تفضل عليهم من اليقين الحق لأنه سبحانه وتعالى يلقى الخوف والفزع فى قلوب أهل الشرك به ،لأن الشرك بالله لا تقبله إلا النفوس التى خلقت من أسفل سافلين ، ودليل سفليتها أن تعبد غير الله تعالى ، فتصنع الأصنام بيدها وتعبد البهائم والكواكب وغيرها ، ومن علامات تلك النفوس – حتى ولو كان صاحب النفس مسلما – اعتمادها على الخلق وتوكلها عليهم ، ووقوفها عند الأسباب التى أقامها الله تعالى ليتعرف بها إلى عباده ، وتلك الأسباب قد تتخلف من تأدية ما وضعت له بيانا لتفريد الله تعالى بالفعل ، فقد ترى القمر منيرا والشمس كذلك ثم ينكسف وتخسف ، وقد تنزل الأمطار فى الوقت الصائف فى أيام الصيف وقد تتخلف الأمطار عن أوقاتها حتى تجف الأنهار ، وق تزيد الأنهار فى غير أوقات زيادتها لتقوم الحجة على كمال تفريد الله تعالى بالإرادة والعمل ، ولذلك ترى المشركين لا تطمئن قلوبهم وتراهم فى رعب شديد من أهل الإيمان بما أودعه الله فى قلوب المؤمنين من اليقين الحق بالله وعدم الانزعاج عن تخلف الأسباب ، وتراهم يسارعون إلى محاب الله ومراضيه بشجاعة وأقدام لفرحهم بالفوز بما عند الله تصديقا لوعده وثقة به سبحانه ن وكل خلق يتخلق به المؤمن فهو بإلقاء الله النور فى قلبه , وكل خلق قبيح تخلق به المشرك هو كذلك بإلقاء الله تعالي فى قلبه ظلمات الظن به سبحانه ، والميل إلى الشرك ، وهذا مشهد أهل التوحيد الكامل الذين تبرءوا من حولهم وقوتهم بما آتاهم الله ن العلم بأنفسهم وبه جل جلاله.

ظهر لك أن عقيدة التوحيد وما تؤدى إليه من الأخلاق الفاضلة إنما يجمل الله بما من منحهم القابل لها ، فإن الإنسان من حيث هو إنسان مفطور على الشر لخبث طبعه ولقس نفسه الإمارة بالسوء حتى تفضل الله تعالى عليه بالقابل الذى يعقل عن الله خبره ، قال تعالى "أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ" والكتابة فى الحقيقة هى غير المكتوب فيه ، والتأييد غير المؤيد ، فالله تعالى يزيد على الإنسان ما ليس منه ، قال تعالى **"وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ**

وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ"[1] فالحب زائد على من يحب ، والتزين زيادة على المزين فإذا ترك الإنسان ونشأته من غير عناية الله به ، فهو شيطان ,أشر ، ووحش كاسر وأضر ن لفقده القابل الذى يقبل به عن الله.

وهذه الآية الشريفة بيان لأهل الإيمان أن الله تعالى ينصرهم ويؤيدهم بقوته سبحانه ، وغم قلة عددهم وكثرة عدد المشركين ، وذلك بإلقائه الرعب فى قلوب الكفار ن وهذه الآية نزل لمناسبة غزوة أحد لأن المشركين بعد أن قويت شوكتهم على الصحابة بعد أن قتلوا وجرحوا منهم الكثيرين ، حتى وقف أبو سفيان فوق الجبل ينادى فرد عليه عمر ابن الخطاب بشجاعة وقوة ، فقال المشركون أنا تمكنا من القوم فمالنا لا نرجع إليهم فنستأصلهم ، ولكن الله إلقى الرعب فى قلوبهم فتولوا منهزمين.

وحكم الآية عام بدليل أنها نزلت بعد أحد التى أصيب فيها الصحابة بفادح المصاب ن فهى وعد من الله تعالى بدليل قوله سبحانه "سنلقى" بالسين التى هى للمستقبل ، وهذا هو الحق لأن الله تعالى بعد أحد أيد المسلمين فنصروا وظفروا حتى فتحوا جنوب أوربا ووسط آسيا وشرقيها وشمال أفريقيا وسواحلها شرقا وغربا ، وما مضى أقل من قرن حتى كان الإسلام تخفق أعلامه على أكثر من نصف الأرض شرقا وغربا تحقيقا لوعد الله تعالى فكانت تلك الآية معجزة كبرى ، والرعب فى اللغة بحسب الأصل هو الملل ، لذلك يقال رعب الوادى أى امتلأ ماء وهو استيلاء الحزن الشديد على تجويف القلب حتى يملؤه فيبلغ مبلغ اليأس من شدة الحزن والخوف ، وورد فى اللغة رعب بفتح الراء والعين.

وجائز أن يكون رعب بضم الراء مصدرا ، ورعب بفتح الراء والعين الاسم منه ، بما أشركوا بالله ، معنى هذه الآية أن الله تعالى ملأ قلوبهم خوفا وانزعاجا لأنهم اتخذوا من دون الله أندادا من الأوثان والكواكب والبهائم وغيرها وجعلوا لله ولدا وبنات من الأناسي والملائكة ، وهذا هو الشرك الظاهر، وهناك شرك خفي وهو خلق ضعاف الإيمان ، الذين يعتمدون على أهل الثراء وأهل السلطة والقوة ، أو يقفون عند الأسباب كما قررت لك، وهؤلاء فى حاجة إلى مجالسة العلماء العارفين بالله ، ليتعلموا علم التوحيد وحكمة الأحكام ، وبذلك يمدهم الله بتأييده وعنايته ويجعل لهم نورا يمشون فى الناس .

"مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا" ما هنا مصدرية **"مَا لَمْ يُنَزِّلْ"** أى لم ينزل بأشراكهم سلطانا ، والسلطان مأخوذ من السليط الذى يسرج به السراج ن أو من السلطة والقوة أو من الحجة والبرهان ، فيقال للسليط الذى يسرج به السراج سلطان ، وكذلك لصاحب القوة والسلطة سلطان ، وللحجة والبرهان سلطان.

فالمعنى أن الله تعالى لم ينزل فى كتبه السماوية آيه تدل على أن له شريكا فى الأرض يعبد من دونه.

وفي هذه الآية دليل على كمال تنزيه الله تعالى عن الشريك والند والضد والولد ،لأنه قال سبحانه : **"مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا"** ولما لم ينزل به سلطانا قامت الحجة على أن وجود الشريك لله مستحيل عقلا ونقلا ، وصار لا وجهل من يقول أن عدم إنزال السلطان لا يقتضي استحالة وجود الشريك ، لأن القرآن المجيد أنزله الله لمن منحهم القابل منه سبحانه ، فلا عبرة لقول من لا عقل لهم يعقل عنه جل جلاله.

"وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ" حكم الله تعالى على أهل الشرك به بان يجعل لهم النار مأوى يأوون إليها يوم القيامة ، لأنهم نظروا بعيون رؤوسهم ما خلقه لهم فى السموات والأرض والأجواء والأرجاء من النعم التى لا تحصى ورأوها متوالية عليهم من غير استحقاق لهم بها ، فأن السموات والأرض وما فيهن خلقت قبل وجود الإنسان ، وهى ضرورية له جدا بحيث لو فقد عنصر من العناصر الكونية لهلك كل من فى الوجود ، فالهواء والشمس والماء وغيرها ، دليل على وجود الصانع جل جلاله وتفريده بالإيجاد والإمداد ، ومع ذلك فأهم نسوا الله تعالى وغفلوا عنه فأنساهم سبحانه أنفسهم من حيث ما يجب أن يعلموه فيها من الذل والفقر والعبودية له والاضطرار إليه والعجز عن جلب النافع ودفع المضار إلا بحوله وقوته ، بل وعجزهم عن حفظ ما تفضل به عليهم من الجوارح الظاهرة واللطائف الباطنة التى تجعل الإنسان لا ينسى ربه ، بل يديم ذكره وشكره ويتخلق بأخلاقه العلية ، ولأجل تلك النعم الغزيرة والمنن الوافية وحرمانهم من الفكر فيها عاقبهم الله بالخلود فى نار جهنم.

"وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ" أى وبئس مقر من ظلموا أنفسهم بالشرك بالله تعالى ، ومن تلى تلك الآية وتدبر ما فيها من البشائر لأهل الإيمان وعقوبات أهل الشرك ، ليطمئن قلبه وتصغر الدنيا فى نظره ويسارع إلى عمل ما يحبه الله ويرضاه موقنا بالفوز بخيرى الدنيا والاخرة.

([1]) سورة الحجرات : 7.

قوله تعالى : " **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**"(152).

إفتتح الله هذه الآية "باللام وقد" المفيدتين لتقوية الخبر "**صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ**" أى وعدكم وعدا حقا مصدقا فى بدر حيث نصركم وأنتم قليل وغيركم كثير ، وفى بداية معركة أحد حيث أظهركم عليهم ونصركم وهزمهم ، والقوم أكثر من خمسة آلاف ،وأنتم أقل من سبعمائة رجل .

"**إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ**" أى تقتلونهم وتمزقون جلودهم بالنبال وٍ الرماح "وحسه" أى قتله أو جرحه "بإذنه" أى بعناية وإرادته سبحانه.

"**حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ**" أى خالفتم أمر رسول اللهε بمفارقة الرماة مواقفهم التى أوقفهم عليه الصلاة والسلام فيها بتأويلهم الذى أولوه فى الأمر الصريح، وذلك التأويل أنهم قالوا إنما أمرنا بوقوفنا حتى تحصل النصرة وقد نصرنا الله وهزم الأعداء فما لنا لا نسلبهم أموالهم ، فأبى رئيس الرماة وبقى معه أقل من عشرة فى مواقعهم ، وأسرع بقية الرماة إلى جمع الغنائم ، وكان خالد ابن الوليد كامنا فى الجبل على يمين المشركين ومعه ثلثمائة فارس فهجم على المسلمين من خلف ظهورهم ، وقد بينت لك فيما سبق عمل عبد الله ابن قميئة عند ما رمى رسول اللهε بحجر كسر رباعيته وشج وجهه وهجم عليه بالسيف فصده مصعب بن عمير رضى الله عنه ، فضربه قميئة فقتله ونادى أنى قتلت محمدا ، فصاح الشيطان بأعلى صوته معلنا قتل محمد ، ففر الصحابة منهزمين فعند ذلك نادى رسول اللهε قائلا إلى عباد الله فأسرعوا إليهε بحماس وغيرة.

"**وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ**" أى تنازع الرماة فى البقاء أو مفارقة المواقف وعصوا أمر الرسول "**مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ**" أى فى غزوة بدر وفى بداية معركة أحد.

"**مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ**" المراد بالإرادة هنا الاختيار ، لأن معنى الإرادة التردد بين أمرين فعلا وتركا فإذا قويت إرادة أحد الأمرين كان اختيارا ، فمنهم من كان يختار الدنيا أى النصر والغنيمة والسلامة وهم ضعاف الإيمان ، أو المنافقون كعب الله بن أبى بن سلول الذى أرتد ومعه ثلثمائة رجل ممن كانوا خرجوا مع رسول اللهε ، أما ضعاف الإيمان فالذين فارقوا مواقفهم بعد صريح أمر رسول اللهε لهم بالبقاء فيها على أى حال كان.

"**وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ**" أى يختارها وهم أهل الإيمان الكامل ، وخير ما يختاره المؤمن لقاء الله تعالى بنيل الشهادة ولا يختار الآخرة إلا أهل اليقين بوعد الله تعالى الذين وقع بهم العلم على عين اليقين فأتوا بما أستوحش منه أهل الغرة بالله تعالى ، ونظروا إلى الدنيا بعين شهدت حقيقها فاضمحلت أماه أعينهم وتضاءلت ، ولا يبلغ المؤمن هذا المقام إلا فى وقت الفزع الأكبر كغزوة أحد.

"**ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ**" معنى هذه الآية أن الله تعالى يقولن "**حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ**" إلى قوله تعالى "**وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ**" حذف سبحانه الجواب وهو ملحوظ ومعناه فشى فيكم القتل والجراح والهزيمة ، وعطف على الجواب قوله تعالى : "**ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ**" ومعنى الصرف هنا أن الله تعالى ألقى الرعب والخوف والفزع فى قلوب المشركين بعد أن مكنهم من الصحابة وبلغوا منهم ما بلغوا ، ولكنهم فروا منهزمين عندما رجع الصحابة بحماس شديد وغيرة وفرح بسلامة رسول اللهε.

وجائز أن يكون ذلك بما أمد الله به رسولهε من الملائكة على صحة القول بقتال الملائكة فى أحد.

لما هزم الله تعالى الكفار اطمأن المؤمنون وانصرفوا عن الهجوم عليهم، ويكون هذا الصرف رضا عن الله وطاعة له بوقوع ما قدره من هزيمة الأعداء ولم يكن الصرف معصية ، وكيف يكون معصية وقد أسنده الله إليه جل جلاله ، وما فهمه من فهمه أن الصرف معصية إلا لأنه ظن أنهم فروا بعد إسراعهم إلى رسول اللهε بعد أن تحققوا من حياتهε وذلك لم يحصل منهم رضى الله عنهم ولو حصل منهم ما أسند الله صرفهم عن المشركين إلى ذاته العلية جل جلاله وحجة من فهم ذلك غير مقبولة ، لأنه يدلل على رأيه بأن الله عتب عليهم ، والعتب من الله تعالى فى كل هذه الآيات إنما هو على مخالفة الرماة لأمر رسول اللهε ، فإن الرماة يرون أن لهم العذر فى مسارعتهم إلى الغنيمة بعد هزيمة الأعداء ، والله تعالى يحب من أهل الإسلام علو الهمة واحتقار الحياة الدنيا فى سبيل السمع والطاعة لرسولهε ، وتلك المعاصى منهم على حد حكم أن حسنات الأبرار سيئات المقربين وإلا فصرف الله تعالى أصحاب رسول اللهε عن القوم كام مما يحبه الله تعالى خصوصا بعد أن جرى القتل والجراح فيهم وهى رحمة من الله تعالى

ليتفرغوا لخدمة رسول اللهε فيما ألم ب صلوات الله وسلامه عليه ، والواجب على أهل العلم أن يسلموا لله ولرسولهε تسليما ، فإن الغيب المصون فوق عقولنا بل وفوق أرواحنا ، والقرآن كلام الله وكلامه صفته ، هو سبحانه ليس كمثله شئ فى ذاته وفى أسمائه وفى صفاته وما علينا إلا أن نقول . آمنا به كل من عند ربنا ، ولم تكلف أن ندرك الحقائق والله ولينا.

وجائز أن يكون "صرفكم عنهم" عند ما فارق الرماة مواقفهم وخالفوا صريح الأمر ، فهجم على المسلمين جيش خالد بن الوليد ، وصاح الشيطان أن محمدا قد قتل ، فهجم الغم على قلوب الصحابة بحالة مزعجة فرجعوا ولهم العذر ، ولأنهم يرون بعد علمهم بقتل رسول اللهε وبعد ما رأوه من قتل حمزة رضى الله عنه وقتل سبعين من الصحابة أن لا بد من التحيز إلى من فى المدينة ليعيدوا الكرة على كفار قريش.

وعلى الوجه الأول يكون قوله تعالى "ليبتليكم" أى ليمتحنكم بالخير الذى أسبغه عليكم فى بدر وفى أحد بما ظهر فيها من النصرة بعد الهزيمة.

وعلى التأويل الثانى يكون "ليبتليكم" أى ليمتحن إيمانكم قوة وضعفا بعد إصابتكم فى أحد بالشدائد الفادحة.

"وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ" فى هذه الآية ما يطمئن قلوب أهل أحد بفوزهم بعفو الله بعد مخالفتهم أمر رسول اللهε ، وفى هذه العفو دليل على أن الكبائر لا توقع فى الكفر لأن الله تفضل بالعفو عنهم بدون أن يبين لهم أنهم تابوا إليه ، والله تعالى يعفو عن التائب وغير التائب فضلا منه وكرما.

وجائز أن يكون رجوعهم بعد سماع صوت رسول اللهε توبة منهم وندما على مخالفتهم أمره ويكون الله تعالى عفا عنهم بعد حصول التوبة منهم التى وفقهم لها.

ومن فقه هذه الآية وظهر له أن الذنب الذى وقع فيه الرماة بالنسبة لتأويلهم القريب ، وقد عجل الله بهم عقوبة فادحة أشدها كسر رباعية رسول الله ε وشج رأسه الشريف ن وقتل سبعين منهم وقتل سيد الصحابة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه وعنهم ، ثم عفا عنهم بعد فعلتهم الكبيرة ، وأنت تعلم أن العفو من الله تعالى لا يمسى – بحسب العقل – عفوا إلا إذا كان عن ذنب عظيم ، ونحن نرى شر الفساق يقع فى كل نفس فى الكبائر ولا يلقى لها بالا ، فاللهم وفقنا لما تجب وترضى.

"وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ" لأنه سبحانه لولا فضله العظيم لأبادهم وجميعا بهذا الذنب ، فتفضل عليهم جل جلاله فجعل منهم شهداء مع النبيين والصديقين ، ومن بالعفو عن الباقين ، وهزم العدو وحفظ رسولهε ورجعوا إلى المدينة سالمين ، وهذا كله بفضل الله تعالى ولا يزال فضله العظيم لرسولهε يوالينا به ، لأنه لو آخذنا بذنوبنا فى زماننا هذا لما أبقى على ظهرها من دابة ، وأن كان يعاقبنا بتسليط الكفار علينا وحصول التفرقة بينا وبخروج بعضنا على بعض ، إلا أننا نعتقد أنه أدب منه وعبره لنرجع إليه سبحانه ن وفقنا الله للإنابة إليه والرجوع إلى ما كان عليه السلف الصالح ووفقنا لما يحبه ويرضاه.

قوله تعالى : **"إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ"**(153).

وردت الآية بضم التاء وكسر العين فى **"تُصْعِدُونَ"** وعليها أكثر القراء ، ومعنى الفعل تسرعون المشى على الأرض المنبسطة ، ووردت بفتح التاء والعين ومعناها ترتفعون فوق الجبل أو فوق الأرض المرتفعة ، وعلى الرواية الأولى أى تسرعون إلى المدينة فوق الأرض المنبسطة ، وعلى الثانى ترتفعون فوق صخور الجبل وذلك عند الهزيمة يوم أحد.

"وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ" أى ولا تلتفتون وترجعون على أحد **"وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ"** بقولهε إلى عباد الله ، يذكرهم الله تعالى هذا الحادث ليتمثلوه فى مستقبلهم ويكونوا على حال من السمع والطاعة لرسول اللهε ينيلهم الله تعالى به ما يحبونه فى الدنيا والآخرة بل ومحبته تعالى لهم التى هى أغلى من الأرواح ، وتلك الذكرى يجب أن تكون ماثلة أمام كل مسلم عند قيامه لله بحق من حقوقه سبحانه قال تعالى : **"فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ"**[1].

"فَأَثَابَكُمْ" الإثابة هى الجزاء وما يكافا به المحسن والمسئ يسمى إثابة ما دام ذلك يستحقه بمبادلة أو بعمل.

"غَمًّا بِغَمٍّ" أى غما على غم ، لأن أول غم سلب العقول وأذهب الحفيظة هو سماعهم بقتل رسول اللهε ، ثم الغم الثانى رؤيتهم جيش خالد ابن الوليد هاجما عليهم يقتل فيهم قتلا ذريعا حتى قتل حمزة ، فهلعت القلوب وجزعت

([1]) سورة الذاريات : 55.

النفوس وطاشت الأحلام وانحلت القوى ، ولم يبق إلا الرجوع القهقرى وهو البلاء الذى ابتلاهم الله به ليلزمهم الأدب مع رسول اللهε ، ويعلمهم أن إشارتهε لا ينطق عن الهوى لاطلاعه على سر القدر المكون ، وأن كان الحذر لا يمنع القدر إلا أننا مكلفون بالأخذ بالأسباب ، وهوε الإمام الذى يعلمنا بقوله وعمله ، والواجب علينا التسليم له بكل معانى التسليم.

"لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ" اللام متعلقة بأصابكم ، والجملة مرتبة على قوله تعالى : "عفا عنكم" ، والمعنى فعفا عنكم لكيلا تحزنوا حزنا يشوب التوحيد ، فإن الحزن على المصائب والفرح بالنعم دليل على ضعف الإيمان ، والمؤمن القوى الإيمان يفوض أمره إلى الله تعالى فيصبر ويرضى طمعا فى نيل عفو الله ورضوانه.

"عَلَى مَا فَاتَكُمْ" أى من الغنيمة والنصر **"وَلَا مَا أَصَابَكُمْ"** فى رسول اللهε وفى قتل حمزة والسبعين رجلا منكم ، وفى الهزيمة عند لقاء العدو ، وفى مصائب جمة تحزن القلوب حقا خصوصا لانها نتجت من مخالفة الأمر ، والحزن فطرة من فطر الإنسان ، ولكنه يكون مذموما إذا لم يراع فيه الرضا عن قدر الله تعالى ورحمته فى الدنيا والآخرة ، والمحافظة على طاعة أمر رسول اللهε ، فإن كل تلك المصائب سببها مخالفة الرماة لأمر رسول الله ، فظهر أهل الكفر بالله تعالى . حتى لو وقف أبو سفيان فوق الجبل وهو يصيح: اليوم بيوم بدر – أعل هبل – هل فيكم أبن أبى كبشه ؟ فسكت القوم ، فقال قتل محمد ورب الكعبة ، ثم قال أفى القوم ابن أبى قحافة فسكتوا ؟ فقال قتل ورب الكعبة ، ثم قال أفى القوم عمر بن الخطاب ؟ فسكتوا فقال : قتل ورب الكعبة ، ثم قال أبو سفيان – أعل هبل – يوما بيوم ، وحنظلة بحنظلة ، وأنتم واجدون فى القوم مثله ، لم تكن عن رأى سراتنا وخيارنا ولم نكرهه حين رأيناه ، فقال النبيε لعمر بن الخطاب قم فناد فقل الله أعلى وأجل ، نعم هذا رسول اللهε ، وهذا أبو بكر ، وها أنا ذا ، لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون ، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار.

"وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" أى ذو خبر بأعمالكم التى وقعتكم فى تلك المصائب الفادحة من ظهور الأعداء عليكم حتى نصرتم بين ثلاثة أنواع : نوع قتلى ، ونوع جرحى ، ونوع منهزمون بل وهو سبحانه خبير بما تكنه قلوبكم من النوايا التى دعتكم إلى عمل ما عملتم ،وهى نية الطمع فى الغنائم حتى خالفتم أمر نبيكم عليه الصلاة والسلام.

وفى هذه الآية يقظة لقلوب أهل الإسلام ، الذين إذا خلا لهم المكان من الخلق هموا بعمل المعاصى ، جاهلين بأن الله تعالى معهم أينما كانوا ، ولو أنهم راقبوا الله كما يجب عليهم أن يراقبوه لما ظن مسلم أنه فى خلوة أبدا ، وكيف يظن أنه فى خلوة والقوى القهار معه أينما كان لا يفارقه بعلمه وقدراته ، فيثيب المحسن بإحسانه وأكثر ويعاقب المسئ بقدر عمله فحسب ، ومن فقد محاسبة نفسه ومراقبة ربه ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه ، لم يترك من الجهالة شيئا ، ومن ظن أنه إذا أغلق الأبواب عليه خلا بنفسه يكون لا فرق بينه وبين أهل الجحود بالله ، قال تعالى **"مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا"**[1].

والمسلم غير معصوم فقد يستهويه الشيطان بفعل الصغائر حتى إذا بلغت الكبائر تداركته العناية فتذكر فراعى معية الله تعالى ، فقد يخر صعقا وقد يبكى على نفسه وقد يفر إلى الله تعالى **"إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ"**[2].

أما المسلم الذى إذا خلا من الناس ظن أنه فى خلوة يفعل ما يشتهى سجل على نفسه أنه غير مسلم ، لأن الإسلام هو التسليم لله ولرسوله ولأحكامه، ومن علم بوجود وحش فى غابة لا يدخلها أبدا خوفا من الوحش الذى لا يراه ، فكيف بالمسلم وهو يصدق أن الله معه كما أخبره سبحانه ، ثم يختلي فيقع فى الكبائر غير هياب ولا وجل وكأنه غير مسلم ، هذا دليل على أنه كالبغبغاء التى تقول ما لا تفقه ، أو كآله التسجيل التى تسجل الأصوات فتحفظها وتعيدها ، وهذا فى نظر أهل العلم بالله ليس بإنسان فضلا عن أن يكون مسلما فإن الطير يتكلم ولا يفقه ، وآلة الحديد تتكلم ولا تعلم ما تقول ، ولا فرق بينه وبينهما ، والجهل ليس عذرا.

وما على المسلم الذى يزول إيمانه عند وقوعه فى الكبيرة إلا أن يتوب التوبة التى قررتها الشريعة بأن يسلم نفسه للحاكم الشرعي فيقطع يده فى السرقة ، ويقتله ، ويرجمه أو يجلده فى الزنا حتى يموت طاهرا نقيا.

([1]) سورة المجادلة : 7.

(2) سورة الأعراف : 201.

قوله تعالى : **"ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ"**(154).

معنى هذه الآية أن الله تعالى أنزل على أهل اليقين الكامل آمنة يعنى آمنا ، ثم بين ذلك الأمن بقوله تعالى **"نُعَاسًا"** وهو بدل من آمنة ، ولفظة **"يَغْشَى"** بالتاء والياء تفيد أن الفاعل آمنة أو نعاسا وهما روايتان صحيحتان ، والنعاس فى الجهاد آمنة من الله تعالى وفى الصلاة غفلة من الشيطان و **"طَائِفَةً"** أى أهل الإيمان واليقين ،وهم أهل التثبيت ، وهم الذين لا يريدون إلا وجه الله تعالى **"مِنْكُمْ"** أى من الصحابة.

"وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ" وهم أهل الشك والريب الذين شغلتهم أنفسهم.

"يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ" وهم الذين لم تقو حالتهم الإيمانية على تحمل تلك الشدائد الفادحة ، فإن قوى الإيمان يتمنى ما عند الله فى حالة الكرب العظيم وينتظر الفرج منه سبحانه ، وانتظار الفرج عبادة الرسل الكرام والملائكة عليهم السلام.

وقد ورد عن أهل اليقين من الصحابة أن النوم غشاهم حتى كانت السيوف تسقط من أيديهم ، وكان الصحابة المنهزمون فريقين ، فريق كر إلى المدينة ، وفريق صعد الجبل ليشرف على المقاتلين ، وهذه الآية والتى قبلها خبر من الله تعالى عن الذين فروا إلى المدينة ، وكانوا يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية الأولى ، وقد قيل لعبد الله بن أبى بن سلول قبل الخروج ، فقال هل لنا من الأمر من شئ ، فأمر الله رسولهع أن : "قل أن الأمر كله لله" يعنى أنه سبحانه هو المقدر الفاعل المختار لا شريك له ولا راد لقضائه وقدره.

"يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ" لأن الطائفة الذين أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ويخفون فى أنفسهم النفاق وهو ظن السوء بالله تنزه وتعالى ، ويبدون لرسول اللهع الإيمان قولا بألسنتهم.

"يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا" ، وهذا القول هو قول المنافقين الذين انهزموا إلى المدينة ، أى ما قتل من كانوا معنا فى المعركة ، لأن القتلى رضى الله عنهم لم يقولوا ذلك وهم شهداء عند ربهم يرزقون.

"قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ" يعنى بذلك جل جلاله قل لهم لو كنتم فى بيوتكم ، أى محصنين بأمنع الحصون لنفذ الله قدره فيكم ، بأن تبرزوا من بيوتكم إلى مضاجعكم بأى سبب من أسباب الموت ولا مفر من قدر الله تعالى ، وإنما يؤمن بالقدر من سبقت لهم الحسنى من الله تعالى ، ولا يكون الريب والشك إلا من أهل النفاق الذين على قلوبهم أقفالها.

"وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ" تقدم لك بيان فى قوله ليعلم الله ، ومعنى "ليبتلى الله" أى ليختبر أولياء الله ما فى صدور المنافقين ، ولكن الله أسنده إلى ذاته سبحانه ، والمراد أن الذى يبتلى ويعلم هم المؤمنون ليميز لهم المؤمن من المنافق.

والمعنى أن الله تعالى يقول لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل – أى إلى مكان قتلهم – حيث يراهم المؤمنون ويرون حزنهم على ما هم فيه لنفاقهم – لأن تلك المشاهد يتمناها أهل الإيمان لأنفسهم ، والابتلاء هو الامتحان ، وما فى صدور المنافقين يجتهدون أن يخفوه عن المؤمنين إلا فى وقت الشدة ، فإذا وقعوا فيها قهرهم حالهم فأظهروا مكنون صدورهم من الندم والآسف والحزن.

"وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ" أى أنه يقهرهم بالمصائب الشديدة التى تذهب عنهم الحفيظة فى كتم مقاصدهم ونواياهم عن المؤمنين حتى يظهروها مقهورين ، والتمحيص هو التنفية كما تقدم ، فتنقى البلايا ما يظهرونه من الإيمان بألسنتهم حتى يبيحوا بما يخفون عن المؤمنين وهو الردة عن الدين.

"وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ" أى والله ذو علم بما يخفيه المنافقون فى صدورهم من سوء النية والقصد ، فيعذبهم فى الدنيا بحرمانهم من المواقف التى ترضيه وفى الآخرة بالخلود فى النار ، وهو سبحانه العليم بظاهر الأمور وباطنها فلا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء.

قوله تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ"**(155).

تقدم الكلام فيما سبق أن عبد الله بن أبى بن سلول أرتد فى غزوة أحد ومعه ثلثمائة رجل من المنافقين ، أما هذه الآية الشريفة فقد نزلت فى المؤمنين الذين انهزموا بعد أن سمعوا الشيطان يصيح قتل محمدع ، ومعناها أن الله

تعالى يخبرنا أن الذين ولو وجوههم عن قريش يوم أحد وانهزموا من أمامهم إنما استزلهم الشيطان أى طلب زللهم ، فحصلت منهم الزلة بطلب الشيطان منهم ذلك ولا ينكر الأسباب إلا جاهل ، لأن الله تعالى هو الذى وضع الأسباب وهو الذى خلقها مقتضاها ، كما أن النار تحرق والماء يغرق بأذن الله تعالى لتؤدى مقتضاها خلق الله الشيطان سببا لوقوع الإنسان فى الكفر بالله أو فى معاصيه ، والشيطان مأخوذ من شطن أى بعد أوشاط أى احترق.

"بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا" أى ببعض الذنوب التى اكتسبوها وهى مفارقة الرماة مواقفهم ، وأن كان الذين تولوا فى هذا اليوم أكثر الصحابة ، فإن الذين لم يتولوا وثبتوا مع رسول اللهε أفراد قليل من الصحابة – كأبى برك وعلى وأبى عبيدة وسعد بن أبى وقاص والزبير بين العوام وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وهؤلاء من المهاجرين ، والذين ثبتوا من الأنصار – الجناب بن المنذر وأبى دجانه وعاصم بن ثابت والحارث بن الصمة وسهل بن عنيف وأسيد أبن خضير وسعد بن معاذ – وذكر أن ثمانية من هؤلاء رضى الله عنهم كانوا بايعونε على الموت ، ولما كانت روعة ذلك الحاث المؤلم فوق أن تطيقها إلا قوى الصديقية والأفراد العالمين بالله تعالى ، كان لمن فر بعض العذر خصوصا بعد أن سمعوا بمقتل رسول اللهε ، ولرحمة الله الواسعة بهم وعطفه وإحسانه إليهم قال سبحانه **"وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ"** أى عفا عن ما ارتكبوه من غير شك ولا ريب ولا عناد ولا ضعف فى إيمانهم.

"إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ" أى وذلك العفو من الله تعالى إحسان منه وتفضل عليهم ، وظهور لمعانى اسمه الغفور الذى يستر السيئات والخطايا والذنوب عن عيون مرتكبها وغيره من الخلق حتى يلقى الله وليس عليه شاهد بذنب بل ولا نفسه ولا جوارحه ، وتفضل سبحانه بفضل بعد فضل ، بمعنى أسمه الحليم الذى لا يسرع بالعقوبة لمن عصاه ثم يعفو بظهور اسمه الحليم ، أو يمهل وينتقم بظهور اسمه القهار ، فأما الذين سبقت لهم الحسنى من الله فحلمه ليغفر لهم ، والذين لم تسبق لهم الحسنى فحلمه عليهم إمهال ثم بياغتهم بالنقمة والعقوبة أعاذنا الله من جلاله بجماله العلي.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"**(156).

يتفضل الله سبحانه وتعالى فينادى الذين آمنوا نداء إحسان قدر الله لهم به السمع والطاعة ، ومعنى النداء يا أيها الذين صدقوا الله تعالى ورسولهε ، فلما أصغوا بآذان قلوبهم نهاهم سبحانه عن أن يكونوا مثل أهل النفاق الذين لم يقبلوا التوحيد بقلوبهم وأظهروه بألسنتهم خوفا من القتل وطمعا فيما يفنى ، وهؤلاء المنافقون هم شر من أهل الكفر ، لأننا نحتاط من الكفار أما المنافقون فأنهم بأظهارهم الإيمان نسلم لهم فلا نحتاط منهم وهو عند الله كفار ، ودليل ذلك قوله تعالى : **"لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ"** الآية نهانا الله أن نتشبه بالذين كفروا ، ثم بين لنا شر صفاتهم وهى أنهم يقولون لإخوانهم **"إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ"** أى خرجوا لطلب العلم أو لطلب المعاش أو لحج أو لزيارة إخوان فى الله **"أَوْ كَانُوا غُزًّى"** أى غزاة فى سبيل الله وأصاب بعضهم الموت أو فاز بالشهادة فى سبيل الله ، فيقولون **"لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا"** أى لو كانوا مقيمين معنا ولم يخرجوا لتحصيل الخير ما ماتوا وما قتلوا فى الحرب.

وهذه الآية حجة على أنهم كفروا بقضاء الله وقدره ، إذ لا يقول لو كان كذا لكان كذا إلا جاهل بالقدر وكلمة "لو" هذه بعد وقوع القدر تكون باب من أبواب الشيطان ، والمؤمن يعتقد أن الفاعل المختار هو الله تعالى ،وما عليه عند نيل الخير إلا أن يقول الحمد لله وعند وقوع الشر يقول لا حول ولا قوة إلا بالله ، ومتى قال مدعى الإسلام لو كان كذا لفعلت كذا دل على جهله بشعب الإيمان ، والذين قالوا هذا الكلام هم عبد الله بن أبى بن سلول وبعض المنافقين معه ، وقوله تعالى "لإخوانهم" لن القائلين هذا الكلام أظهروا الإسلام وكانوا يصلون مع المسلمين ويخفون الكفر فى صدورهم.

"لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ" أى ليجعل الله تعالى هذا الكلام فى قلوبهم هما وغما فى الآخرة ، أولا وبالذات عندما ينكشف الحجاب فيظهر أهل الإيمان الذين جاهدوا فى سبيل الله فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ويسحب أهل النفاق على وجوههم فى نار جهنم ،ولديها تعظم الحسرة ولات حين مندم ، وتكون الحسرة فى الدنيا بعد بيان الله تعالى هذا البيان ، الذى أخبرنا فيه أن الذين قتلوا يوم أحد حتى لو لم يحضروا مع الجيش وتأخروا فى المدينة لقدر الله عليهم أن يخرجوا من بيوتهم ويبرزوا فى الصف فيقتلون، لأن الفاعل المختار هو الله تعالى فهو المحى وهو المميت جل جلاله ، وفى هذه الآية من الهم والحزن والحسرة ما لا يوصف.

وجائز أن تكون الحسرة بما يناله المسلمون من الظفر والنصرة وانتشار الإسلام كانتشار ضوء الشمس فى رابعة النهار.

"وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ" قصم الله بهذه الآية ظهور المنافقين لأنه جل جلاله أفرد نفسه بالاحياء والأمانة ، فهو سبحانه يحيى من شاء له الحياة ، ويميت من شاء له الموت ، وإذا ثبت هذا فالذين قتلوا فى أحد أماتهم الله فى الدنيا وأحياهم حياة أبدية مع الصديقين والشهداء ، والذين فروا من القتال أولا من المنافقين أماتهم الله موته الخزى فى الدنيا والآخرة ، وأما الذين فروا بعد أن سمعوا بقتل رسول اللهε عفا الله عنهم وفى قوله تعالى **"وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ"** حجة لأهل الإيمان الذين جملهم الله باليقين الحق ، وحجة قاطعة على أهل النفاق ، وبرهان ساطع على تفريد الله بالإيجاد والإمداد والإحياء والإماتة.

"وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" أى أنه تعالى لا يخفى عليه شئ من عمل أهل الإيمان به وعمل المنافقين والكافرين ، فيحسن إلى ن عمل الخير مقتفيا أثر السلف ويعذب من خالف الشريعة ، وفى هذه الآية دليل على أن الله تعالى يبصر الحقائق بصرا يليق بكمال تنزيهه وعظمته.

قوله تعالى : **"وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ"**(157).

معنى هذه الآية أن المنافقين فرحوا بفرارهم من الجيش ففازوا بالحياة الدنيا فى نظرهم وسلامة أموالهم وأولادهم وبراحتهم من مواقف القتال التى لا يتحملها أهل النفاق واعتقدوا أن إخوانهم الذين قتلوا حرموا من هذا الفضل ، لأنهم فارقوا الدنيا بعد أن تحملوا من الشدائد والآلام قبل القتل ما لا يطاق ، وهم بفرارهم لم تصبهم الشدائد الفادحة ، فشنع اله عليهم وأخبرهم بأن الذين قتلوا فى سبيله فازوا بمغفرته وبرحمته ، أى بستره لذنوبهم وعطفه عليهم وإحسانه إليهم فى البرزخ وفى الدار الآخرة فقال سبحانه **"وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"** ففزتم بالشهادة "أو متم" فى سفركم لعلم الخير النافع للمسلمين **"لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ"** تفوزون بها وهى **"خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ"** من الحرص على الصحة والعافية والمال والأولاد والنساء إذ لا مناسبة بينهما ، فهذا عرض زائل يوقع صاحبه فى السؤال يوم القيامة وفى شديد الحساب ، بينما الخير الحقيقى هو ما يتفضل الله به على أهل محبته الذين بذلوا أنفسهم وأموالهم فى إعلاء كلمته ونصره سنة نبيه ، وعلى رواية الفعل المضارع يجمعون بالياء يكون لفظة خير وأن صيغت بمعنى اسم التفضيل ، إلا أنها لا تدل عليه لأن ما يجمعه أهل النفاق والكفر ليس فيه خير ن وتكون مغفرة الله ورحمته خيرا حقيقيا لا خير سواه للكافر ، وأن كان الفعل بالتاء والمخاطب هم أهل الإيمان تكون الخيرية بمعنى اسم التفضيل ، لأن ما يجمعه المؤمنون هو حلال الطيب ينتفعون به فى زكاة وحج وبر وصلة وتكون مغفرة الله ورحمته خيرا منه بمعنى اسم التفضيل ، واللام الداخلة على حرف الشرط والداخلة على مغفرة الأولى للقسم والثانية داخلة على جواب الشرط وهى لتأكيد الخبر ، وما دخلت لام القسم على أن الشرطية إلا ودخلت على جوابها اللام.

قوله تعالى : **"وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ"**(158).

"وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ" لما كان المجاهدون فى سبيل الله تتفاوت مقاماتهم وذلك بحسب مشاهد التوحيد ، فمنهم من يجاهد ليفوز بالجنة ، ومنهم من يجاهد ليفوز بالرضوان الأكبر ، ومنهم من يجاهد فانيا عن وجوده ، وقلبه معلق بالرفيق الأعلى متحققا بقول لا حول ولا قولة إلا بالله ، ولا يشهد لنفسه عملا ، قال تعالى "فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى"[1] وعبد يجاهد ولا يرى لنفسه عملا استغراقا فى شهود معانى قدرة الله وحكمته ليس كمن يجاهد مثبتا لنفسه العلم والجهاد والقتل ، وهؤلاء الذين يخبرنا الله عنهم بقوله : **"وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ"** وهم أهل مشاهد التوحيد العالية ، ولذلك إفتتح الآية بمتم لأن الموت فى هذا المقام فوق درجة العلل ، قال تعالى **"أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ"**[2] ولم يقل فى القبور فهذا الموت الذى أعنيه بكلامى هو موت الإرادة لا موت عزرائيل ، قالε "موتوا قبل أن تموتوا" ويسميه أهل العلم بالله – الفناء أو الجمع – والقتل قد يكون بين الصفين وقد يكون على الفراش ، لأن الله إذا أحب العبد جذبه إليه جذبة محبوب لمحبوب فأفناه عن الدنيا والآخرة ، وقد ورد فى الحديث من أراد أن ينظر إلى مي يمشى مع الأحياء فلينظر إلى إبى بكر ، وهذا هو الموت الحق الذى من أماته الله به كان مستغرقا فى شهود وجه الله تعالى قال سبحانه : **"فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ"**.

"لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ" هذه الآية الشريفة راح طهور يدار على نفوس أهل التمكين ، فأن المرجع قد يكون إلى الرب قال تعالى **"إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى"**[3] للجزاء والحساب . أما قوله **"تُحْشَرُونَ"** أى يقبل الله بكم إليه على رفارف

([1]) سورة الأنفال : 17.

(2) سورة الأنعام : 122.

([3]) سورة العلق : 8.

عنايته وبجواذب محبته ، وشتان بين من يحشره العلى العظيم إلى حضرته العلية ليشهده ما لديه من جمال وجلال ونور وضياء وبهاء وكمال ، وبين من يسوقه ربه إلى المحشر ليقف بين يدي ربه فيحاسبه حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله فى رياض الجنة مسرورا ، أو يحاسبه حساب الحكم العدل ثم يلقى فى جهنم محصورا.

قوله تعالى : **"فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ"**(159).

ما هنا صلة ، والمعنى فبرحمة جملك الله بها لتقوم الحجة لمن آمن وعلى من كفر – إكراما لأمتك الذين خصهم الله بأن تكون بهم الرؤوف الرحيم ورسولهم الكريم ،وليفقد من كفروا بك العذر يوم القيامة لأنهم إذا نظروا للرسل قبلك الذين كانوا يدعون على أممهم بالهلاك فى الدنيا والآخرة وتذكروا ما قمت لهم به من عطف ورحمة وحنان وحرص عليهم تكون حسرتهم أشد وأنكى ، وبتلك الرحمة فاز أمتك بخير واسع.

"وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا" فى قولك **"غَلِيظَ الْقَلْبِ"** أى قاسى القلب عليهم **"لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ"** أى تفرقوا.

وفى هذه الآية دليل على أن محمدع بعثه الله رحمة للعالمين عامة لمن آمنوا ومن كفروا ن أما لمن آمنوا رحمة لما فازوا به فى الدنيا من عقد القلب على عقيدة التوحيد ومن أقامه الله إياهم فى محابة ومراضية من العبادة الحقة والمعاملة الحسنة والأخلاق الجميلة ، وبما تفضل الله به عليهم من نفوذ الكلمة وحسن الأحدوثة والتمكن فى الأرض بالحق – أما الرحمة يوم القيامة فبفوزهم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، أما كونهع رحمة لأهل الكفر بالله فى الدنيا فقط فبدليل قوله تعالى : **"وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ"**[1] يعنى ليخسف بهم الأرض أو ليسقط عليهم السماء أو ليغرقهم أو يحرقهم ، وبما نالهم من الخير بسبب تعاليمه ووصاياهع التى جعلت أمته رحماء أهل عطف وحنان ، رحماء حتى بالحيوان حال ذبحه ، رحماء بالأعداء حتى فى وقت القتال ، وبتلك الرحمة التى منحها الله لجميع خلقه بسبب بعثة محمدع فاز العالم أجمع بالخير العظيم وانتفع الناس بكل المخلوقات الكونية بعد أن كانوا يعبدون البقر والأصنام والأنهار ويقدسون أكثر المخلوقات فلما جاء رسول اللهع كشف الحجاب عن الحقائق للعقول فانتفعت بكل تلك الموجودات الكونية بعد أن كانت العقول تقدسها ، إنظر إلى ما بلغه المجتمع الإنساني من الرقى فى الصناعات والفنون ، ومن أدراك خواص الحقائق الكونية والانتفاع بها مما يسمون مدنية ، ترى هذا الخير لم ينله أهل الكفر بالله تعالى فى أوربا وأمريكا واليابان وغيرها إلا بعد أن انتشرت تعاليم القرآن بينهم أمام كان المسلمون مسلمين يعملون بروح الدين ، فقد فتحوا الجنوب الغربى لأوربا إلى بحر المانش ، واستقذروا شمال أوربا عندما سارت سفن المسلمين لغزو القسم الشمالى لأوربا ، وقف ربان السفن وقالوا "أنكلش" أى رائحة سمك وبيئ ، وتذكروا قولهع اتركوا الانكلش فأنه وبيئ ، فرجع الصحابة رضوان الله عليهم محافظة على صحتهم ، فلما تركنا الدين وراء ظهورنا أصبح سكان البلاد الموبوءة أصحاب السلطة والقوة علينا وصدق أبو هريرة فى حديثه وهو يقول : "إنما يسعد آخر هذه الأمة بما سعد به أولها" وإنما يفوز بقسط من تلك الرحمة المحمدية أهل الإيمان الكامل العاملون بكتاب الله وسنة رسولهع ، أسأل الله تعالى أن يعيد لنا هذا المجد بأن يتفضل علينا بالرجوع إلى مال كان عليه سلفنا الصالح.

وهذه الآية أنزلها الله تعالى فى شأن أهل الإيمان الذين حدثت منهم الأحداث فى وقعة أحد ففارقوا مواقفهم التى أوقفهم فيهاع فكان ما كان مما تقدم ذكره ، وطهرهم الله بما ابتلاهم به من قتل كثير منهم ومن هزيمتهم ، وبما من به عليهم بأن جعلهم من أمة حبيبهع الذى هو رحمة للعاملين ، وأمان للأميين فكان ما جمله الله به عليه الصلاة والسلام نعمة الله العظمى لنا حيث حفظنا الله من التفرقة بعد وقوعنا فى معصية الأمر الذى لا تطيقه الرسل السابقون ، ومع هذا فإنه عليه الصلاة والسلام يعفوا عنا ويستغفر لنا ويقبلنا قبولا يشعرنا بأننا أحسنا ، فجزاه الله عنا خير جزاء جازى به أولو العزم من الرسل.

"فَاعْفُ عَنْهُمْ" أى فتجاوز عن سيئاتهم التى ارتكبوها بما فطرك الله عليه من جميل الأخلاق ، قال سبحانه : **"وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ"**[2] ، "واستغفر لهم" واطلب من الله لهم المغفرة ، أى الستر لذنوبهم التى ارتكبوها فى غزوة أحد.

([1]) سورة الأنفال : 33.

([2]) سورة القلم : 4.

ثم أكرم الله الصحابة إذ أمر حبيبه صلى الله عليه وسلم أن ينزلهم منه منزلة الحكماء العلماء الممنوحين فضل الخطاب ، ونور الإلهام ، بقوله : **"وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ"** ، وكلنا نعلم أن رسول اللهε لا ينطق عن الهوى ، وأن الله تعالى خلقه من نور جماله ، وإقامة مقام نفسه فى آيات كثيرة من القرآن ، ولم يقم أحدا من الرسل هذا المقام ، قال تعالى : **"مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ"** ، وقال تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ"** ، وغير ذلك من الآيات التى سنتكلم عنها فى مواضعها ، فأمر الله تعالى حبيبهε بمشاورة الصحابة فى الأمر تفضلا منه سبحانه ليرفع شأنهم لديه تعالى ولينزلهم منازل الرسل الكرام ، وليكمل لنا ديننا كمالا ننال به الفوز بحقيقة التوحيد ، فإن مشاورة رسول اللهε ليكمل يقيننا أنه أكمل عبد لله ، وبذلك يحفظنا سبحانه مما وقعت فيه الأمم السابقة ، الذين جعلوا عزيرا ابن الله والمسيح ابن الله تنزه سبحانه عما يصفون ففى الآية كمال العناية من الله بنا حيث حصننا من الغلو فى مقام حبيبه ومصطفاهε ، ففى أمر الله له أن يشاورنا فى الأمر كمال لمقامه المحمدى ، وتشريف لنا حتى يعصمنا جل جلاله من التطرف كما وقع لأمم الرسل السابقين.

"فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ" ، أى فإذا أجمعتم أمركم بعد المشورة على تنفيذ ما ألهمكم الله تعالى من العمل فى مرضاته سبحانه ، فتوكل على الله ، أى ففوض أمورك جميعها لله مراعيا حقيقة التوحيد فى إقدامك على العمل أو تركه ، فإن رعاية مشاهد التوحيد فى القيام بالأحداث التى تدعوا إليها الحاجة فى إعلاء كلمة الله تعالى ونشر دينه ، مما يجعل القائمين بها فى عصمة الله تعالى ، وفى حصونه المنيعة ، لا يحدث منهم حدث إلا وهو فى محاب الله ومراضيه ، وفى قوله تعالى : "فتوكل على الله" ، أى أقبل واثقا بعنايته وتوفيقه وبالظفر بالمقصد ، لأن المتوكل على الله تعالى بحسب يقينه قد يكون عند ربه ، وقد يكون لديه ، وقد يكون مع الله والله تعالى معه ، وهذا هو خير ما تسارع إليهن أرواح المقربين إلى الله تعالى ، فإذ قدر الله تعالى نصرتهم وفوزهم بطلبتهم ، كان ذلك عاجل فضل ن الله فى الدنيا ، وأن قدر الله لهم الشهادة فيكون الشهيد فاز بخير مقاصده ،ومقام التوكل قد شرحته فى كتاب أصول الوصول ، وفى غيره من الكتب فراجعه أن شئت المزيد من التفصيل.

" إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ" افتتح هذه الآية الشريفة بأداة التوكيد لتقوية الخبر ، وأتى باسم الذات تقدس وتعالى إشارة إلى أن هل مقام التوكل أفراد ذاتيون أقامهم الله تعالى له فتفضل عليهم بالحب الالهى الذى هو فوق مقام عليين حيث الأعلون ، وقد بينت فيما سبق معنى محبة الله للعبد ، وأقمت الحجة عليها بعد أن أنكرها من حرمها ممن يدعون العلم ، وما أحب الله عبدا إلا وقد أحسن إليه بأن جعله ممن يحبون الله تعالى ، قال سبحانه : **"يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ"** ، وكل من أحب الله تعالى فإن الله تعالى يحبه ، ومتى أخبر الله عن محبوب له وجب أن نعتقد أنه يحب الله ، وقوله سبحانه: **"إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ"** دليل على أن المتوكل جمله الله بمعانى صفاته سبحانه فأحب الله تعالى صفاته فيه ، وهو المحبوب جل جلاله والمحب سبحانه.

قوله تعالى : **"إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ"**(160).

قوله تعالى : **"إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ"**(160).

هذه الآية مزيد جذبه لقلوب أهل الإيمان الذين أقامهم الله للجهاد فى سبيله ، وهى متصلة بغزوة "أحد" بعد ما حدث فيها ما حدث مما بينه الله فى الآيات السابقة ، وفيها تشجيع للمسلمين على الجهاد لأن الله تعالى وعدنا وعد الحق ، بقوله : **"إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ"** وكل فئة من المسلمين أعدوا أنفسهم لإعلاء الكلمة ، فأنهم بذلك يكونون من أنصار الله تعالى ، وصدق الله فى وعده.

ومعنى هذه الآية حيث بين لنا أنه جل جلاله ينصرنا إذ نصرناه ، وأنه إذا نصرنا سبحانه ثبت لدينا أن من على وجه الأرض لو اجتمعوا علينا قهرهم الله وأخزاهم وأذلهم وجعل لنا الغلبة عليهم ، ومتى كمل يقين المسلمين تضاءلت أمامهم قوى العالم ، وفى هذه الآية كشف لأسرار التوحيد الذى يزيد به الإيمان ، والأصل فى ذلك النية قال تعالى : **"فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا"**[1] ، وقالε : "إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى".

"فَلَا غَالِبَ لَكُمْ" معنى ذلك أن الله تعالى إذا نصر أهل طاعته الذين يحافظون على أوامر نبيهε محافظة لا يشوبها تأويل يدعو إليه حظ أو هوى أو طمع ، فإن نصرة الله لهم تجعلهم يقهرون أعداء الله وأعداءهم ولو حاربهم

([1]) سورة الفتح :18.

كل الخلق ، وكانوا هم فى قل ، وغزوة بدر حجة قائمة على نصرة الله لرسولهε ولمن كانوا معه ، قال تعالى : **"وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ"**[1].

"وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ" أى وأن يذلكم ويقهركم بالأعداء كما وقع فى غزوة أحد بعد أن فارق الرماة مواقفهم مخالفة لأمر رسول اللهε طمعا فى الغنيمة وتأولوا المر الصريح الذى لا يتأوله إلا طامع فى متاع الدنيا.

"فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ" أى من بعد أن يخذلكم القوى الذى بيده ملكوت كل شئ ، وفى هذه الآية حجة على أن المؤمن الكامل الإيمان ينفذ الأمر الصريح – مهما تحمل فى سبيله من المشاق وفقد من الخيرات – طمعا فيما عند الله وتوكلا عليه . فلا يتأول الأمر الصريح مؤمن ذاق حلاوة الإيمان ، ولكن الله بالناس رؤوف رحيم فعفا عنهم وغفر لهم ، وهذه الآية هى ميزان الأحوال ، لأن الحال هو الحجة القائمة على صدق الدعوى أو على كذبها.

"وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" هذه الآية الشريفة شراب طهور يحى أرواح أهل الإيمان ، فيسارعون إلى التوكل على الله خصوصا عند قيامهم بنصرة الله وإعلاء كلمته ، وفى كل موطن من المواطن التى تدعونا فيه الشريعة للقيام عملا بالواجب من جهاد أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر ، أو عبادة أو صلة أو إصلاح بين الناس ، أو مرغب فيه كالإحسان إلى المسئ ، والعفو عن الظالم ، وصلة القاطع والشفقة على جميع خلق الله تعالى ، وقد سبق بيان مقام التوكل فى كتبنا السابقة.

قوله تعالى : **"وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ"**(161).

نفى الله حصول الغلول من الأنبياء ، والغلول هو الخيانة ، كما أن الغل هو ما يجد الإنسان فى صدره من الحسد والبغضاء ، وانتفاء الغلول عن الأنبياء لأن الله تعالى عصمهم لأنهم هم المبلغون عنه شرائعه للناس ، وقد توعد الله تعالى أهل الخيانة بالحساب عليها ، والأنبياء شهود على أممهم فانتفى حصول الغلول منهم ، وقد قرأ بعض القراء هذه الآية بفتح الياء وضم الغين ، وكان سبب نزولها أن تأخر تقسيم غنائم حنين لمانع ، فجاء قوم وقالوا: يا رسول الله إلا تقسم غنائمنا ، فقال عليه الصلاة والسلام : "لو كان لكم مثل أحد ذهبا ما حبست عنكم منه درهما ، أتسحبون إنى أغللكم مغنمكم".

وورد أيضا أن الله تعالى لما ذم آلهة المشركين وعوائدهم من واد البنات وغير ذلك طلب المشركون من رسول اللهε أن يترك ذلك فأنزل الله هذه الآية ، أى ما كان النبى أن يخون فيما أوحاه الله إليه ، وقيل أنه ضاعت قطيفة حمراء فى غزوة بدر ، فظن بعض الجهلاء أن النبىε أخذها ، فنزلت الآية ، وقرأها بعضهم بضم الياء وفتح الغين.

وسبب نزولها أن أشراف الناس طلبوا من رسول اللهε أن يخصهم بشئ من الغنائم ، وأن الرماة فى يوم أحد تركوا مواقفهم طمعا فى الغنيمة خوفا من أن رسولε يقول من نال شيئا فهو له وليس للآخرين حظ فى الغنيمة كما حصل فى بدر ، فنزلت الآية.

وهذه الآية حجة على كمال عصمة رسول اللهε وبراءته من الغلول فى الغنائم وغيرها ، وأن كان الغلول هنا خاصا بالغنائم وكيف لا وأهل الإيمان بالله يختلقون بأخلاقهε ليحفظهم الله من الغلول ،بل يؤثرون على نفسهم ولو كان بهم خصاصة . قال تعالى : **"وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ"**[2].

"وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" ، المعنى أن الله تعالى لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، فإذا أوقف من غل فى الدنيا بين يديه يوم القيامة حاسبه على غلوله بعد كشف الستر عنه أمام الحشر فكانت الفضيحة فى هذا الوقت فوق عذاب جهنم ، وهذه الآية تهديد من الله تعالى ووعيد لعصاه المسلمين ، وإنما ذكرها الله تعالى هنا ليبين لنا مكانة النبوة ن الترفع عن الوقوع فى معاصي الله التي يقع فيها من لم يعصمهم سبحانه.

"ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" أتى بـ **"ثُمَّ"** فى هذه الآية التى تفيد البعد بالنسبة لما تعلمه النفوس لغفلتها عن مراقبة ذلك اليوم ، أما الحقيقة فذلك اليوم ليس ببعيد بحسب علم الله تعالى ، فإن القيامة تقوم على كل إنسان يوم موته ، قالε : "من مات فقد قامت قيامته" ، وعلى هذا فالإنسان عند موته يشهد فى برزخه ما قدر له

---

(1) سورة الحج : 40.

(2) سورة آل عمران :185.

أزلا من نعيم مقيم ، أو انتقام عظيم ، وأن لم يباشر النعيم أو العذاب ، وقوله تعالى : **"تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ"** أى يوفى الله كل نفس ، أى يعطيها جزاء أعمالها تامة ، **"مَا كَسَبَتْ"** أى ما وقع منها من أعمال الخير أو أعمال الشر ، لا ينقص من جزائها شئ ، وأما ما سبق فى الأزل من إحسان الله إلى النفوس التى صاغها من نور ، وذلك كسابقية الحسنى بالإسلام والإيمان والإيقان ، وبالنور والعرفان ، وبالفرار من الكونين إلى الله تعالى ، وبما فوق ذلك من عطايا الله تعالى ، فذلك ليس بكسب وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

"وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" نفى الله تعالى الظلم منه على عباده لاستحالة وقوعه عقلا ونقلا ، أما عقلا فلأن الكون وما فيه مخلوق لله مملوك له سبحانه ، والظلم تصرف غير المالك فلا ظلم ، ولأن الله تعالى خلق الكون غير محتاج إليه فكان إيجاده وإمداده رحم منه وفضلا ، ومن سبقت رحمته غضبه استحال عليه الظلم ، وأما نقلا فقد وردت الآيات الشريفة دالة على نفى الظلم عنه سبحانه وهو الحكم العدل ، والواو فى قوله : "وهم لا يظلمون" للحال ، والمعنى والحال أنهم غير مظلومين ، فلا يزيد فى عقوبتهم عن القدر الذى يستحقونه ولا ينقص من أجورهم التى يستحقونها بأعمالهم شئ ، بل قد يتفضل الله عليهم ، ونفى الظلم عنه جل جلاله يقتضى عدم جواز الظلم عليه تعالى ، لأن الظالم من تصرف فى ملك غيره ، ولا ملك لغيره سبحانه.

وهذه الآية الشريفة تأكيد لخبر الله تعالى عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لأنهم لا يغلون ، لأنهم عليهم الصلاة والسلام عصمهم الله تعالى من الوقوع فيما يقتضى الحساب الموجب ، بل وعصمهم جل جلاله من أن يشهدوا لأنفسهم كسبا لأنهم أكمل الناس توحيدا وعلما بتفريد الله تعالى بالإيجاد والإمداد من غير شريك ولا مثيل.

قوله تعالى : **"أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ"**(162).

الهمزة هنا للإنكار ، والفاء لعطف الجملة بعدها على جملة محذوفة ملحوظة ، والتقدير أفمن أتقى الله فاتبع رضوانه بمسارعته إلى عمل ما يحبه ويرضاه من ترك الغلول وغيره وعمل الطاعات التى أمر الله تعالى ، كمن خالف الله تعالى مخالفة باء بها بغضب من الله تعالى ، وهذه الآية سبب نزولها خاص وحكمها عام لأن سبب قوله "رضوان الله" أى بترك الغلول , : "بسخط من الله" أى بعمل الغلول ، ولكنها عامة فى كل ما ينيل العمال رضوان الله وما ينيل المنافقين من سخط الله وغضبه ، وكل من سارع فى القيام بمقتضى الوقت بحسب أنواع القربات فاز برضوان الله تعالى ن وكل من خالف الله فعمل بغير ما أمر به سبحانه استحق الغضب والمقت حفظنا الله من موجبات مقته وغضبه.

"وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ" أى ومأوى من خالف الله بترك عمل ما أمره به وفعل ما نهاه عنه فباء بغضب من الله "جهنم" ، والواو فى "مأواه" دليل على أن غضب الله غير مأواه جهنم ، ويكون غضب الله فوق جهنم فى الشدة ، والذى فهمته أن الحرمان من الإيمان ، ومن فروعه الاستقامة والصبر والرضا والتوكل والتوبة وحسن الثقة بالله والمراقبة والفكر فى آلاء الله وغير ذلك من جنة الرضوان العاجلة وهذا الحرمان هو غضب الله تعالى ، أما الخلود فى النار فإنه يكون يوم القيامة حيث لا ينتفع المؤمن بتلك الخيرات التى حرمها فى الدنيا ولو نالها ، فإن الكافر يوم القيامة تنكشف له الحقائق فيكون موقنا كامل الإيقان ولكنه لا ينتفع بالإيمان إلا إذا عمل به فى تلك الدار الدنيا قبل كشف الحقائق لتقوم الحجة له أن الله منحه نفسا طيبة مؤمنة قابلة للتلقي عن الله ولكن بعد كشف الحقائق ، فإن نفسا لا ينفعها إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، وقد قيل لفرعون عند غرقه : "الآن وقد عصيت من قبل" . "وبئس المصير" أى بئس المرجع والمآب والمؤوى.

قوله تعالى : **"هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ"**(163).

الضمير أما أن يكون راجعا إلى من عناهم بقوله تعالى : **"أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ"** وتكون المعنى أن الذين اتبعوا رضوان الله درجات عند الله بحسب حقائقهم فإن نفوس من سبقت لهم الحسنى تتفاوت ، فمنها نفوس خلقت من النور الذى خلق منه الأنبياء ، ومنها نفوس خلقت من الصفاء ، ومنها نفوس خلقت من جواهر عاليه وغيرها ، فيكونون درجات عند الله تعالى، وأن رجع الضمير إلى من فى قوله تعالى : **"كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ"** تكون نفوسهم متفاوتة ، فمنها نفوس خلقت من الظلمة ، ومنها نفوس خلقت من النار ، ومنها نفوس خلقت من أردا جواهر النفوس ، وتكون درجات أهل الرضا من الجنة إلى مقعد صدق ، وتكون درجات أهل الغضب من جهنم إلى لظى ن حفظنا الله وإخواننا المؤمنين.

وهم درجات أى لهم درجات أى لهم درجات ، لما كانت لفظة درجات لا تكون إلا لأهل الرضوان كان مرجع الضمير إلى قوله تعالى : **"أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ"** أقرب لأهل الكفر بالله لفظة دركات فى مقابل درجات عند المؤمنين.

"وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ" أى والله ذو علم بأعمالهم الباطنة والظاهرة ، فلا يخفى عليه شئ منها ، فيتفضل على أهل محبته سبحانه بما هو أهل له من نعيم مقيم وفضل عظيم ن ويجازى أهل الكفر به بما يستحقونه عدلا منه سبحانه.

قوله تعالى : **"لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ"**(164).

المنان هو الذى يتفضل بجميل الإحسان من غير أن يحوج من تفضل عليه بلا دعاء ولا مفاوضة ولا معاوضة ، والمن هو ما يسقط على أوراق النباتات ، ويكون للفخر والشهرة ، وهو الذى يبطل العمل فى قوله تعالى : **"لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى"**[1] ، وقد يأتى بمعنى القطع كما قال تعالى : **"لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ"**[2] أى غير مقطوع ، وقد يكون بمعنى الإحسان من غير مبادلة والمعنى وهنا يقسم الله تعالى أنه تفضل علينا بجميل الإحسان ، وهو بعثه حبيبه ومصطفاهع فينا لنجاتنا وإرشادنا ولسعادتنا فى الدنيا الآخرة بما تفضل الله به علينا من النعم التى بها كمال أرواحنا وأشباحنا وطهرة أنفسنا وتثقيف عقولنا وعمارة قلوبنا بتوحيد الله والإيمان واليقين بما جاء بهع مما بينه الله تعالى.

"يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ" الآية يعنى أنه تنزه وتعالى بعث فينا رسولا من أنفسنا لكون ذلك أدعى لقبول ما جاءنا به من عند الله لاتحاده بناع نسبا ووطنا ولغة ، فيكون لنا بسبب ذلك الفوز بالسعادتين والشرف العظيم بتأييدنا له بعد قبولنا نصرة لله تعالى ، ونكون سببا فى نيل ذريتنا من بعدنا العز والتمكين في الأرض بالحق والخيرات فى الدنيا والنعيم المقيم يوم القيامة.

"يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ" أى يسمعهم كلام الله تعالى الذى أنزله عليه إحسانا منه إلينا.

"وَيُزَكِّيهِمْ" أى يطهرهم من خبث طباعهم ونجاسات أنفسهم ليفوزوا بعد الطهارة بقبول النور والهدى والعلم.

"وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ" أى يبين لهم معانى ظاهر القرآن المجيد المتعلقة بالأحكام والآداب والعبرة والسير.

"وَالْحِكْمَةَ" أى ما يتعلق بأسرار التوحيد وبغيب الآيات فى الكائنات وبحكمة الأحكام وحكمة الإيجاد والإمداد.

تلك الحقائق الأربعة التي هي تلاوة الآيات وتزكية نفوسهم وتعليم الكتاب وتعليم الحكمة هي المعاني التي بها كمال الروح والجسم وجمال المجتمع الإنساني حتى يكون الإنسان عبدا لله تعالى عاملا في محابه ومراضية ، ويبلغ درجة من الكمال حتى يكون الإنسان أخا الإنسان ، كما قالع : "المسلم أخو المسلم" الحديث وتلك الكمالات تفضل الله بها علينا أمة محمدع خاصة ، وبها أكمل الله علينا ديننا الذى ارتضاه لنا وأتم علينا نعمته.

"وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" أى وأن كان العرب وغيرهم ، وأن كان المراد بخبر الله هم العرب من قبل أى من قبل بعثه رسوله محمدع بما جاء به من النور والهدى.

"لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" أى لفى عمى وهلاك وقطيعة عن الله وكفر به.

"مُبِينٍ" أى ظاهر جلى لا تقبله العقول ولا تهش له القلوب وتبش ، ولكنها الأهواء والهوى أخو العمى ، وتقليد الآباء والجهلاء من غير بصيرة.

قوله تعالى : **"أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"**(165).

الهمزة للاستفهام الإنكاري ، والمصيبة ما حصل فى غزة أحد من قتل المشركين سبعين رجلا من الصحابة منهم سيد الشهداء يوم القيامة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه.

"قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا" أى فى بدر حيث قتلتم سبعين وأسرتم سبعين.

"قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا" وبعد وقوع تلك الحادثة المؤلمة فتح المنافقون باب الفتنة فنشروا ما لا يرضى من القول ، فقالوا : نبي يعلم الغيب ويصر ربه ويحكم أن القوم كفار وينصرون عليه ، فأحب الصحابة أن يعلموا الحكمة من الله فى هزيمتهم ، فقالوا : "أنى هذا" تعجبا مما حصل لجهلهم الحكمة فى ذلك ، فبينها الله طمأنينة لقلوبهم ، بقوله تعالى

([1]) سورة البقرة : 264.

(2) سورة فصلت : 8.

: **"قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ"** رد الله تعالى عليهم مبينا لهم أن مصائب غزوة أحد سببها فى أنفسهم ، وهنا يجب أن نكشف للعقول حقيقة تسكن بها النفوس إلى الله تعالى . معلوم أن كمال مشاهد التوحيد هو كمال يقين العبد بأن الله تعالى خلق العبد وخلق أفعاله ، ولكنه سبحانه وضع الأسباب ليتعرف بها إلى العقول ، وهو الذى خلق الأسباب وخلق الخلق أفعالهم ، فقوله تعالى : **"هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ"** ليس دليلا على أن العبد يخلق أفعاله بما ورد من الآيات الدالات على تفريد الله تعالى بالإيجاد والإمداد وما قررته العقول من حدوث الكون ، وأن الذى أحدثه قدر ما به كماله فى وجوده ، قال تعالى : **" صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ"**[1] والذى هو عند أنفسهم هو الحظ والهوى ، الذى بسببه أخذوا الفدية من أسرى بدر بعد أن طلب منهم رسول الله قتلهم ، فقالوا : قومنا وعشائرنا نفديهم وننتفع بفديتهم ، فقال لهمε : أن قبلتم منهم الفدية يقتل منكم بعددهم ، فقالوا : نقبل الفدية ونرضى أن يستشهد منا سبعون ، وبالطمع يوم أحد حين خالفوا الرماة أمره عليه الصلاة والسلام وأسرعوا إلى الغنيمة ، وحين خالفوا رسول اللهε عند خروجه إلى أحد بعد أمره لهم أن يقيموا بالمدينة ويلقوا العدو فيها ، فأبوا إلا الخروج ، ومن فشلهم بالفرار من الميدان، كل تلك السيئات كانت سببا لتقدير الله تعالى مصائب يوم أحد لتطهير الصحابة ، ولتشرق عليهم ساطعة أنوار من التوحيد ، فيؤمنوا بالله إيمانا لا تشوبه علة ولا غرض ، ولا تمازجه عقيدة فاسدة.

"مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ" ليس المراد بها أنكم تخلقون أعمالكم وأنكم أنتم الذين خلقتم أعمال المخالفة ، لا ولكن الله جعل ذلك سببا ليظهر ما قدره أزلا فيكمل إيمان أهل الإيمان ، ويرتاب أهل النفاق ، فالله سبحانه لا تنفعه طاعاتنا ولا تضره معاصينا ، لأنه هو النافع الضار ، ولا نافع ولا ضار سواه.

"إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" افتتح الآية بأداة التوكيد يقظة للقلوب لتلقى ما بعدها بحرص ونشاط ، فقوله : **"عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"** أى أنه لا يعجزه شئ ، فهو القادر على أن ينصر أولياءه ، ويخذل أعداءه ، والقادر سبحانه على أن يغفر ويعفو عن المذنبين من أهل دينه ، والقادر سبحانه على أن يظهر أحبابه بابتلائهم فى الجهاد بنيل عدوهم منهم ليرجعهم إلى الله ويطهرهم من الغرور ، وليرفع درجاتهم لديه سبحانه فلا يعجزه شئ.

قوله تعالى : **"وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ"**(166).

أثبت سبحانه أن الذى أصاب المؤمنين فى غزوة أحد له سبب ظاهر وسبب باطن ، فأما السبب الظاهر فهو قوله تعالى : **"قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ"** ، وأما السبب الثانى فقوله تعالى : **"فَبِإِذْنِ اللَّهِ"** لحكمة تميز المؤمنين عن الكافرين تميزا يجعل كل نوع عالما بالآخرة ، وهذه الآي وما قبلها مرتبطان تمام الارتباط ، ولما كانت "ما" التي هي هنا بمعنى الذي فيها معنى الجزاء اتصلت الفاء بجوابها ، و **"يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ"** أى يوم أن لقي جيش رسول اللهε جيش قريش فوق أحد.

"فَبِإِذْنِ اللَّهِ" أى بتقدير الله وحسن تدبيره للصحابة ، فإنه سبحانه وتعالى كشف لهم الستار عن حقيقة المنافقين حتى قامت الحجة على كفرهم ونفاقهم قبل التقاء الجمعين ، ثم محص أهل الإيمان يوم التقى الجمعان فطهر من ارتكبوا خطايا مخالفة الأمر ، ومخالفة الشورى وغيرهما.

"وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ" أى ليعلم الله المؤمنين ، والمعنى ليظهرهم بما يجملهم به من اليقين الحق ، والصبر عند الشدائد ، والرضا بقدر الله تعالى ، وقد تقدم بيان معنى هذه الآية خصوصا فى بيان معنى "ليعلم الله" ، "وليعلم الذين نافقوا".

قوله تعالى : **"وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ"**(167).

أى وليعلم الله الذين نافقوا بما أظهروه من قلوبهم بعد أن أخفوه عن المؤمنين ، فصاروا معروفين لا يجهلهم مؤمن ، وتفصيل قوله تعالى : **"وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ"** . . الخ ، أن الذى أصابهم هو قتل سبعين سيدا من سادات الصحابة ، وحصول الهزيمة ومفارقة الرماة.

"وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ" ، وهؤلاء هم عبد الله بن عمر بن خرام أخو بنى سلمة ، وعبد الله أبو جابر بن عبد الله الأنصارى ، قيل لهم : تعالوا قاتلوا معنا أعداء الله وأعداء رسوله "أو ادفعوا" أى اتصلوا بنا لتحصل الكثرة المفزعة لقريش فتدفعوا عنا شرهم ، فخدعوا المسلمين بقولهم **"لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ"** ومعنى ذلك أنهم يريدون أن يرتدوا عن رسول اللهε فيظهرون ما ليس فى قلوبهم من الكفر بقولهم **"لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ"** أى أنه لا يقع قتال بينكم وهم معتقدون وقوع القتال حتما ، ورجع عبد الله بن أبى بن

([1]) سورة النمل : 88.

سلول وهو يقول أطاعهم وخالفنى ، يشير إلى أنه كان يريد أن يكون القتال فى المدينة وهو يعلم أن الأنصار فى الجاهلية كانوا يكرهون الغزو فيها فكيف يحبونه فى الإسلام ، وكان يقول هذا الرأى ليخالفه الصحابة فيتعلل بمخالفتهم كما فعل **"اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ"**.

"هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ" معنى هذه الآية أن عبد الله بن أبى بن سلول ومن معه عندما أظهروا الإيمان بقولهم **"لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ"** أى لو نعلم وقوع قتال بينكم وبينهم لاتبعناكم ، وهذا الكلام ظاهره يدل على حسن النية ولكنه كشف لنا حقيقة كفرهم وأنهم فى الحقيقة أعداء الله ورسوله والمؤمنين وفى قول المنافقين **"لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ"** لو كان على ظاهره لكان حجة على كفرهم لأن العدو قرب من المدينة جدا ، فكيف يظن ان جيشا عدده خمسة آلاف فارس بأحباشه ولوازمه يحضر من مكة للمدينة لا يريد قتالا هذا مستحيل ، وبقولهم هذا تحقق للصحابه كفرهم وأن كانوا لا يجهلون ذلك من قبل ، وإن كان المنافقون يقولون هذا القول بمعنى أنهم لا يعلمون أن هذا القتال قتال نافع يكون ذلك كفرا أيضا لأنهم كذبوا الله ورسوله.

وجائز أن يكون معنى قوله تعالى **"هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ"** أى أنهم أقرب إلى نصرة أهل الكفر من نصرتهم لأهل الإيمان.

وجائز أن تكون المعنى أنهم قربوا من الكفر فوقعوا فيه ويعدوا عن الإيمان ، وهنا إشارة لطيفة وهى أن الله تعالى لم يحكم بالكفر على من يقول لا إله إلا الله بلسانه وأن عقد قلبه على الكفر تعظيما لكلمة التوحيد فقال سبحانه وتعالى **"هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ"**ولم يقل هم الكفار يومئذ.

"يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ" هذه الآية خبر من الله تعالى عن المنافقين ليعلمنا ما لم نكن نعلم ، فأنه تعالى يعلم السر وأخفى ونحن لا نعلم إلا الجهر ، وفى هذه الآية حكم من الله تعالى عليهم بالكفر وتعليم من الله تعالى لنا فى أن نحتاط لأنفسنا ونتبين أحوال الخلق بحكمة حتى تنكشف لنا الحقيقة فنسلم من شرورهم وسوء نواياهم ، وذلك لأن أهل الإيمان يحكمون على الناس بما يشهدونه فى أنفسهم من حب الله سبحانه وتعالى ورسولهε ، ومن الصدق وكمال الإخلاص فى معاملة الله تعالى فيخدعهم أهل النفاق وهم بسلامة قلوبهم ينخدعون.

قالε : "المؤمن غر كريم يخدع . والمنافق خب لئيم لا يخدع" وما على المؤمن إذا سمع قولا إلا أن يتبينه بعقله أو بالبحث عنه بين الناس.

"وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ" والمعنى أن الله تعالى يعلم ما يخفونه عنا من النفاق والكفر وما يكتمونه من سوء النية علما فوق علمهم هم بما يكتمونه ، لأن الله يعلم المكتوم ويعلم سببه ويعلم نتائجه ، لأنه هو الذى قدر ذلك وأقامهم فيه وهم لا يعلمون شيئا منه إلا قصد أذية المسلمين من غير أن يضر المنافقين شئ.

قوله تعالى : **"الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"**(168).

هذه الآية بيان من الله لنا أنه سبحانه إذا منح العبد الهداية وفقه للقيام بعمل كل أنواع القربات ، وإذا أضل سبحانه العبد يسر له الوقوع فى كل أنواع الكبائر والخطايا والرزائل.

ودليل ذلك قوله تعالى فى هذه الآية خبرا عن عبد الله بن أبى بن سلول وأصحابه الذين ارتدوا إلى المدينة أنهم اعتذروا أولا بقولهم **"لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ"** ثم بعد أن وقع القتل فى الصحابة يوم أحد قاموا ليدخلوا الشك والريبة فى قلوب الصحابة من الأنصار ، وليست الثانية بأقل من الأولى ن فأن قولهم لإخوانهم من الأنصار **"لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا"** فتنة كبرى توقع فى الضلال . لولا عناية الله بأهل الإيمان من الأنصار لوقعوا فى الشك والريب المؤديين إلى الشرك ولكن الله بعباده رءوف رحيم ، وكم لأهل النفاق من خبث وكيد أعاذنا الله منهم.

"قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ" قهر الله بتلك الآية أهل النفاق قهرا قصم ظهورهم لقيام الحجة البالغة ، قال سبحانه وتعالى لحبيبه محمدε قل لهؤلاء المنافقين الذين يفتحون أبواب الفتن على أهل الإيمان بى "ادرءوا عن أنفسكم الموت" أى ادفعوه عنكم إذا نزل بكم لا تمنعه حصون ولا قلاع ، ولكنها الأعمار إذا انتهت نزل الموت لا يدفعه دافع ولو اجتمعت الأنس والجن والملائكة ،والذين هنا بدل من قوله "ليعلم المنافقين" فهى فى محل نصب.

وجائز أن تكون فى محل رفع بدل من الواو فى يكتمون **"إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"** يعنى بذلك جل جلاله أن يقول للمنافقين أن كنتم صادقين في قولكم لإخوانكم إذا كانوا أقاموا معكم فى المدينة لم يقتلوا بسيوف أبى سفيان ومن معه من قريش ، فادفعوا عن أنفسكم الموت إذا حل بكم لتثبتوا صدقكم فى خبركم هذا ، وهذا مستحيل عقلا ، إذن فالقوم كاذبون ضالون.

قوله تعالى : **"وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ"**(169).

تقدم لك ما شنع الله به على المنافقين وأدب به من خالفوا مواقفهم ، وظهر لك ما بينه الله من قول المنافقين "لو أطاعونا ما قتلوا" لنشرهم بين المؤمنين الشبهات المضلة بسبب قتلى أحد حتى تمنى كثير من الصحابة أن يخبرهم الله عن قتلاهم يوم أحد ، فأنزل الله تعالى هذه الآية طمأنينة لقلوب المؤمنين ولتقوى رغبتهم فى الجهاد فرحا بما يناله الشهيد ليقصم الله ظهور المنافقين قال سبحانه : **"وَلَا تَحْسَبَنَّ"** أى لا تظن الذين قتلوا يوم بدر وأحد فى سبيل الله أى فى إعلاء كلمته ونصرة دينه أمواتا كالذين يموتون فى غير الجهاد ويستمر موتهم إلى يوم القيامة حتى ينفخ فى الصور.

"بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ" بل هم أحياء عند ربهم ، ولما كانت أنواع الحياة تتفاوت كما قررنا فيما سبق ، فإن حياة الجماد تخالف حياة النبات ، وحياة النبات تخالف حياة الحيوان ، وحياة الحيوان تخالف حياة الإنسان ، وحياة الإنسان فى الكون تغاير حياة من استشهد فى سبيل الله ، فإنه بقتله فى سبيل الله فقد الحياة الحيوانية فأعطاه الله تعالى حياة روحانية عنده سبحانه يتنعم بلوازم تلك الحياة الروحانية عند ربه ،مما يرزقه سبحانه به من الأنواع التى بها سعادة وبهجة وملاذ وأنس الاحياء عند ربهم ، فيرزقهم الله تعالى من فضله ما لا يعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، والواجب علينا السمع والطاعة لله ورسوله تصديقا لخبره وإيمانا به سبحانه وتعالى ، فهم أحياء عند ربهم حياة فوق أن تتصورها عقول من هم عند أنفسهم أو عند الكون ، وما تقول فى قوم فروا إلى الله رغبة فى الوصول إليه والقوا بأنفسهم على ظبي السيوف وتحت سنابك الخيل ، حتى بذلوا آخر نفس من أنفاسهم شوقا إلى نيل رضاه ، فصدقوا فيما عاهدوا الله عليه ووفوا فى بيعهم ، فقبل سبحانه منهم وأعطاهم خيرا مما تقربوا به إليه . . وهم أحياء يرزقون كما أخبرنا سبحانه ، وليس للعقل بعد خبر الله تعالى أن يبحث فى هذا الفضل العظيم ، بل الواجب عليه أن يسارع إلى ميدان الجهاد فيلقى بنفسه كما ألقوا بأنفسهم ولديها ينكشف الحجاب عما تفضل به العلى الوهاب ، فأن العقل يحكم أن أرقى الحيوانات لا تدرك ملاذ الحياة الإنسانية وهى المشهودة المسموعة الملموسة لها ، فكيف يدرك الإنسان حياة من استشهد فى سبيل الله فأحياه الله ورزقه وفرحه قال تعالى **"فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا"**[1].

قوله تعالى : **"فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"**(170).

الفرح هو السرور الذى تدعو إليه سوابغ النعم والفوز بالأمل ، والمعنى أنهم فى سرور بما آتاهم الله من فضله بقتلهم فى سبيله سبحانه ن فأن الله أحياهم الحياة العالية وتفضل عليهم بخير رزقه الجامع لملاذ الروح والنفس والعقل والحس بحسب حياتهم التى أكرمهم الله بها ، فكان ما آتاهم الله فى تلك الحياة ، من الرزق موجبا للفرح والمسرة ، وكان الله تعالى يقول . يا عبادي الذين بذلوا أرواحهم وحياتهم فى سبيلي وإعلاء لكلمتي ونصرة لديني ، لأمنحكم حياة روحانية عندي في دار قدسي ولا رزقنكم بما به بقاء تلك الحياة أبديا ونيل مسراتها وملاذها وسعادتها.

"وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ" هذه الآية خبر من الله لنا عن شهداء بدر وأحد والسبب خاص والحكم عام فهو خبر عن جميع الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم ن والمعنى أن الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون يطلبون الفرح والمسرة من الله لتشمل : **"الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ"** من إخوانهم الذين تركوهم على ما كانوا عليه من التسليم الكامل لرسول اللهع ومن المسارعة إلى الجهاد إعلاء لكلمة الله ، وتلك المسرة والفرح باستبشارهم بهم لتحققهم أن إخوانهم لا يزالون محافظين على ما كانوا عليه وهم فى الدار الدنيا ، وبتلك الحالة يفوزون بما فاز به الشهداء من الحياة الروحانية ورزق الله تعالى الذى منه الفوز بفضل الله تعالى وبرضوانه الأكبر ، وكمال النعمة بدوام الخيرات أبدية إلى ما لا نهاية . ومعنى "لم يلحقوا بهم" أى لم يقتلوا فى سبيل الله فيفوزوا بما فاز به من قتلوا قبلهم والفوز متحقق ولكن لا ينال إلا بالشهادة.

"أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون" أن وما دخلت عليه مؤولة بمصدر مجرور بالياء المحذوفة بدل من الذين فى قوله "بالذين لم يلحقوا بهم" بأن لا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، ونفى عنهم سبحانه وتعالى الخوف من لقاء الله تعالى الذى يجعل قلوب أهل الإيمان فى فزع من الحساب لتحققهم بالتقصير عن القيام له سبحانه تعظيما وإجلالا له تعالى ، وهذا الخوف لا يفارق قلوب العارفين بالله خصوصا عند الموت ، إلا إذا طمأن الله قلوبهم بالبشائر ، قال الله تعالى : **"لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ"**[2] ونفى عنهم الحزن على من يفارقونهم ،

([1]) سورة النساء : 65.

([2]) سورة يونس : 64.

وما يفارقون من أهل وولد وآثار وهذا الحزن أيضا لا يفارق القلوب إلا بما يتفضل الله به على المؤمن عند موته بالبشائر منحنا الله هذا الفضل العظيم بإحسانه.

قوله تعالى : **"يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ"**(171).

يطلبون المسرة والفرح بالنعمة من الله تعالى كما طلبوا منه المسرة بالدين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، والمسرة والفرح بنعمة تتوالى عليهم من الله تعالى.

"وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ" لك فى الهمزة من "أن" الفتح بتقدير عطفها على قوله بنعمة من الله والتقدير وبأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ، ولك كسر الهمزة وتكون الجملة مستأنفه ، والمعنى أن الله تعالى يحفظ أجر المؤمنين فيوفيهم به يوم القيامة وافيا وافرا ، وهذه الآية لا تدل على أن العبد يخلق أفعال نفسه بدليل قوله تعالى "أجر" فأن لفظة أجر يتقتضى إثبات عمل للعبد ، والحقيقة أن الفاعل المختار هو الله تعالى ليبين وفاءه بوعده جل جلاله ، فالموفق للعمل هو الله والهادي إلى الحق هو الله.

"الْمُؤْمِنِينَ" أى الذين صدقوا الله ورسولهε ، ولما كان مقام الإيمان أقل من الإحسان والإيقان ، والله تعالى أخبر بأنه لا يضيع أجر المؤمنين ، لأن المؤمنين لم يشهدوا مشاهد التوحيد الكاملة كما شهدها أهل مقام الإحسان والإيقان الذين كاشفهم الله بغوامض التوحيد حتى تحققوا بعلم "لا إله إلا الله" علما شهدوا به أن لا خالق إلا الله كما أنه لا إله إلا الله ، فأن كلمة الإخلاص كنز لو فك لأشرقت منه تسع وتسعون جوهرة ، نور كل جوهرة منها يستر الكون عن أعين العارفين.

قوله تعالى : **"الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ"**(172).

بعد أن انتهت غزوة أحد إلى انصراف أبى سفيان إلى الروحاء تناجى أبو سفيان ون معه فقال أنا قتلنا أكثرهم فما لنا لا نستأصلهم أرجعوا بنا وهموا بالرجوع ، فبلغ ذلك رسول اللهε فأراد أن يرهب الكفار ويريهم من نفسه ومن أصحابه قوة ، فندب أصحابه إلى الخروج فى طلب أبى سفيان وقال لا أريد أن يخرج معى الآن إلا من كان معى فى القتال ، فخرج عليه الصلاة والسلام مع قوم من أصحابه قيل كانوا سبعين رجلا حتى بلغوا حمراء الأسد وهو من المدينة على ثمانية أميال ، فألقى الله الرعب فى قلوب المشركين فانهزموا ، وروى أن الذين استجابوا لرسول الله كانوا مثخنين بالجراح يحمل بعضهم بعضا تلبية لرسول اللهε عندما قال إلى عباد الله بعد فرارهم ، ولما رجع أبو سفيان لقى بعض المسافرين إلى المدينة فقال إذا لقيت محمداε وقومه فبلغة أنا راجعون إليهم وأنا جمعنا العرب لقتالهم ، فلما أن وصلوا إلى رسول اللهε نشروا هذا الكلام وأسمعوه رسول اللهε فقال ومعه أصحابه صلوات الله وسلامه عليه وعليهم "حسبنا الله ونعم الوكيل" كما سيأتى ، وقد أمر رسول اللهε بالخروج إلى جيش قريش ، وأمر أن لا يصحبه إلا من كان معه يوم أحد أى الذين حضروا الملحمة ن وفى ذلك سر غريب وحكمة عجيبة – أما السر فى ذلك فليوقع فى قلوب الكفار الرعب والفزع منهم لاعتقادهم أنهم لا يزالون أقوياء لم يصبهم ضعف ولا وهن مما ألم بهم من القتل والجراح ، وليعلموا أن أصحابه فى المدينة لم يخرج منهم أحد ولو خرجوا لملئوا السهل والوعر , الحكمة أن رسول اللهε أحب ان يخص من كانوا معه فى أحد بالفوز بمحبة الله تعالى لهم حتى يرفعهم الله تعالى إلى مقام الأعليين.

أقامε بحمراء الأسد ثلاثة أيام الاثنين والثلاث والأربعاء ثم أنتقلε إلى المدينة – .

"لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ".

هذا ثناء من الله تعالى عليهم رضى الله عنهم وأرضاهم ، والإحسان بينته لك فيما تقدم ، وهنا أزيدك وضوحا:-

تعلم أن مقام الإحسان هو مشهد التوحيد الأكمل الذى يجعل من جمله الله به لا يرى لنفسه وجودا إلا بالله ولا عملا إلا بالله ، حتى يبلغ به هذا المقام أن يكون بحيث كأنه يرى الله تعالى وهو أعلى مقام الإحسان ، أو يتحقق حق اليقين بأن الله يراه وهو وسط مقام الإحسان . "للذين أحسنوا منهم" بيان أن هذا المقام فوق كل مقام ، بل لا تدركه همم الرجال العالية بعدهم لأنهم ينصرون الله تعالى ببذل الأنفس والأموال تحت راية رسول اللهε ، ولأنهم يسمعون ويطيعون لرسول اللهε مباشرة حتى كأنهم يسمعون من الله تعالى : وأكمل مجاهد بعدهم لا يفوز بتلك الخصوصية مطلقا ، ولو أن مجاهدا جاهد ألف سنة لا ينزل من على ظهر جواده فى سبيل الله لا يبلغ معشار ما بلغوه رضوان الله عنهم خصوصا فى تلك الغزوة ، وهم أفضل خلق الله جميعا بعد الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام "واتقوا"

بينت لك فيما سبق أنواع التقوى – وهنا أعيدها للمناسبة – وهو أن المسلم يتقى النار : - والمؤمن يتقى اليوم : - والمحسن يتقى الرب : - والموقن يتقى الله.

والتقوى هنا هى تقوى الرب ، وهى خوف مقامه جل جلاله خوفا يجعله كأنه بلغ المثول أمام ربه فلا يسير به وطر إلا إليه ، ولا يقع به بصر إلا عليه ، ولا يشهد فاعلا مختارا فى الوجود إلا هو سبحانه وتعالى – وهنا نمسك القلم عن أن نكشف غيبا من غيوب تقوى الرب أو تقوى الله تعالى ، وسنلمع إلى رذاذ منه فى المضنون إن شاء الله تعالى.

"**أَجْرٌ عَظِيمٌ**" الأجر من الله تعالى فضل فوق مقادير العقول فإذا أخبرنا الله تعالى أن لهم أجرا عظيما وقفت العبارة والإشارة عن بيانه ، اللهم إلا أن نقول أنه عطاء من الله موصوف بما ورد عنه أنه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قوله تعالى : "**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**"(173).

بينت لك بعد بيان الله لك الثناء على من أمرهم رسول اللهε بالذهاب معه لإرهاب أبى سفيان ومن معه من كفار قريش ، وتعيينهε من يذهبون معه كما بينت لك قبل وفى هذه الآية الشريفة ، يكشف الله لنا الحجاب عن كمال يقين أصحاب رسول اللهε من أنهم مع ما هم فيه من الجروح المثخنة والأحزان على من قتل منهم لم تشغلهم تلك الكوارث – التى لا تقوى عليها شوامخ الجبال – عن تلبيه الله ورسوله ، والالقاء بأنفسهم فى فادح المصائب ، ومع هذا فإن أبا سفيان أرسل من يثبطون رسول اللهε وأصحابه بما أعده لهم من الخيل والرجال ، فكان ما يثبط همم فحول الرجال مثيرا لهممهم ومؤيدا لكمال توحيدهم واعتقادهم أن الفاعل المختار هو الله ، وأن القتل فى سبيله هو الفوز بالسعادتين سعادة البرزخ وسعادة الآخرة ، وكل من واجه رسول اللهε أو سمع كلامه الشريف إنكشفت له حقائق الدنيا وأشرقت عليه أنوار ما عند الله مما أعده لأحبابه وأوليائه فتضاءلت الدنيا فى أعينهم ، واضمحلت حياتهم الكونية فى نظرهم ، وفروا إلى الله سراعا تلبية لله ولرسوله وأقاموا الحجة بالعمل والقول ، أما العمل فإقدامهم على السفر مع رسول اللهε ، وأما القول فقولهم "حسبنا الله ونعم الوكيل".

وهى الكلمة التى قالوها وجدا لا تواجدا ، أو كشف عيان لا علم يقين فقط ، فأن العلم صورة على جوهر النفس قيد يستتر عند المصائب الفادحة حتى يفوز المؤمن بحق اليقين الذى هو عيان بعد بيان وفى قولهم "حسبنا الله ونعم الوكيل" إشارة إلى قولهε فيما ورد بسند أهل البيت ، فى حديث قدسي هو : "من طلبني وجدني ومن وجدني عرفني ومن عرفني عشقني ومن عشقني قتلته ومن قتلته كنت دينه ومن كنت دينه لا فرق بيني وبينه".

وكل مؤمن كالم الإيمان يسارع أن يقتل فى محبة الله وفى سبيله ، فإذا ظفر بواحدة منها كانت أحب إليه مما يتمناه أهل العقول التى لا تعقل عن الله تعالى.

ومعنى "حسبنا" أى كافينا أو يكفينا ومعنى ذلك أنهم يريدون أن يفوزوا بطلبتهم العظمى بقتلهم فى سبيل الله ، وهى الرضوان الأكبر عند القوم ، وعند قوم آخرين أعلى من ذلك مما لا يعبر عن ولا يشار إليه.

"ونعم الوكيل" والوكيل هو الذى يقوم للإنسان بما لا يقوى عليه من الضروريات والكماليات ، والإنسان لا بد له من معين يعنيه إذ لا يستقل بحوائجه الضرورية فله وكلاء يقومون بحاجاته من مأكل ومشرب ومفرش ومبنى وغير ذلك ن والله تعالى هو نعم الوكيل الذى يعين العبد بفضله فى كل ذلك ، فهو الذى أوجدنا من العدم وأمدنا بما به طابت لنا الحياة من أرض وأجواء وماء وهواء ونباتات وحيوانات ومعادن وكواكب ثابتات وسيارات وغير ذلك من إحسانه سبحانه ،ولما كان هذا العمل والحال والقول منهم وجدا لا تواجدا كان الله تعالى أقرب إليهم من أنفسهم.

قوله تعالى : "**فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**"(174).

هذه الآية الشريفة حجة على سرعة إجابة الله لأحبابه وإغاثته لأوليائه ، وقد أخبرنا الله تعالى أنه يستجيب للذين آمنوا وأن استجابتنا له هي بتوفيقه ومعونته ، واستجابته لنا جل جلاله هى بإحسانه وفضله قال سبحانه "**وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ**"[1] . والمعنى –يستجيب الله للذين آمنوا فالذين فى محل نصب على نزع الخافض بدليل قوله تعالى "ويزيدهم" فالفاعل فى الحالتين هو الله فهو سبحانه يستجيب لنا

([1]) سورة الشورى : 26.

ونحن نستجيب له بتوفيقه وعنايته واستجابة الله لهم هى انصرافهم عن حمراء الأسد ورجوعهم إلى المدينة وهو انقلابهم إليها.

"فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ" النعمة إذا أسندت إلى اسم الذات الأعظم كانت خاصة بالنعم الروحانية ،وإذا أسندت إلى اسم الرب كانت نعم الدنيا والآخرة ، فمعنى بنعمة من الله أى بكمال اليقين الحق والفوز بمحبة الله ، فالنعمة هنا ه نيلهم كمال اليقين ومحبة الله تعالى لهم بدليل قوله سبحانه : **"فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ"** وهؤلاء رضى الله عنهم قد اتبعوه فى أخطر الأوقات وأصعبها وكيف لا والقوم كانوا مثخنين بالجراح ودعاهم رسول اللهε إلى لقاء العدو فلبوا وهذا هو الاتباع حقا عند أهل المعرفة بالله ، وإتباع رسول اللهε فى هذا الموطن يتفضل الله به على أهله بمحبته وهو أكمل مقام يتفضل به على رأسه والصديقين من خلقه ، وقد قامت الحجة بالآية وقد بينت لك فيما سبق ان نعمة الله علينا هو محمدε بدليل قوله تعالى "واذكروا نعمة الله عليكم" يعنى محمداε بدليل قوله تعالى : **"إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ"** فإذا أسندت النعمة إلى اسم الذات كانت خاصة بالعطايا الروحانية كما بينت لك.

"وَفَضْلٍ" الفضل هنا هو إحسان الله على العبد بعافية فى بدنه ومزيد فى ماله وحفظ له من عدون ، والصحابة فى تلك الغزوة الأخيرة انصرفوا من حمراء الأسد بنيل اليقين الحق ومحبة الله تعالى وهما نعمة الله فى هذا الموطن ، وبمال وغير اكتسبوه بالتجارة فى حمراء الأسد ، وبما فيه رحمة فى أبدانهم من جراحهم لجودة الهواء بها ، وهزيمة أبى سفيان ومن معه ، وهو فضل الله لهم ، حدد الله لنا تلك المواهب.

فأنا الآن أحوج ما نكون إليها خصوصا وقد تفرقت كلمة المسلمين وحرج بعضهم على بعض وتسلط عليهم العدو الظالم الغشوم ، أهلك الله أعداء المسلمين.

"لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ" السوء هو ما يلم ببدن أو أهل أو أرحام أو مال من المضار الفادحة ، أو ما يشوب إيمان المؤمنين أو عقائدهم ن سوء الظن أو الشك أو الريب الذى كان ينتظر فى مثل تلك المواقف وهذه منن الله تعالى علينا حيث حفظنا من أن يكر علينا أبو سفيان ومن معه ، ومن أن يحصل لنا ضرر فى جوارحنا أو فساد بسبب هواء حمراء الأسد ، أو ألم بقلوبنا ما يزعجها بل حفظنا الله من جميع ذلك ومن علينا بسلامة أبداننا وفرة أموالنا وحفظ إيماننا ، كما أخبرنا سبحانه بقوله : **"فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ"** ، **"وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ"** أى واتبعوا ما أنالهم رضوان الله وهو نتيجة السمع والطاعة ، وكيف لا واتباع رسول اللهε به الفوز بمحبة الله للمتبعين وليس فوق محبة الله تعالى مقام تشرف إليه أرواح العارفين ، قال تعالى : **"قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"**[1].

"وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ" خبر من الله تعالى أنه منفرد بملك كل شئ وأنه غنى عن كل شئ ، فهو يتفضل بما شاء على من شاء بغير حساب ، وفضل الله تعالى كله عظيم لأن فضل الله كما بينت لك متعلق بجمال الأرواح وفوزها بطلبتها العظمى ، وكل ما تراه فى العالم من أعلى عليين إلى أسفل سافلين مما يختص الأرواح فى جمالها الروحاني كالعلم والشوق والعشق والهيام والوله والشهود والفناء والجمع والفرق وغيره فل الله تعالى ، وأما ما يتعلق بالأشباح من الجنة فما دونها فهو فضل الرب جل جلاله فلا تقف بهم الهمة دون الوصول إلى حضرته العلية.

قوله تعالى : **"إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"**(175).

معنى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يبين لأصحاب رسول اللهε أن الذين أشاعوا بينهم خبر اجتماع قريش وعزمهم على الرجوع لحرب رسول اللهε بعد هزيمتهم فى أحد إنما تلك الإشاعة من الشيطان ليخوفكم أولياءه، وليس للشيطان قوة بعد تأييد الله ونصرة لرسولهε ولأصحابه ، وفى هذه الآية الشريفة طمأنينة لقلوب الصحابة رضى الله عنهم ومزيد فى يقينهم.

"يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ" أى يخوفكم أولياءه وهو تعبير فصيح فإن الشيطان لا يخوف أولياءه ولكنه يخوف بأوليائه.

"فَلَا تَخَافُوهُمْ" ينهانا الله تعالى عن الخوف من أهل الكفر بالله حتى ولو اجتمعوا فكيف نخافهم وهم قد ملأ الله قلوبهم جزعا وفزعا والتجئوا إلى الكيد والخداع ، وهل بعد تأييد الله ونصرته سبحانه لأحبابه يخاف المؤمن غير الله تعالى.

"وَخَافُونِ" يأمرنا ربنا فى هذه الآية بالمحافظة على أوامره والمسارعة الى القيام بمحابه ومراضية مستمدين منه سبحانه عنايته وتأييده وتوفيقه لنا حتى لا نقع فيما يغضبه فنستحق العقوبة بسبب معصيته.

([1]) سورة آل عمران : 31.

"وَخَافُونِ" أى اتقوا أن تقعوا فيما يخالف أمري لأنكم أن سمعتم وأطعتم كنتم فى حصن الأمن ، قال تعالى : **" أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ"**[1] ومعنى الخوف منه المسارعة إلى القيام بما يحبه ويرضاه.

"إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" أى أن تحققتم بالإيمان بى وبنبي عليه الصلاة والسلام ، وعلمتهم أى أنا النافع الضار وأنى وعدت أهل الإيمان النصرة والتمكين فى الأرض بالحق فى الدنيا والنعيم المقيم يوم القيامة ، ومن ثبت لديه حق اليقين لا يخاف غيرى ولا يخشى الخلق ولو اجتمعوا له.

قوله تعالى : **"وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ"**(176).

هذه الآية الشريفة متصلة بالآيات السابقة قبلها من قوله تعالى **"وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ"** إلى أخر الآية- وكل هذه الآيات بيان من الله تعالى للمؤمنين تطمئن به قلوبهم وتقوى به عزائمهم على الجهاد فى سبيل الله تعالى توكلا على الله بما أعده الله للمجاهدين فى سبيله من النصرة والتأييد والفوز بالتمكين فى الأرض فى الدنيا وبالنعيم المقيم يوم القيامة – ومعنى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى ينهى نبيهε ‘ن أن يحزن بسبب مسارعة المنافقين إلى الكفر ،وردة المستضعفين من المسلمين فى مكة وبمسارعة الكفار قريش إلى محاربة رسول اللهε فإن عملهم هذا ومسارعتهم إلى الكفر دليل على أن المرتدين عن الإيمان بالنفاق أو بإعلان الكفر أو بمحاربة النبيε محكوم عليهم بالذل والخزي فى الدنيا وشديد العقاب يوم القيامة ، ولو اجتمع على حربهε كل من فى أقطار الأرض لن يضروه شيئا ، وفى تلك حياة لأهل الإيمان والتوكل بالكلية على الله تعالى فيسارعون إلى الفوز بالشهادة.

"إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا" كمال التأييد للمجاهدين كما قال تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ"** ، وقوله تعالى : **"مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ"**.

"يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ" أى سبقت إرادة الله لهم فى الأزل بحرمانهم من الفوز بنعيم الآخرة فلا يوفقهم للإيمان ولا للسمع والطاعة لرسول اللهε.

"وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" أى وقد الله تعالى عليهم وقوعهم فى العذاب العظيم ، ومعنى عظيم أى أنه لا ينقطع أبدا وإنه كلما يتجدد وقت يزيد ويقوى.

قوله تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"**(177).

هذه الآية مرتبطة بالآيات قبلها ، ومعناها أن الله تعالى يخبرنا عن اليهود الذين بين لهم فى كتابهم التوراة نبوة محمدε وصفته وبعد ذلك كفروا به ، وعن المنافقين الذين اعتنقوا الإسلام بألسنتهم فلم تؤمن قلوبهم أنهم باشترائهم الكفر بالإيمان بعد أن ثبت لدى اليهود حقيقة بنوتهε وبعد أن أظهر المنافقون الإيمان به عليه الصلاة والسلام لن يضروا الله بعلمهم هذا شيئا ن لأن الله تعالى هو الضار النافع وأن الخلق أجمعين لو اجتمعوا على قلب أكفر كافر ما ضر ذلك الله شيئا ، ولو اجتمعوا على قلب نبى ما نقع الله شيئا ، وإنما الضرر واقع على من كفر بالله ، والنفع واصل إلى من آمن بالله وأخلص له سبحانه.

والمعنى أنهم بعد ثبوت دلائل الإيمان وقيام الحجة على صدق رسول الله محمدε لديهم رجعوا إلى الكفر فباعوا الإيمان واشتروا الكفر عنادا من أنفسهم ، لأن أنفسهم نزاعة للشر مطبوعة على الخبث والجحود ، وهذا بيان من الله تعالى لأهل الإيمان لتسكن نفوسهم إليه جل جلاله وليسارعوا إلى قهر أهل الباطل لإعلاء الحق وأهله ، ولا يكون ذلك إلا بقهر تلك النفوس العنادية بالقتل والرق إعلاء لكلمة الله تعالى.

ومتى عز أهل الحق ذل أهل الباطل ، وبأذلالهم ينال الخلائق مسرات الحياة فى رغد العيش وهناءه الحال وسعادة المستقبل ، ومتى ظهر أهل الكفر بالله أعاذنا الله تعالى انتشر الهرج والمرج والفساد والضرر أذل الله أعداءنا ومنحنا العزة التى بشر الله بها أهل الإيمان المخلصين.

قوله تعالى : **"وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ"**(178).

قرأ بعض القراء هذه الآية "يحسبن" بالياء التحتية ، وعليها يكون الذين فى محل رفع فاعل و **"أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ"** حلت محل المفعولين وقرأ بعضهم "تحسبن" بالتاء الفوقية وتكون الذين فى محل نصب مفعول أول والجملة بعدها مفعولا ثانيا.

([1]) سورة الأنعام : 82.

و **"أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ"** أى إنما نؤخر عنهم العقوبة ونطيل لهم زمان الوسعة والرخاء والصبر عليهم ، لأن الإملاء حلم الله عليهم وصبره عن مباغتهم بفادح العقوبة مع حرمانهم من القابل عن الله تعالى حتى يحسبوا أنهم على الحق ، وأن كفرهم بالله ورسولهε هو الذى نالوا به عاجل الحياة الدنيا ، فنفى الله تعالى هذا الحسبان عنهم وبين ما قدره عليهم من ان ذلك الأرجاء للعقوبة ونيل ما يفرحهم كما قال تعالى : **"حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ"**[1] .

إنما هو شر لا خير وهو الاستدراج الذى أخبرنا الله عند بقوله **"سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ"**[2] وهو الحقيقة فى نفس الأمر لأنه مبلغ علمهم أن هذا خير فى نظرهم ، ولكن هذا العلم هو الجهل لأنهم علمو غير الحقيقة فى نفسها وما فى قوله تعالى "إنما" مصدرية والجملة بعدها مؤولة بمصدر كما بينت لك.

وجائز أن تكون موصولة ويكون العائد محذوفا تقديره نمليه لهم . وهذه الآية برهان على أن الله تعالى هو الضار النافع وهو الهادى المضل لا يسأل عما يفعل.

"إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ" . "إنما" هنا للحصر "ونملى لهم" أى نؤجل عقوبتهم ، واللام فى قوله ليزدادوا لام العاقبة أى لتكثر أوزارهم وخطاياهم بالوقوع فى أنواع من الكفر بعد الكفر بالله ورسولهε ، كمحاربة الله ورسوله والصد عن دين الله تعالى وتثبيط المؤمنين عن الجهاد والدعوة الى الكفر كل تلك الكبائر متصلة بالكفر بالله والاستدراج أعاذنا الله منه قالε "أن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته" "ولهم عذاب مهين" هذه الآية برهان على أن الأمر مقدر أزلا.

"لهم" أى فى سابق القدر و "عذاب مهين" أى عذاب يجمع الله به عليهم شديد الآلام الجسمانية والآلام النفسية والقلبية من الأزل ، والخزى والمهانة والندم والهم والحزن والأنواع التى تضارع آلام الحطمة للقوى التى لا تتألم بسعير النار . قال تعالى : **"إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ"**[3] ، ورؤية تلك الأعمال فوق الآلام النارية وهو ما يستحقونه عدلا بسبب كفرهم ووقوعهم فى الكبائر التى كل واحد منها يقع فيها مرتكبوها ن وقد تقدم ذكر تلك الأعمال التى أملى الله لهم حتى وقعوا فيها وهى محاربة رسول اللهε وتثبيط المؤمنين عن الجهاد . . الخ . الخ.

قوله تعالى : **"مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ"**(179).

وهذه الآية الشريفة متعلقة بالآيات السابقة فى غزوة أحد ، ولما كانت غزوة أحد حدثت فيها أحداث فادحة من القتل والجراح والهزيمة ودعوة رسول اللهε الصحابة إلى الهجوم على قريش بعد أن أصابهم ما أصابهم ، ثم دعوة الصحابة إلى غزوة بدر الصغرى ، ليعاد أبى سفيان ، أنزل الله تلك الآية ليسر المؤمنين بحكمة وقوع تلك المصائب ، فقال سبحانه : **"مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ"** ، أى ليتركهم ويدعهم من غير أن تنكشف لهم ضمائر المنافقين الذين يظهرون الإيمان ، ويخفون الكفر ، ويتربصون بالمؤمنين الدوائر ، والمؤمنون يثقون بهم ويعتبرونهم أخوانا حتى قدر الله تعالى كشف الستر عن أعدائه المنافقين فى غزوة أحد ، وبين ذلك بقوله تعالى : **"حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ"** أى حتى يظهر للصحابة ما عليه ضمائر المنافقين ،وهو بيان جلى مؤيد بالحجة العملية التى تجعل الصحابة لا يخدعهم نفاق أهل الكفر بالله الذين يظهرون الإيمان ، ويخفون الكفر بعد أن كشف الله الستر عنهم.

"وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ" أى أن الله سبحانه وتعالى ستار يستر عيوب الخلق حتى يكشفها سبحانه وتعالى لأوليائه بعمل المنافقين ، والغيب غيبان : غيب الأقدار ، وهذا الغيب لم يطلع الله عليه أحدا على وجهه إلا ما يظهره الله تعالى على ألسنة المتوسمين ، أو ما تطمئن إليه قلبو أهل الإخلاص فيشيرون إليه أو يعلم الله به رسله الكرام عليهم السلام وورثتهم مما تدعو إليه ضرورة حفظ الدين ، أو حفظ المسلمين من كيد أعداء الله ، ويكون ذلك بالنسبة إلى الرسل معجزة ، وإلى أولياء الله كرامة.

([1]) سورة الأنعام : 44.

(2) سورة الأعراف : 182.

([3]) سورة البقرة : 166.

ومعلوم أن الرسل متعبدون بإظهار المعجزة ،والأولياء متعبدون بإخفاء الكرامة ، إلا فى مثل تلك الضرورات الفادحة ، كما فعل عمر رضى الله عنه حين قال : [يا سارية الجبل]. وكما فعل على عليه السلام عند ما سأله السائل وهو على المنبر ، من أبى ؟ فصرح له وكما فعل رسول اللهε حين قابله السبع ، فقال له : "أنى رسول الله" ، فبصبص وأنصرف ، وتلك الكرامات فضل من الله على أفراد أمة محمد لا ينكرها إلا من حرمها.

والغيب الثانى هو غيب الجمال والجلال والبهاء والنور والضياء والكمال ، وهى غيوب أطلع الله عليها من اجتباهم من أهل الإيمان فهيمهم عند مطالعتها ، وحيرهم فيما أشهدهم من كماله العلى جل جلاله ، ظهر لك أن غيب الأفراد لم يطلع الله عليه العامة الذين لم يشهدوا أنوار التوحيد ، ولم يتذوقوا علوم اليقين ، قال تعالى : **"فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ"**[1] وقال تعالى مخبرا عن حبيبه عليه الصلاة والسلام : **"وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ"**[2].

وفى قوله تعالى : **"وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ"** أى غيب الأقدار لأنه سبحانه وتعالى أطلع أصحاب نبيه على غيب أسمائه وصفاته وآياته ، حتى بلغوا مقام اليقين الحق.

"وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ" .

معنى الآية : أن الله يختص بعض رسله فيقيمهم لتبليغ الناس عنه ما به نيل محابة ومراضية سبحانه ، ويقيم بعضهم للتبليغ وقهر أعدائه بالجهاد لمحو الجبابرة الطغاة المنازعين للربوبية حتى يمحو الظلم والتظالم والكفر والجحود ، فينتشر الإسلام ويعم النور ، وبسبب الجهاد يمحص الله أهل الإيمان به ويظهر أهل النفاق والكفر لأوليائه المؤمنين ، وهذه الآية متصلة أيضا بالآيات السابقة فى غزوة أحد إظهارا لحكمة الله فيها أصاب به الصحابة رضوان الله عنهم أجمعين يوم أحد ، فإن أحداث أحد اتخذها أهل النفاق وأهل الكفر بالله وسيلة لفتح أبواب الفتن المضلة بين المؤمنين ، والله تفضل فثبت قلوبهم وقوى إيمانهم بما أنزله من تلك الآيات السابقة.

"فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ" هذا أمر من الله تعالى جائز أن يكون لأهل الإيمان ، ويكون المراد منه محو ما اعتورهم من فتن المنافقين والكفار ، التى فتحوها بسبب أحداث أحد ، ويكون المراد من الإيمان طمأنينة القلوب ، لأن الإيمان شئ ، وطمأنينة القلب شئ آخر ، كما قال الخليل عليه السلام : "بلى ولكن ليطمئن قلبى" أى أنا مؤمن ولكني أرجو البيان كل البيان ليطمئن قلبى ، والله يقول : "فآمنوا بالله ورسله" بعد أن اطمأنت قلوبهم بتلك الآيات التى كشف الله لهم فيها الحكمة فى أحداث تلك البلايا ، وفى قوله تعالى "ورسله" بيان لنا أن نؤمن بكل رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم إيمان موقف ، الله أرسلهم من عنده لتبليغ الخلق عنه ما يحبه منهم وهذا الإيمان لا يكمل إيمان مسلم إلا به ، ولا يقتضى أن تتبعهم فيما أنزل عليهم بعد أن بين الله لناما بينه فى القرآن ،وبين لنا رسول اللهε فى السنة ، اللهم إلا ما يتعلق بمكارم الأخلاق وفضائل الأعمال التى ليست واجبة ولا مرغبا فيها ن وقد بينت لك فى كتاب "وسائل إظهار الحق" أن الله تعالى أرسل الرسل فى كل زمان ، ليجدد للناس ما أهلهم لتلقيه عنه سبحانه ، حتى أرسل خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام فأكمل لنا والحمد لله أمر ديننا ، وأتم علينا نعمته ، فنسخ بالقرآن المجيد ما نسخ مما أنزله على الأمم السابقة فكان القرآن هو كتاب الله الجامع لكل ما يجب لله على الناس ، وبيان ما وعد به من آمن به سبحانه وبرسله ووعيد من جحد وخالف.

وجائز أن يكون قوله تعالى : "فآمنوا بالله ورسله" لغير أهل الإيمان ، لأن قوله الله تعالى : **"وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ"** ، أى يطلع من يشاء على غيب القدر ، فيعلمون ضمائر المنافقين ، وسوء نواياهم ، ويبينون ذلك لأهل خاصتهم ، وفى ذلك معجزة تجعل أهل العقول يؤمنون بالله ورسله ، وما بيناه فى الآية أن الله تعالى يكشف ستره عن أهل النفاق فتنكشف حقيقتهم للمؤمنين بسبب ما يبتلى الله به عباده الصالحين من ظهور الكفار عليهم ، كما حصل فى معركة أحد فيفتضح المنافقون ، ويظهرون مكنون ضمائرهم ثم يتسلط الله وأصحابه على الكافرين ، والله ولى المؤمنين.

أى أنكم أيها المؤمنون أن تتوبوا وترجعوا عما اعتراكم من الحزن بسبب أحداث أحد بعد أن بين الله لكم الحكمة فى وقوع تلك المصائب ، "فلكم أجر" يتفضل الله به عليكم ، "عظيم" وهو النعيم الدائم يوم القيامة للروح والعقل والنفس والجسم والحس ن لكل قسط يناسبه من المسرات.

([1]) سورة الجن : 26.

(2) سورة الأعراف : 188.

وجائز أن يكون مراد الله تعالى : "وان تؤمنوا وتتقوا" أى تصدقوا وتتقوا الله أيها المنافقون بعد أن قامت الحجة من حكمة وقوع تلك الحوادث ، ومن بيان رسول اللهε خفيات ضمائركم ، وكشف أسراركم مما لم يكن يعلمه إلا الله ، وكفى بذلك معجزة تملأ القلوب يقينا . "فلكم أجر عظيم" أى جزاء كبير من الله تعالى.

قوله تعالى : **"وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"**(180).

قرئ "يحسبن" بالياء التحتية والتاء الفوقية . وعلى رواية التاء الفوقية يكون المخاطب رسول اللهε ويكون المعنى : ولا تحسبن بخل الذين بخلوا بما آتاهم الله هو خيرا لهم ، فبخل المحذوف الملحوظ هو المفعول الول لتسحبن ، وخير الأخيرة مفعول ثان وهو فصل أو عاد على قول الكوفيين أو البصريين ، وفى قوله تعالى "بما آتاهم الله" أى من العلم والمال والجاه والعافية ، وان كان سياق الآية هنا يخص المال فقط لأنه أتى بعد الحث على الجهاد وبيان فضائله ، فناسب أن البخل بما آتاهم الله هو إمساك المال عن أن ينفق فى سيل الله تعالى ليقين المجاهدين في سبيل الله ، والبخل هو عدم القيام بالواجب كزكاة المال وتقديمه لمساعدة المجاهدين فى سبيل الله كما قال تعالى **"خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا"**[1] . وأهل اليسار يجب عليهم أن يجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، والفقراء سقط عنهم الجهاد بالمال ووجب عليهم الجهاد بالنفس ، قال تعالى **"لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا"** . . وعلى لمال حقوق كثيرة . ومن ظن أن المال ليس عليه حقوق إلا الزكاة فقد جهل الواجب عليه من نفقته فى الجهاد وفى البر والصلة ومساعدة الغرماء وفى العقل للدية وإكرام الضيف والجار وإغاثة المستجير وغيرها مما يقتضيه واجب الوقت ، وإلا فالمال مال الله يضعه فى أيدى الرحماء من عباده والفقراء عيال الله ، فإذا بخل الأغنياء بمال الله على الفقراء عياله سلب المال من أيديهم ووضعه فى أيدى الرحماء.

وكم رأينا بيوتا مشيدة عامرة هوى بها الظلم فأصبحت خاوية على عروشها ، قال تعالى : **"وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ"**[2] ومن أحب المزيد من الخير فى الدنيا شكر الله بأن يرحم الفقراء بفضل ماله ، ومن أراد السعادة الباقية فى الآخرة سارع إلى القيام بمحاب الله ومراضية ،والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وعلى تأويل من قرأ "يحسبن" بالياء يكون الفاعل ضميرا يعود على رسول اللهε محذوفا أو ضمير أحد وتكون المعنى ولا يحسبن رسول الله بخل الذين يبخلون وحذف بخل لدلالة يبخلون عليه أو ولا يحسبن أحد بخل الذين يبخلو . .

وجائز أن يكون التأويل "ولا يحسبن الذين يبخلون" فاعل يحسب والمفعول الأول محذوف تقديره بخلهم وحذف لدلالة "يبخلون" "وخيرا" مفعول ثان والضمير فصل أو عماد ، يعنى أن البخل فى نظهرهم يرونه خيرا لأنه يحفظ لهم أموالهم التى هى عندهم فوق أنفسهم لإنهم جهلاء بأنفسهم كفار بالله ورسوله ، ولا تجد إنسانا يجهل نفسه ويجهل نشأته الأولى والثانية إلا ويرى المال معبودا من دون الله يبذل حياته العزيزة حرصا عليه ، وما تقول فيمن يجهل يوم القيامة كما قال تعالى : "بما نسوا يوم الحساب" وقوله تعالى "كما نسيتم لقاء يومكم هذا" ولذلك شنع الله عليهم وتوعدهم ، قال تعالى : **"بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"** ومعنى هذه الآية سيعاقبهم على بخلهم هذا يوم القيامة بما يستحقونه من ألم العقوبة على بخلهم وهو امتناعهم عن أن ينفقوا ملا الله الذى تفضل به عليهم بليل قوله تعالى : **"بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ"** فأن الله تعالى "يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر" . وأهل اليسار فى الدنيا وأهل العافية والجاه والمنزلة تفضل الله عليهم بكل ذلك إذ لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ولكن الإنسان ظلوم جهول يدعوه الشرك بالله إلى اعتقاده أنه هو الذى نال المال والمنزلة والجاه بحوله وقوته فيبخل أن ينفقه فى وجوه الخير وينسى أنه كان نطفة مذرة وأنه سيعود جيفة قذرة.

ولك أن تقول "سيطوقون ما يخلوا" أى به يوم القيامة فيجعل الله لهم فى أعناقهم أطواقا مما بخلوا به فتكون أفاعى وحيات كما ورد ذلك فى الحديث ،وقد تكون تلك الأطواق فى كل أجسامهم من الأعناق إلى الأقدام أعاذنا الله من ذلك ، إذ كان ما بخلوا به مما تفضل الله به عليهم من المال والعلم والجاه والعافية فيكون تطويقهم به القاءهم فى العذاب الشديد الذى يطوقهم ، يقول العربى فلان طوق فلانا أى قهره ، وقوله تعالى يوم القيامة أى أن الله يمهلهم فى الدنيا استدراجا لهم ، وفى يوم القيامة يؤاخذهم بتركهم القيام بالواجب عليهم فى مالهم الذى هو العدة فى الجهاد فينتقم الله منهم بعدله يوم القيامة.

([1]) سورة التوبة : 103.

(2) سورة الشورى : 30.

"وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" معلوم أن ملك السموات والأرض لله ولله ما فيهما وله سبحانه من فيهمان ، ولما كانت تلك الآيات الشريفة أنزلها الله للتشنيع على من خبلوا بالمال أن يبذلوه فى سبيل الله تعالى . قال سبحانه **"وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"** فى له سبحانه ما يتوارثه الناس من بعضهم بحسب زعمهم أنهم يملكون ما يرثون وأنهم بعد ذلك يموتون جميعا فلا يخلفهم أحد يرثهم فيكون لله تعالى ويكونون ظلموا أنفسهم ببخلهم وتركهم الإنفاق فى سبيل الله تعالى وبذلك يستحقون أليم العذاب ، فيكون ما يحل بهم من العذاب الشديد ،ولو كانت . نفوسهم من الجواهر النورانية لتقبلت عن الله تعالى ما أرسل به رسلهم عليهم الصلاة والسلام ن والهوى أخو العمى.

"وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" قرئ الفعل بالياء التحتية وبالتاء الفوقية والمعنى ظاهر أن كان للخطاب أو للغيبة ، وقد تقدم تفسير ذلك فى السورة التى تذكر فيها البقرة.

قوله تعالى : **"لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ"**(181).

بعد أن بين سبحانه فضل الجهاد فى سبيله ببذل المال والنفس وشنع على من بخلوا بالمال وثبطوا المجاهدين ، بين لنا سبحانه الشبه التى تذرع بها أهل النفاق وغيرهم من أهل الكفر بالله فى فتح أبواب الفتن بين المسلمين ن فيدخلون فى قلوبهم الريبة فى صحة نبوة رسول اللهع بسبب ترغيب الله المسلمين فى بذل المال فى سبيل الله تعالى ، فقالوا أن كان محمد نبيا فكيف يطلب المال وطالب المال محتاج إليه والله غنى لا يحتاج إلى المال فنتج عدم صحة نبوته . . وقال اليهود أن كان محمد نبينا وطلب المال فإنما يطلبه لتنزل نار من السماء تحرقه كما هى عادة الأنبياء السابقين ، وتلك الفتن أباطليل يحفظ الله من شرها قلوب أهل الإيمان به نوما يدعونه من نزول النار فإنما كان فيما تقربه الأمم السابقة من أنفسهم لتطمئن قلوبهم بقبولها كما فعل قابيل وهابيل وغيرهما ، أما ما يكفلنا الله تعالى به لتقوم لنا الحجة عنده سبحانه بأننا سمعنا وأطعنا ن أو تقدم على أعدائه الحجة بأنهم خالفوا وأنكروا فذلك مما يبتلى الله عباده به من الخير والشر . . قال تعالى "ونبلوكم بالشر ولا خير فتنة" والله جل جلاله يكلف من شاء بما شاء ويسلب من شاء التوفيق والهداية حتى ينتقم الله منه يوم القيامة بما قدره عليه عدلا منه جل جلاله.

والله تعالى يسمع ويرى دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الملساء ،ولكن قوله تعالى "لقد سمع الله" هنا أى أحاط علما بقولهم من الأزل وأبرزه سبحانه وتعالى على ألسنتهم عندما أنزل تلك الآية الشريفة والله تعالى سماع إجابة كما قال سبحانه "قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي **تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا**"[1] ويسمع سماع مؤاخذة كما فى هذه الآية الشريفة ، وهنا أخبرنا الله تعالى عن مقولهم أى اليهود بدليل قوله تعالى مخبرا عن اليهود **"وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ"** وهى دليل على أنهم هم الذين قالوا **"إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ"** قاتلهم الله وهم يدعون أنهم اتباع موسى عليه السلام وكيف يدرسون التوراة ويحكمون بالفقر على الله تعالى.

والذى يظهر لى أنهم قاتلهم الله إنما أرادوا بذلك فتنة أهل الإيمان وإظهار كذب رسول اللهع لأنهم يعلمون حق العلم أن الله غنى عن العالمين، وأنه جل جلاله يمتحن قلوب عباده بما يكلفهم من الأمر والنهى فمن سمع وأطاع جمله بجماله وأشهده غيبه المكنون وصرفه فى ملكه وملكوته ، وإنما هو الفضل والعدل.

قمن أقبل على الله بقلبه عاملا فى محابه ومراضية ستر قبائحهم بجماله العلى ، فلا يراه راء إلا وانجذب إليه قلبه بالمحبة . ومن أدبر عن الله وأنكر كشف عنه ستره وأظهر عيوبه للخلق ، فلا يراه أحد إلا وأنزعج منه وأنكر عليه.

وقد ورد فى الآثار – يقول تعالى – يا دنيا اخدمي من خدمني واستخدمى من خدمك ، وإنما هو الجهاد والصبر على شدائده ثم التمحيص ثم الاجتباء ثم الاصطفاء حتى يبلغ العبد من الله مبلغا يقول الله له – أنا أقول للشئ كن فيكون وقد وهبتك كلمتى فقل للئ كن فيكون – "ونحن أغنياء" هذه الكلمة قد يقولها الجاهل بلسانه أو بحاله ، أما بلسانه فلان اليسار والعافية والأمن تطغى العبد الجاهل فتنسيه نشأته الأولى والثانية ويجهل نفسه وربه فيقولها بلسانه عنادا وكبرا ، وقد يقولها بحاله وأن لم يقلها بلسانه وذلك إذ جهل استناد وجوده إلى واجب الوجود الذى أوجده وأمده سبحانه فيظن البقاء فى يسار وعافية وأمن ويظن استغناءه عن الله تعالى وكلا الأمرين شرك ، فإذا سبق فى قدر الله تعالى للعبد سعادة ابتلاه الله ليلتجئ إليه سبحانه ويقبل عليه فيخرجه من ظلمات الطغيان والغرور إلى نور التوبة والإنابة ، ومن لم يسبق له القدر بالسعادة استدرجه حتى يهلك ، أعاذنا الله وإخواننا المسلمين من الغرور بالدنيا.

([1]) سورة المجادلة : 1.

"سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ" أى نسجل عليهم قولهم الذى أثبت عليهم الكفر ، وأوجب عليهم العذاب الدائم ، ونكتب عليهم أيضا قتلهم الأنبياء بغير حق فأنهم قاتلهم الله تعالى بلغ بهم العناد لرسل الله صلوات الله وسلامه عليهم مبلغا جعلهم يقتلونهم ويجحدون بالله تعالى مع دراستهم التوراة.

ولا تعجب فأن النفوس الإنسانية كثرت أنواعها حتى فاقت أنواع الخلائق أجمعين فما شئت أن ترى إنسانا قد فاق الملائكة إلا رأيته ، وما شئت أن ترى إنسانا شرا من إبليس إلا رأيته وما شئت أن ترى إنسانا أضر من الوحوش الكاسرة إلا رأيته ، وما تقول فى إنسان بلغت به الجهالة بنفسه إلى أن يبنى مرتفعا من الطين ليصل إلى ربه فيقتله بحربته.

الإنسان ملك وأفضل ، وشيطان وشر من الشيطان ، ووحش وأضر وجماد وأسفل ، فالإنسان مع صغر حجمه بالنسبة للعالم وكثرة ضروریاته إلى ما أحاط به قد جمع الحقائق كلها ، وما دام الإنسان فى الإنسانية فهو جاهل بنفسه جاهل بربه حتى يخرج من سياجها الظلمانى ، قال تعالى "أن الإنسان لربه لكنود" ومن خرج من إنسانيته وتشبه بالعالم الروحانى كان إنسانا كاملا فوق العالم أجمع فيمنحه الله معيته أو عنديته سبحانه أو لدنيته . قال تعالى "أن الله مع الذين اتقوا" وقال سبحانه "أن الذين عند ربك" وقال جل جلاله **"وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ"**[1].

"بغير حق" القتل بحق محصور فى ثلاثة أمور :-

الأول أن يرتد المسلم عن دينه فيقتل بحق.

الثانى أن يقتل إنسانا فيقتل حدا بحق – والأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم الدعاة إلى الله حقا الرحماء على الخلق المضحون بكل غال ورخيص فى سبيل نجاة الخلق من عذاب الله ، فالواجب لهم أن نسمع منهم ونطيعهم ونجاهد هوانا فى هواهم ونسلب من أنفسنا العواطف إذا دعتنا إلى مخالفتهم ونهجر ملذاتنا وشهواتنا مسارعة إلى تنفيذ أوامرهم ، فكيف يبلغ بالإنسان الهوى والحظ أن يقتل أمثال هؤلاء ، وقتلهم كفر وضلال وباطل ، لذلك يقول سبحانه "بغير حق".

"وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ" هذه الآية خبر من الله تعالى عما يكون يوم القيامة لأهل الكفر عند حشرهم إلى جهنم فيحيط بهم العذاب من كل جهه ، وتكون آلامهم أشد عندما يسمعون هذا الكلام من الله تعالى ، ففى هذا الحال يشتد بهم البلاء ويتمنى كل واحد منهم أنه كان ترابا ولم يكن إنسانا ولات حين مندم.

وجائز أن يكون هذا الكلام عند الموت وذلك عندما ينكشف حجاب الكون عن الإنسان بالموت وأن يكون عند البعث.

"الْحَرِيقِ" فعيل بمعنى فاعل يعنى المحرق.

قوله تعالى : **"ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ"**(182).

الإشارة عائدة إلى الوعيد بأليم العذاب وبما قدمت أيدكم أى بذنوبكم التى كبلتم أنفسكم بها وتلك الذنوب من ذنوب القلوب والجوارح ، ولما كانت الأيدي هى آلات العمل أسند الفعل إليها.

"وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ"نفى الله عن نفسه الظلم ، لأن الظلم هو التصرف فى ملك الغير ، والله تفضل وأحسن ورحم عبيده وأعطى المزيد من إحسانه ورحمته ببعثة الرسل لبيان السبل وللأمر بما يحب والنهى عما يكره لينالوا السعادة فى الدنيا والآخرة ، فأبى القبول من الرسل من لا خلاق لهم بعد قيام الحجة ووضوح المحجة وبعد الإمهال والحلم والصبر من الله جل جلاله ، بل وبعد أن قصمت المعجزة ظهور أهل الإنكار . فمؤاخذه من هذا شأنه عدل – وليس لعاقل بعد هذا البيان كله إلا أن يحكم على هؤلاء أن هذا الوعيد بالعقوبة بل وقوع العقوبة بالفعل عدل من حكم عدل رءوف رحيم حليم صبور.

قوله تعالى : **"الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"**(183).

هذه الآية الشريفة ما حقه للفتن المضلة التى فتح بابها أهل اليهودية بعد الفتنة الأولى فى الآية السابقة وهى مسألة المال كما قررت لك ، وتقرير تلك الفتنة أن كعب بن الأشرف وكعب بن أسد ومالك بن الصيف ووهب بن يهوذا وزيد بن التابوت وفنحاص بن عازوراء وغيرهم ، أتو رسول اللهع فقالوا يا محمد تزعم أنك رسول الله وأنه تعالى أنزل عليك كتابا وقد عهد الله إلينا فى التوراة أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله نار يكون لها دوى

([1]) سورة النمل : 6.

خفيف تنزل من السماء فإن جئتنا بهذا صدقناك ، فنزلت هذه الآية كما ورد ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما . . **"الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ"** وهم من ذكرت لك من قبل فقصم الله ظهورهم ورد عليهم بالحجة القاصمة وهى قوله تعالى قل يا محمد لهؤلاء الضالين المضلين **"قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"** يعنى سبحانه وتعالى أن الله تعالى أرسل لسلفهم رسلا أيدهم بالمعجزات وبكتب سماوية وبأنزال النار من السماء تأكل ما قربوه ومع ذلك فإن سلفهم لهم يقبلوا منهم الهدى ولم يتركوهم سالمين ، بل أنهم قتلوهم فوقعوا فى الكفر بالله وبرسله وفى محاربة الله تعالى بقتل أنبيائه ، وهذا دليل على أن نفوسهم عنادية خلقت من طينة الخبال حتى لو أشرقت لهم الشمس ضحوة فى رائعة النهار ودعوا أن يؤمنوا أنها شمس لأنكروا وعاندوا ، قال تعالى : **"وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا"**[1] وهل بعد الحق إلا الضلال ، وما أرسل الله الرسل إلا ليبينوا سبله ويعلموا الناس أحكامه سبحانه.

"بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ" بينت هذه الآية الشريفة أن الرسل السابقين عليهم الصلاة والسلام لم تكن معجزاتهم جميعا إنزال النار من السماء ، بل كانوا يأتون بالبينات التى هى المعجزات غير إنزال النار فى قوله بعض العلماء أن فى التوراة نزول من النار شرط إلا فى رسالة عيسى ومحمدε .

قوله تعالى : **"فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ"**(184).

هذه الآية أنزلها الله تعالى طمأنينة لقلب حبيبه محمدε لما كان يحصل له من الحزن بسبب تكذيب أهل الكفر له لحرصه على نجاتهم من عذاب الله تعالى وقد أزال الله عنه ما كان يلم به من حزن بهذه الآية الشريفة ، فإن الله تعالى يقول لهε أن الذين سجل عليهم القضاء يعنى يكونون كفارا من الأزل لا يقبلون الهداية من أى نبى ظهر فى أزمنتهم ، وهذا من لدى الإنسان الأول فقد قتل قبيل هابيل وكذب شيئت عليه السلام ونوح وإبراهيم ولوط وهود عليهم السلام فمن بعدهم ولا يزال بنو الإنسان ولن يزالوا يشرك أكثرهم . قال تعالى **"وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ"**.

وقال تعالى : **"فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ"**[2] وقال تعالى **"فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا"**[3] ولم يقل لرسول سواه عليه الصلاة والسلام هذه الآيات وإنما قيلت له صلوات الله وسلامه عليه ، لأنه مجمل باسمين من أسمائه وهما الرءوف الرحيم لأنهε حريص على إيمان العالم أجمع ، أما الرسل صلوات الله وسلامه عليهم فكان كل رسول كذبه قومه دعا عليهم فأهلكهم الله تعالى إلا يونس بن متى عليه السلام فإن الله أنجى قومه بعد دعائه عليهم ، وكان رسول اللهε لحرصه إذا آذاه قومه قال اللهم أهد قومي فأنهم لا يعلمون . فهذه الآية وما يماثلها فى القرآن المجيد كمال تلطف من الله تعالى لحبيبهε ، لما يعلمه سبحانه وتعالى فيه من الرحمة والحرص ولما قدره على أكثر الخلق.

"جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ" فالبينات هى المعجزات المبهرة التى منها إنزال النار ، والزبر يعنى الكتب السماوية أو هى الصحف "والكتاب المنير التوراة – والإنجيل . وفى قوله تعالى "بالبينات" هنا وذكر الزبر والكتاب بعدها برهان على أن الأنبياء السابقين عليهم السلام كانت دعوتهم غير حجتهم ، ولم ينزل الله تعالى على نبى كتابا جامعا للدعوى والحجة إلا على سيدنا محمدε ، فأن القرآن المجيد دعوى وحجة حتى أن أقصر سورة منه معجزة لفحول اللغة العربية ، وفى هذه الآية الشريفة دحض لدعوى منكرى نبوتهε وبرهان على أنه خاتم الرسل وسيدهم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم ، وفى هذه الآية دليل على أن الله تعالى أرسل الرسل لتقوم الحجة لله على أهل الشرك ليميز الله الطيب من الخبيث.

قوله تعالى : **"كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ"**(185).

هذه الآية الشريفة تسلية لرسول اللهε عما أصابه من الحزن بسبب تكذيب أعداء الله لهε ، لأنه عليه الصلاة والسلام بتحققه موت كل نفس تحصل له المسرة لما يناله أهل الإيمان بالله من السعادة الباقية وما يصيب أعداء الله من العذاب الأليم.

([1]) سورة الكهف : 17.

(2) سورة فاطر : 8.

(3) سورة الكهف : 6.

"ذَائِقَةُ الْمَوْتِ" بيان لفقد النفس لوازم الحياة البشرية التى تزول بموت الجسم فعلا ، فإن النفوس بحسب جواهرها ، فالنفوس التى جواهرها من النور تكون فى عليين ، والنفوس التى جواهرها من النار أو من غيرها تكون فى سافلين أو فى أسفل سافلين ، حتى ينفخ فى الصور والموت فى كل نوع من الأنواع فتقد لوازم الحياة من الغذاء والنمو فى النباتات ، ومن الحس والحركة فى الحيوانات ومن الحس والحركة والإرادة فى الإنسان.

"وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" يبين الله لنا أن الدار الدنيا مهما توفر خيرها وتيسر نعيمها وتمكن الإنسان فيها من نفوذ الكلمة وكمال العافية فأن عاقبتها الموت وإن ذكره قبل نزوله ينغص كلا ملاذ الحياة ، فكيف بنزوله بل وكيف إذا سمع المسلم قوله "وإنما توفون أجوركم يوم القيامة" فهذه الآية تسلية كبرى للمؤمنين وإنذار للكافرين.

"فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ" أى جذب بتوفيق الله وهدايته تعالى للعبد من موجبات النار التى من أهمها الشرك بالله ومخالفة أمره والوقوع فيها نهى عنه ، فأن المشركين ومرتكبي الكبائر فى نار جهنم فى الدنيا نار البعد عن شهود أنوار الله تعالى وآياته ، فأن ماتوا على ما هم عليه كبوا على وجوههم فى النار إلا من هداهم الله تعالى صراطه المستقيم بحسن عنايته وتوفيقه ، فكتب فى قلوبهم الإيمان وزينه فى قلوبهم وأيدهم بروح منه فأولئك هم الذين زحزحوا عن النار وأدخلوا الجنة "فقد فاز" يعنى ظفر بالحسنيين.

"وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ" يعنى بذلك سبحانه أن متعه الحياة الدنيا من مأكلها ومشربها ومسكنها وملاذها الشهوانية من نفوذ الكلمة وعلو المكانة والجاه والتسلط على النظراء وما يلحق ذلك مما تهواه نفوس أهل الجهل أن هو إلا مشتهيات يدعو إليها الغرور الكاذب لسرعة زوالها وعظيم عقوبتها يوم القيامة ، والمتاع هو الأشياء التى يتمتع بها الإنسان ثم تطرح وتلقى مع القاذورات كالملابس والأثاث والأواني البالية التى لا ينتفع بها بعد.

وهذه الآية تقوية لإيماننا بيوم القيامة لن قوله تعالى "الحياة الدنيا" بيان لأن هناك حياة أخرى ، وفى لفظ الدنيا إشارة إلى دنوها منا أو دناءتها ويقابلها الأخرى البعيدة أو العالية.

قوله تعالى : **"لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ"**(186).

هذه الآية الشريفة تسلية لرسول اللهε وأصحابه فى حادثة أحد وختامها معجزة عظمى لرسول اللهε وهو قوله "ولتسمعن" واللام فى قوله لتبلون للقسم والنون للتوكيد لتقوية الخبر والابتلاء هنا الاختبار من حيث ظاهر العبارة ، ومعناها فى الحقيقة ليقدرن الله عليكم نقصا فى الأموال وفى الأنفس المحبوبة لكم ، وحكمة هذا التقدير أن يدوم لكم الالتجاء إلى الله تعالى والانكسار على أعتاب العبودية ، لتفوزوا بفضله العظيم الذى يتفضل به على أهل المجاهدة وحبه العلى الذى يمن به على الشهداء من خاصة عباده ولينفذ قدره فى أعدائه الذين قدر أن يكونوا مخلدين فى سعير الحطمة لكفرهم به سبحانه ومحاربتهم رسله وأولياءه ودعاة الحق من الناس ، إذا المعنى اللغوى لقوله تعالى "لتبلون" لا يناسب عقلا أن يسند إلى الله بمعناه اللغوى ، لأن الله تنزه عن أن يجهل حقيقة أمر مخلوق خلقه فيبتليه لتنكشف له حقيقته بعد أن جهلها ، والبلاء فى الأموال هو بذلها فى الجهاد واشتغال الرجال فى المجاهدة فلا يشتغلون فى المال لينمو فينقص من غير أن يزيد ، والبلاء فى الأنفس قتلها فى الميدان وفى نقص الأموال والأنفس بلاء كبير من الله تعالى تنكشف به حقائق المسلمين فيظهر المؤمن الكامل والمنافق لرسول اللهε ولاصحابه ، فإذا أعاد الله للمسلمين الكرة على الكافرين وأظهرنا عليهم فرحنا بنصر الله وذل أعداء الله فلم يمكنهم كيدنا بعد أن ظهرت حقائقهم لنا بالبلاء الذي قدره الله تعالى.

"وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا" ونزلت هذه الآية فى فنحاص سيد بنى قينقاع وكعب ابن الاشرف ، فالأول أرسل لهε أبا بكر برسالة يطلب بها منه أن يمده بالمال فتقلد أبو بكر سيفه وتوجهه إليه فى قينقاع فلما بلغة الرسالة قال – أن ربكم أفتقر حتى يطلب منا المال فهم أبو بكر أن يضربه بالسيف لولا أن رسول اللهε قال له لا تفئت على – أي لا تحدث حدثا يؤلمني–.

وأهل الكتاب هنا هم اليهود الذين قالوا **"يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ"** وقالوا : **"إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ"** وقالوا : **"إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ"**.

وأما الذين أشركوا فهم النصارى الذين قالوا أن المسيح بن الله – وقد بينت لك أن هذه الآية معجزة فأن اليهود والنصارى أذلهم الله منذ انبلاج فجر الرسالة التى الآن يؤذوننا فى ديننا وفى نبينا وفى أموالنا وأنفسنا ، ولا تزال تلك الأذية والبلايا والمضار تكال منهم كيلا – انظر إلى دعاة النصرانية المنتشرين كالجراد المفسد والسيل

المدمر والسموم والوباء الفتاك لا تخلو منهم أمة ولا قرية ، وبذلك تعين علينا أن نقاتل أئمة الكفر كافة بكل أنواع الجهاد المشروعة بقدر استطاعتنا ، فأنهم يقاتلوننا كافة بكل أنواع الحرب التى لم تشرع ولم يرضها العقل عداوة للدين وكفرا بالله.

"أَذًى كَثِيرًا" وأهل الكتاب والذين أشركوا لا يتركون هذا الأذى الكثير إلا إذا أذلهم الله فأظهر الدين بأهله وجعلهم أرقاء يباعون فى أسواقنا كما كانوا ويومئذ تكون رحمة المسلمين بهم ، أما الإسلام أو استئصالهم فأن الحكم الشرعى فى أهل الكتاب والمشركين كان الإسلام أو الجزية أو القتل ،ولكن بعد تلك التجربة وبعد أن نشر الإسلام الويته ودق أوتاده وبعد أن علم الخاص والعالم أصبح الواجب "الإسلام أو القتل" ، وسيكون لهذا الكلام حقيقته خصوصا إذا نزل عيسى بن مريم فى آخر الزمان وكسر الصليب وقتل من لم يسلم من أهل الصليب ، والأذى الكثير بخير القرآن المجيد قليل على ما وصل إليه أهل الكتاب والمشركين من الأذية إلينا.

ومن علم بأحداث فلسطين وبمكائد الصليبيين بالنسبة للمسلمين يفهم معنى قوله تعالى "أذى كثيرا".

"وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" يبشر الله المسلمين بما يتفضل به عليهم أن هم صبروا بما أمرهم به من بذل المال والنفس فى سبيل الله ، ومن المسارعة إلى تأدية الفرائض والمندوبات عبادة وأخلاقا ومعاملة فى القيام بما أمرهم به بقلوبهم وأبدانهم وجوارحهم ، والصبر هنا يكون على ما يصيب المسلم من نكبات الدنيا ومن المصائب التى تعتوره فى سبيل إعلاء كلمة الله "فأن ذلك" أى فأن الصبر والتقوى من عزم الأمور أى من الأمور التى عزمها الله بل من القوة التى يتفضل بها على أهل الإيمان ، وأمور عزمها الله تعالى ومنح القوة لأهل الإيمان على تأديتها لهى الأمور التى يرفع الله بها من وفقهم للمسارعة إليها إلى أعلى عليين وهى من خير البشائر التى أخبرنا الله عنها ، قال تعالى : **"لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ"** وقال سبحانه **"يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ"**.

قوله تعالى : **"وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ"**(187).

أى اذكر يا محمد إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب وهم بنوا إسرائيل "لتبينه" أى لتبينوا نبوة محمدε وصفته وأنه خاتم الأنبياء للناس الذين يظهر فى زمانهم كما بينه موسى وعيسى وغيرهما ببيان الله لهما ، وكما كنتم تستظهرون ببعثته على كفار قريش وتهددونهم بأنه إذا ظهر تنصرونه عليهم ، فلما أظهره الله تعالى ودعا دعوة الإسلام أبت نفوسهم الخبيثة إلا أن تقع فيما وقعت به مع الرسل السابقين عليهم السلام فجحدت وأنكرت ما أنزله الله تعالى على رسله السابقين من نعت نبيه محمدε .

"فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ" أى أخفوه عن الناس كالمنبوذ وراء الظهور **"وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا"** من فنحاص وكعب بن الاشرف وغيرهما وهم أحبار اليهود الذين سمعوا كلام رسول اللهε فاعترفوا بنبوته وخرجوا إلى كعب بن الاشرف فلما رغبهم فى المال أنكروا ما اعترفوا به أمام الصحابة وتلك عادة طبعهم ونفسهم الإمارة وهذا كله بعد أن أمرهم سبحانه بأتباع "النبي الأمي الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل".

"فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ" أى أنهم استبدلوا الهدى بالضلال ولاحق بالباطل والنور بالظلمة.

قوله تعالى : **"لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"**(188).

وهذه الآية الشريفة نزل فى أنواع معاصرى رسول اللهε منهم المنافقون الذين كانوا يظهرون الخروج من رسول اللهε فى الغزواة ثم يتخلفون ، فإذا رجع رسول اللهε منصورا اعتذروا إليه فقبل اعتذارهم ففرحوا بعملهم هذا وجهلوا أن الله لا تخفى عليه خافيه ، ومنهم أشخاص معينون من اليهود كفنحاص سيد بنى قينفاع ونظراؤه الذين كانوا يفتنون الصحابة بما كانوا يكذبون به على الله وعلى رسولهε ويفرحون إذ أظهروا للناس أنهم عباد وأنهم علماء بالباطل ، ومنهم بعض اليهود الذين كانوا يكتمون ما أنزله الله فى التوراة من صفات محمدε وإذا سئلوا عن ذلك أجابوا بالكذب والضلال ويفرحون بما أتوا من ذلك ن وقد بلغ ببعض أهل الإيمان من الورع أنه فهم أن تلك الآية نزلت فينا فقال ما لكم ولها أنها نزلت فى اليهود الذين أنكروا ما أنزله الله فى التوراة من صفات محمدε.

ومعنى الآية الشريفة أن الله ينهى حبيبه محمداε عن حسبان أن اليهود الذين أنكروا بنوته المؤيدة بالتوراة عندهم ، وأن كفار قريش من المنافقين الذين يظهرون غير ما يبطنون ويفرحون بما أتوا ويجملون ظواهرهم للخالق

مع سوء مقاصدهم ونواياهم وبذلك يحبون أن يمدحهم الناس فيقولون عنهم أنهم عباد علماء مع ما هم عليه من الخبث والخداع لأهل الإيمان ، ومن افتراء الكذب على الله وعلى رسولهε.

"فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ" أى بمنحاة من الوقوع فى العذاب الأليم فى هذه الدار الدنيا من الخسف والزلزال والغرق والأمراض والحروب وكل ذلك عاجل فى الحياة الدنيا.

"وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" أى ومع ما يعجله الله لهم من عذاب الدنيا فقد أجل لهم عذاب أشد وأنكى يوم القيامة.

وهذه الآية الشريفة وأن كانت خاصة بمن ذكرنا وبغيرهم ممن نزلت الآية بسببهم ، فإن كل من فرح بما أتي مما يغضب الله تعالى وتجمل للخلق حبا فى مدحهم له بما لم يفعل فإن الذى يجعل ظاهرة للخلق مع خبث سريرته وسوء ضميره وفساد نواياه كان ممن يطلب الدنيا بعمل الدين وهو الذى حكم عليه رسول اللهε باللعنة ، قال عليه الصلاة ولسلام "معلون معلون ملعون قالوا من يا رسول الله قال من طلب الدنيا بعمل الآخرة" ، وبهذه الأعمال الخبيثة يكون له قسط وافر من هذه الآية الشريفة ، وأما من فرح بما أتى من أعمال الصلاح والبر وأحب مدح أخوته المسلمين مع حسن سريرته وطويته فهو مؤمن قال عليه الصلاة والسلام "المؤمن من سرته حسنته وإساءته سيئته".

قوله تعالى : **"وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"**(189).

تقدم تفسير هذه الآية ضمنا فى قوله تعالى "لله ما فى السموات وما فى الأرض" ونزيدك هنا أن ارتباط هذه الآية بما قبلها أنها قصم لظهور أعدائه اليهود والذين أشاعوا السوء كفنحاص وغيره عند ما طلب منهم رسول اللهε المساعدة على دفع الأعداء من المدينة فقالوا "أن الله فقير ونحن أغنياء" فكذبهم الله وأخزاهم بقوله : "ولله ملك السموات والأرض" أى هو الذى أوجدها بافتتاح إيجادها بقدرته وأمدها بما زينها به من أفلاك سائرات وأنهار جاريات وحيوانات ونباتات ونسيم عليل بليل وغير ذلك من أنواع النعم التى لا بد منها لوجود من عليها وما بين كل سماء ، وما بين الأرض والسماء ومن كانت هذه صفته تنزه وتعالى عن الفقر فتقوم الحجة على قوله تعالى : **"وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"**.

قوله تعالى : **"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ"**(190).

بين الله سبحانه فى الآيات السابقة الأحكام والقصص وأنواع الناس بالنسبة للإسلام ثم أخذ يبين دلائل التوحيد وحججه الجلية ومآخذه كما بين بعض ذلك فيما سبق فى قوله فى سورة البقرة **"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ"**[1] الآية – وهى سنة القرآن المجيد لأن الله تعالى أعطى كل قوة من القوى التى جعل منها الإنسان وهى الجسم والحس والعقل والنفس مبين عبادات كل قوة منفردة ومزدوجة مع غيرها ، وبين ما يحبه من الأخلاق والمعاملات ، وبين العقائد مفصلة بحججها الناصعة ووعد سبحانه من وفقهم لقبول ما أرسل به الرسل عليهم الصلاة والسلام بالنعيم فى الدنيا وفى الآخرة ، وتوعد من خالف الرسل بالخزى والذل فى الدنيا والعذاب الأليم يوم القيامة ، وهذه الآية الشريفة كشفت الستار عن غيب الآيات فى خلق السموات والأرض والاختلافات الدالة على وحدانية الله وقدرته سبحانه بل وتفريده بإيجاد كل شئ وإمداده بما لا بد له منه ، وقد سبق تفسير هذا فى قوله تعالى: "أن فى خلق السموات والأرض" الآية فى سورة البقرة فذكر سبحانه فى الآية الأولى الحقائق المحسوسة الملموسة من بدائع إبداع صنع البديع سبحانه مما يجعل القلوب تطمئن بكمال قدرة الله وحكمته والنفوس تكسن إليه تنزه وتعالى ، تلك الآية السابقة أظهرت أنوار تجليات الحق للعقول ، وقد كتبت رسالة فى التوحيد عن تفسير تلك الآية سميتها "عقيدة النجاة" وفى هذه الآية التى نشرحها بيان لصفات العبد الكامل ، فقد جمع الله لنا فى الآيتين صفات الربوبية وصفات العبودية.

"لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ" لما كان ظاهر العقل يسمى عقلا وباطنة يسمى لبا، وكانت الآية السابقة حججا محسوسة يعقلها من عنده ملكة عقل قال الله فيها **"لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"**.

ولما ذكر هذه الآية قال سبحانه **"لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ"** بيانا أن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار كان من حيث التكوين والتركيب والتدبير الإلهى لحفظ وبقاء تلك الحقائق التى تدركها العقول وتصل إليها والإمداد والسر تعلق أسماء والصفات بآثارها لظهور معاني أسماء الجمال والجلال فى كل كائن من الكائنات ، وتلك الأسرار لا يدركها إلا من تفل الله عليه بالقابل وأحسن إليه بالفيض المقدس ، والفيض هو ما جاء به رسول اللهε ، والقابل هو النور الذى يجعله الله سبحانه لمن اجتباهم من خلقه . . لتلك الحكمة قال تعالى **"لِأُولِي الْأَلْبَابِ"**.

([1]) سورة البقرة : 164.

ولما كان نحهم الله تعالى الهمة فى علم ما يحبه سبحانه من أحبابه فاشتاقوا أن يعلموا الصفات التى يجمل بها من اجتباهم من خاصة خلقه ليسارعوا إلى التجمل بها بتوفيقه وعنايته سبحانه ، قال تعالى مبينا محابة ومراضية من عبادة المخلصين وافتتح صفاتهم بعمل اللسان والأركان.

قوله تعالى : **"الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ"**(191).

فوصفهم بالذكر فى كل أحوالهم وهذا لا يكون على الوجه الأكمل إلا فى الصلاة لأنها تجمع الذكر بقراءة القرآن والتهليل والتسبيح والتحميد والتبتل فى كل حركة وسكنة.

ولما كان من لا يطيق الصلاة قائما ولا قاعدا يصلى مضطجعا ذكرت لك أن أكمل الذكر يكون فى الصلاة وهذا ليس حصرا حقيقيا ، فإن الإنسان مطالب أن يجعل كلامه كله ذكرا برعاية ما يحبه الله تعالى من الإنسان فى قوله وعمله بل فى كل شئونه التى لا يخرج عنها كالاكل والشرب ، وقضاء الحاجة ، والأعمال كالتجارات والزراعات بل وفى كل أحواله الشخصية فى نوم ويقظة وفرح وحزن ورضا وما لابد له منه . وبذلك يكون مع الله تعالى "لا يغفل إذا غفل الغافلون ، ولا ينسى إذا نسى الناسون وقليل ما هم" ، وقد فصلت لك هذا الموضوع فى "كتاب النور المبين" تفصيلا يليح لك الغيب المصون.

ولما كان الذكر والفكر عملين ، أهل الله أحبابه لهما بما أودعه فيهم من العقل الذى يعقل عنه ، وما أمدهم به من الهداية والتوفيق ، وما كتبه فى قلوبهم من الإيمان ، وما زين به الإيمان فى قلوبهم ، وما أيدهم به من روحه ، كان لابد من الذكر والفكر ليتفضل الله على الإنسان بما لا يناله بجهاد ولا برياضة من الشهود والحب والقرب ، قال صلى الله عليه وسلم "تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى ذاته" وقد أثنى الله على من وفقهم للفكر والذكر والتدبر فى آيات كثيرة من القرآن ، وكل مسلم شغلته ضروریاته وكمالياته الجسمانية عن كمالاته الروحانية كان من الغافلين ، ومن جهل سر الله فيما أحاط بنا مما هو تحت حسنا أو غيبه فيما أخبرنا به من مغيباته جهل بقدر تلك الحقيقة من مقام ربه ، فإن الله تنزه وتعالى حكم أنه لا تدركه الأبصار وأنه سبحانه يدرك الأبصار والأبصار التى ذكرها الله هى الأرواح والعقول والحواس جميعها.

ولعل قائلا يقول : أن الله أخبرنا أننا نراه ، فأقول للسائل الإدراك شئ والرؤية شئ آخر ، وأنت أيها السائل ترى الشمس فهل أدركتها حقيقة وكما وكيفا . وكذلك ترى النور والظلمة فهل أدركتهما ، بل وأيضا ترى الكهرباء وآثارها المدهشة فهل أدركت حقيقتها ، إذن فأنا نرى ربنا كما ثبت ذلك فى القرآن الشريف والسنة ولكنه تنزه وتعالى عن أن يدركه غيره.

وبعد الفكر فى خلق السموات والأرض الذى جملهم الله به بعد الذكر يكشف عنهم الحجاب جل جلاله . فيرون الكون آثار قدرته وحكمته ، ويرون مع أنوار معانى الصفات فى الكائنات وجه الله تعالى أقرب إليهم من أنفسهم التى بين جنوبهم ، فيخاطبون ربهم جل جلاله خطاب القريب من القريب ، خطاب من شهد أنواره فى آثاره ، وصفاته فى أنواره ، وأسماءه فى مخلوقاته فينادونه ناء تبتل بعد علم بسر الحكمة فى كل شئ.

"رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا" بل خلقته لحكم عليه انبلج لنا من أنوارها بقد رما وهبت لنا من القابل حتى شهدنا من الدلائل والحجج ما به جذبتنا تلك الغيوب إلى الفرار إلى حضرتك العلية لتزيدنا علما بمعانى صفاتك حتى تسكن نفوسنا إليك يا ربنا وتطمئن قلوبنا بذكرك.

"سُبْحَانَكَ" علوا لك عن أن تدرك العقول غوامض أسرارك فيما انبلج لنا من آيات ما أبدعته يا بديع ، فكيف تحوم الأرواح حول قدر عظمتك وكريائك.

"فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" أى احفظنا من الغفلة والنسيان ومن المعصية والمخالفة التى توعدت فاعليها بعذاب النار يوم القيامة ، وهذا مقام السالكين، وأما مقام الواصلين فقنا عذاب النار ، نار الحجاب عن شهود آياتك وفقه بيناتك ، وأما المتمكنين فيطلبون وجدا لا تواجدا "فقنا عذاب النار" نار الشغل بالحب عن المحبوب وبالعلم عن المعلوم وبالنعمة عن المنعم حتى يقع بنا العلم على عين اليقين فى مقام التمكين بعد التلوين.

قوله تعالى : **"رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ"**(192).

أنك من تدخله النار بسابقة السوءى دخولا مخلدا فيها **"فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ"** أى أهلكته ، والله تعالى لا يخزى أهل الإيمان ولو أنهم فعلوا الذنوب ولو قدر عليهم دخولهم **"يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ"**[1] وبهذا أمتنع

([1]) سورة التحريم : 8.

قول من قال أن مرتكب الكبيرة إذا دخل النار فقد أخزاه الله ، وعلى ذلك يحكم على مرتكب الكبيرة بالكفر ، وهذا ليس مذهب أهل التحقيق . قال تعالى **"إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ"**[1].

"وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ" أى ليس لمن ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من أنصار ينصرونهم ، وأنى أعتقد أن النصرة يوم القيامة عند الله تكون بالتوبة قبل الموت وبالعفو من الله ولو لم يتب المؤمن من ذنوبه ، وبشفاعة الأقارب الذين أحسن المسلم إليهم ، وبشفاعة الإخوان الذين انتفعوا بالمسلم فى دار الدنيا ، وبشفاعة الملائكة كما ورد ، وهؤلاء كلهم أنصار أذن الله لهم بالشفاعة لديه لمن شاء.

قوله تعالى : **"رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ"**(193).

هذا النداء للأرواح فى يوم ألست بربكم – حيث أخذ الميثاق – وفى دار الدنيا هم رسل الله وأنبياؤه والدعاة إلى الخير والقرآن المجيد فإن المنادى بالإيمان معلوم.

"أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا" بمعنى التصديق به ن أى صدقوا بربكم "فآمنا" أى قبلنا لما تفضلت به علينا من القابل وما أعنتنا به من الهداية وأكرمتنا به من بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وذلك فضلك العظيم فلك الحمد ولك الشكر.

"رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا" خبر عن أولى العالم ، الذين أظهر لهم كمال العلم عجزهم عن القيام بالشكر للمنعم جل جلاله وعن القيام بحقوق العبادة الواجبة عليهم بالقلب والروح والعقل والجسم ، وحققهم العلم بأنهم بقصورهم وتقصيرهم يستحقون عذاب النار عدلا وجملهم العلم بالطمع فى فضل الله ورحمته لأنه لا تضره معاصيهم ولا تنفعه طاعاتهم فسألوه سبحانه وتعالى أن يغفر ذنوبهم فضلا منه ، وهذا العداء يشرح الصدر ويطمئن القلب ويجعلنا نطمع فيما نحبه من الله فيمنحنا ما هو أكمل مما نحب ، كما ورد أن الله يمنح رضوانه الأكبر لأهل الجنة بعد أن يعرفوا بأنهم نالوا مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيتفضل بالمزيد عليهم بما لا يتصورنه من الخير والنعيم والغفر "هو الستر" والمعنى أستر عنا ذنوبنا وعن جوارحنا ومعلمنا من الأرض حتى نلقاك وليس علينا شاهد بذنب.

"وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا" أى استرها عنا أيضا ، ويظهر أن الفرق بين الذنوب والسيئات أن الذنوب هى أعمال الخطايا من الكبائر ، وأن السيئات هى الخطايا وهى أيضا من الذنوب إلا أنها أقل . قال الله تعالى : **"إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا"**[2].

"وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ" هذه الآية الشريفة تدل على كمال أدبهم وسعة علمهم لأنهم لم يقولوا وتوفنا أبار لأن البار من بر ربه ، وأن لم يكن هؤلاء الذين وصفهم الله بأكمل صفات العبودية يكون أبرارا فمن يا ترى يكونوا ، ولكن العلم ملأ قلوبهم خشية من الله فتأدبوا لحضرته أدب العلماء بالله الذين لا يأمنون مكر الله كما قال تعال: **"وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا"**[3] وليست الواو هنا للعطف بل هى للمدح والذين **"يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا"** هم الذين يقولون **"رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ"** قال صلى الله عليه وسلم "أدبني ربى فأحسن تأديبي" وهؤلاء جملهم الله بقسط عظيم من آداب رسول اللهε.

قوله تعالى : **"رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ"**(194).

معنى هذه الآية أنهم رضى الله عنهم يسألون الله تعالى أن يعطيهم النصر على الأعداء ، وأن يعلى كلمته وأن ينشر دينه من حيث لا يحتسبون ، لأنهم كانوا فى قل وذل وكان الكفار فى كثرة وقوة ، وذلك بعد يقينهم الحق أنه جلال جلاله لا يخلف الميعاد وتحققهم أنه عز وجل قادر لا يعجزه شىء ، وقد سمعوه جل جلاله يقول : "أن الله لا يخلف الميعاد" وهذا الدعاء لعلمهم إمهال الله وصبره وحلمه على أعدائه ، وهم يسألونه سبحانه سرعة أهلاك الأعداء ليستريحوا منهم وليتفرغوا لعبادته وإعلاء كلمته.

وهذا التأويل إذا فهمنا أن الآية دعائية , وان فهمنا أنها سيقت مساق الخبر كان معناها آتتا الهداية والتوفيق والعناية , وأقمنا بها مقام من وعدتهم على السنة رسلك بالفوز النعيم المقيم فى دار رضوانك الأكبر , فان ظاهرها

([1]) سورة النساء : 31.

([2]) سورة النساء : 31.

(3) سورة الفرقان : 64.

أنهم قاموا لله بما يتحققون به أنهم ممن وعدهم الله بفضله العظيم ويسألونه الوفاء لهم بوعده , وفى فهم هذا الظاهر مالا يليق بأدب العبيد المخلصين لرب العالمين.

وجائز أن تكون الجملة دعائية وتكون المعنى **"رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ"** الى قوله تعالى : **"وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ"** ويكون قوله **"رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ"** مؤولة بمعنى لنفوز بما وعدت به أحبابك على السنة رسلك , وهذا التأويل لم يسمع من فصيح كلام العرب .

والذى يناسب الآية أنها دعائية وأن الذى وعدهم الله به على لسان رسله هو النصر والظفر بإهلاك الأعداء والتمكن فى الأرض بالحق للحق .

"وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ" الخزى هو الهلاك أى لا تهلكنا بذنوبنا وسيئاتنا يوم يقوم الناس لرب العالمين , وقد وعد الله المؤمنين بأنه لا يخزيهم بقوله **"يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ"**[1] ,وهذه الآية الشريفة هى النور الذى يهتدى به السالكون طريق الله تعالى , وهي الميزان الذى يزنون به أحوالهم وأعمالهم , فترى أقرب مقرب من أهل الإيمان منكسر القلب أمام الرب جل جلاله أدبا لحضرته العلية طويل الحزن كثير التبتل والتملق بين يديه عملا يعلمه .

قوله تعالى: **"فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ"**(195)

الاستجابة هنا هى الإجابة لمن سأل ربه مخلصا قلبه صادقا لسانه , والألف والسين والتاء إشارة إلى أن الإجابة حصلت للسائلين بأعيانهم بدليل قوله تعالى **"فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ"** أى أنى لا أضيع ثواب عامل منكم , وهنا – لا – نافية وأضيع نفى , ونفى النفى إثبات فانه سبحانه أضاعته ثواب الأعمال فثبت الثواب **"مِنْكُمْ"** .

من هنا بيانية . والمراد عمل عامل يعمل الخير , وقوله تعالى **"مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ"** تقدم في الهجرة ما يناسبها أنه سبحانه يذكر الرجال ولم يذكر النساء فقالت السيدة أم سلمة يا رسول الله أن الله ذكر الرجال ولم يذكر النساء , فأنزل الله تعالى هذه الآية الشريفة لبيان تفصيل الحقيقة **"بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ"** ليس المراد منه الأنوثة أو الذكورة بل المراد النوايا والقصود والأعمال .

"فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا" الآية بعد أن بين دلائل التوحيد في الآية السابقة وفي الآية التى سبقت قبلها في السورة التى تذكر فيها البقرة علمنا الدعاء سبحانه , وبين لنا أن من آداب الدعاء المقبول أن نفتتحه بالتسبيح والتحميد بعد الذكر الذى يستغرق أنفاس وهيئات الذكر قياما وقعودا واضطجاعا , بعد ذلك بشرنا جل جلاله باستجابته لنا وبين لنا أن الفضل بيده إذ لا فضل لأبيض على أسود ولا لذكر على أنثى ولا لعربى على عجمى بل ولا لحقيقة من نور أو نار على حقيقة من طين بل الفضل بيده يهبه لمن يشاء , وفى ذلك يحصل الصفاء للقلوب من أشوب الشرك بزهو حقيقة على حقيقة واعتماد حقيقة على حقيقة أخرى , بل الكل سواء عند الله تعالى كما سيبين ذلك فى الآيات الآتية .

وميز سبحانه وتعالى من خصهم بفضله وأقامهم في محابة ومراضية حتى يصح التشبه والتقليد لمن ثبتت لهم العناية وسبقت لهم الحسنى فقال سبحانه **"فَالَّذِينَ هَاجَرُوا"** أى فارقوا أرض الكفر والفتن والإحن والمحن فرارا بدينهم إلى حيث تستريح أبدانهم من خوف الوقوع في الفتن المضلة **"وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ"** الهجرة هى الخروج إلا أنه يكون بإرادة الإنسان وحرصه على حفظ أنفاسه مع ربه , وأما الإخراج فيكون بإكراه الأعداء وبخدعهم وكيدهم للمسلمين **"مِنْ دِيَارِهِمْ"** وهم المهاجرون الأولون الذين هاجروا إلى الحبشة .

ولما وصلوا إليها استأذنوا على النجاشي فقالوا لحاشيته أن أولياء الله بالباب يستأذنون عليك , فلما سمع ذلك أنس قلبه وأقبل مرحبا بأولياء الله فرحا , فهداه الله إلى الإسلام على أيديهم , وهاجر في المهاجرين الأولين أبو بكر رضى الله عنه , فلما بعد عن مكة قابلة سيد القادة فقال فيم خرجت , قال أخرجنى قومى , فقال مثلك لا يخرج وأرجعه إلى مكة وقال هو فى ذمامى , فقال له أهل مكة أنه رجل يتغنى بقول هذا الصائبى فتجتمع عليه النساء والصبيان والعجائز فنخشى أن يصبو معه , فأخذ عليه العهد أن لا يتغنى بذلك , فلم يطب لأبى بكر الإقامة بدون أن

---

(1) سورة التحريم : 8 .

يرتل القرآن في الشوارع والطرقات فبنى له حجرة وجعل لها أربعة منافذ وصار يجلس فيها ويقرأ القرآن فتجتمع عليه النساء والصبيان والعجائز , فأرسلت قريش الى سيد القادة فلما حضر قالت أن أبا بكر خفر ذمامك فتبرأ منه , فقال أبو بكر أنا فى حماية الله ووقايته , وبعد ذلك أذن لرسول الله ε فى الهجرة فسأله أبو بكر الصحبة فقال هى لك يا أبا بكر , وهاجر معه ε أبو بكر .

(وأوذوا فى سبيلى) أى حصلت لهم الأذية فى محافظتهم على دينهم, وفى اعتداء الأعداء كما حصل لبلال ولياسر وعمار أبنه وسمية أم عمار رضى الله عنهم و بغيرهم من المستضعفين من الرجال والنساء , فأنهم رضى الله عنهم قد تحملوا من الأذية الفادحة قبل الهجرة وفي الهجرة وبعدها ما جعلهم من القرب إلى الله تعالى بمكانة لو جاهدنا ألف سنة لا ننال نصفهم , وقد كتبت تراجم عشرة منهم فى رسالة خاصة جعلت أكمل مجاهد إذا قرأ ترجمة رجل منهم تتضاءل فى نظره نفسه , وكفاهم شرفا أنهم بذلوا دينهم ومالهم ووطنهم وأغراضهم التى هى محل المدح والذم واحتقروا ما بذلوه شكرا لله على نعمته عليهم بحبيبه محمد ε فبذلوا النفوس على ظبى السيوف شكرا لله , قال بعض العلماء – الهجرة انتهت بعد فتح مكة ولم يبق إلى الهجرة من محارم الله إلى محابة ومراضية , وقال بعضهم لا يزال باب الهجرة مفتوحا وخصوصا عند المقتضيات .

وعندى أن باب الهجرة فتح فى هذا العصر . دليل ذلك قوله تعالى : **"الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا"**[1] والقابض على دينه فى هذا العصر كالقابض على الجمر , لأن أعداء الله بنى الأصفر جاسوا خلال ديارنا وطعنوا فى ديننا , وسارع فيهم أهل النفاق رضا بالحياة الدنيا و اطمئنانا إليها ونسيانا ليوم القيامة , والواجب على المسلمين في هذا العصر ممن يعجزون عن الهجرة إلى أرض إسلامية أن يتحصنوا بحصن الأمن وهو التحيز إلى فئة قوية مسلمة أو المؤمنين من شرها .

ومن أشرب عن قلبه الرضا عن أعداء الله وظن أن يعتذر يوم القيامة أو نسى الآخرة كان ممن يقال لهم يوم القيامة أدخلوا نار جهنم , أعاذنا الله وإخواننا المؤمنين من شرها .

"وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا" وقد قرئت قتلوا وقاتلوا وقرئت بالتشديد , والمعنى عن الرواية الأولى وهى قاتلوا وقتلوا بالتخفيف ظاهر : وعلى الرواية الثانية أن بعضهم قتل وبعضهم قاتل .

"لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ" . هذه الآية الشريفة أثبتت الشفاعة لأن الله تعالى شفع المؤمنين فى أنفسهم فكيف لا يشفع الأنبياء والمرسلين , وذلك لأن الله لم يسبق خبر منه سبحانه وتعالى يدل على أنهم تابوا من ذنوبهم قبل موتهم . و أذن فالشفاعة تكون لأهل الخطايا يوم القيامة وتكفير السيئات أى سترها .

"وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ" اللام فى **"لَأُكَفِّرَنَّ"** **"وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ"** للقسم , والجملتان جوا بان للقسم , و الجنات هي البساتين التى لا يرى الخارج عنها داخلها ولا داخلها الخارج عنها **"تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ"** أى من تحت أشجارها حتى يكون من يدخله الله فيها دائم الفرح والمسرة غنيا بالله عن الاحتياج إلى شئ يتعبه .

"ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ" أى جزاء تفضل الله به علنا من عنده بلا حول منا ولا قوة ولا عمل إلا بفضله و إحسانه **"وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ"** أى حسن الجزاء الذى يتفضل به على من سبقت لهم الحسنى منه سبحانه .

قوله تعالى : **"لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ"**(196).

"مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ"(197).

الخطاب لرسول اللهε والمراد أصحابه عليه السلام والأمة فأسلوب القرآن انما يخاطب الأمة فى شخص رسول اللهε , والمراد الأمة لأن الله عصمه من أن يغره شأن من شئون الكفار لما أجلاه الله له من حقارة الدنيا ودناءتها وأنها لا تساوى جناح بعوضة عند الله تعالى .

وسبب نزل الآية أن بعض الصحابة قال : أن أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد ونزلت الآية ومعناها – لا يغرنكم تصرف الذين كفروا فى خيرات البلاد ونعيمها من وفرة الأموال وكثرة الأولاد ونفوذ الكلمة ومن استدراج الله لهم ليرتكبوا ما يخلدهم فى نار جهنم يوم القيامة أذا أخذهم أخذ عزيز مقتدر فلا يفلتهم .

---

(1) سورة النساء : 97 .

وبهذا نهانا جل جلاله عن أن نغتر بما فيه الكفار من غبطتهم وحظوظهم فى الدنيا وزينتها , وبين لنا سبحانه حقيقة ما هم فيه بقوله تعالى : **"مَتَاعٌ قَلِيلٌ"** المتاع ما يمتع به الإنسان فيغنيه بأكل أو شرب أو استعمال فى لباس وفراش وأثاث حتى يفقد الإنسان النفع به فيطرحه فى أماكن القاذورات (ومتاع) هنا خبر لمبتدأ محذوف تقديره ذلك متاع , أو هذا متاع , وقليل صفاته , ولفظ قليل من الله تعالى جعلته أحقر حقير .

"ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ" أى بعد هذا المتاع القليل الذى لو نال الإنسان أجمله وأطيبه لما كان شيئا يذكر بالنسبة لنعيم الآخرة أو عذابها , وبعيشك لو تذكر الإنسان أن معصية الله فى الدنيا باستعمال ما حرمه الله سبحانه تؤل بالإنسان إلى الخلود فى النار لتمنى أن يكون ترابا وهو فى الدنيا قبل الآخرة ولم يقع فى معصية الله , و إنما كانت قلة متاع الدنيا بالنسبة لنسيم الآخرة **"مَأْوَاهُمْ"** أى مآلهم أن يؤلوا إلى جهنم , ومن كان مأواه جهنم **"وَبِئْسَ الْمِهَادُ"** يكون مهاده , ومن كان فراشه نارا أو غطاؤه نارا أو أرضه وسقفه نارا لأنه لم يصبر فى أيام الدنيا القليلة على العمل للآخرة – قليل عليه تمنيه أن يكون ترابا – أعاذنا الله من المعاصى .

قوله تعالى : **"لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ"**(198).

بعد أن ذكر وعيد الكفار وبين ما هم فيه من وفرة الأموال وكثرة الأولاد وحكم عليه بأنه متاع قليل زائل وبأن مآلهم إلى النار **"خَالِدِينَ فِيهَا"** بشر أهل الإيمان والتقوى بوعده الحق **"لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ"** أى الذين راقبوا ربهم مراقبة العالم الذى يخشى الله تعالى فسارعوا إلى القيام بأوامره وترك نواهيه سبحانه , وقد فصلت لك أنواع التقوى فيما سبق , وبشرهم هنا بقوله سبحانه وتعالى : **"لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ"** .

وفى قوله تعالى : **"لَهُمْ جَنَّاتٌ"** أى يتصرفون فيها تصرفا مطلقا بدليل قوله تعالى : "لهم ما يشاءون فيها ولدنيا مزيد" فهى فى حكم المملوكة لهم بفضل الله تعالى .

"تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ" أى من تحت أشجارها , وقد شرحت لك معنى جنة وجنة بفتح الجيم وكسرها وضمها لأن المراد منها الستر **"خَالِدِينَ فِيهَا"** وفى هذه الآية أنواع من البشائر .

البشرى الأولى **"لَهُمْ جَنَّاتٌ"** كما بينت لك .

والثانية **"تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ"** فهم فى راحة من عناء سقيا الأشجار.

"خَالِدِينَ فِيهَا" بشرى عظيمة لأن قلوبهم اطمأنت بها لخلود من غير موت , ولو قال قائل أن خلود المؤمنين فى الجنة فضل عظيم ولكن خلود الكافرين فى النار يخيل للإنسان أنه ظلم – والجواب أننا لو تركنا المؤمنين أبد الآبدين فى الدنيا لما ازدادوا ألا إقبالا على الله خشية منه ومسارعة إلى الأعمال الصالحات , ولو دام الكفار فى الدنيا أبد الآبدين لما ازدادوا إلا محاربة لله ولرسله عليهم الصلاة والسلام وجحدوا به سبحانه وتعالى ووقعوا فى أكبر الكبائر وهذا جزاء ذلك وما الله بظلام للعبيد .

"نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ" نصبت على الحال وجائز أن تكون مصدرا مؤكدا والنزل هو ما يعده الرجل الكريم لضيفه ثم يتحفه بعد ذلك بخير التحف , فتكون الجنة محل نزول المؤمنين وتكون رؤية وجه الله مزيد (من عند الله) حجة على أن العبادة فى الدنيا والهداية والتوفيق فيها والفوز بالجنة العالمية يوم القيامة كله فضل من الله تعالى سبق به القدر أزلا قبل الطاعات والقربات وكذلك العذاب الأليم يوم القيامة والكفر والجحود فى الدنيا من أهل الكفر سبق به القدر أزلا قبل وجود الكون والأناسى – قال بعض العارفين أنا لا أعبد ربا تغضبه سيئاتى وترضيه حسناتى ولكن أعبد ربا أقام من شاء فيما شاء مما سبق به أزله – قال سبحانه **"لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ"** وهذا القدم كان فى القدم سر قوله تعالى **"إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ"**.

"وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ" أى وما عند الله من النعيم المقيم والمسرات الدائمة خير للأبرار , وهم الذين أبروا الله تعالى فلم يخالفوا أمره ولم يعملوا ما نهى عنه, وفوقه مقام آخر يتذوقه من القرآن أهل التمكين من أحباب الله تعالى وأن لم يصرح به , وهو ما لدى الله تعالى وهو خير للأخيار , قال الله تعالى **"إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا"** [1] والأخيار هم المقربون .

قوله تعالى : **"وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ"**(199).

---

(1) سورة الإنسان : 5 – 6 .

شنع الله تعالى على أهل الكتاب فى الآيات السابقة , وأخبرنا سبحانه أنهم يقاتلون الأنبياء بغير حق وينكرون ما أنزله الله فى كتاب التوراة من صفات محمد ε وغير ذلك وفى هذه الآية , أخبرنا سبحانه وتعالى بأن من أهل الكتاب من يصدق بالله ويؤمن بما أنزل إلينا وما أنزل من القرآن والتوراة والإنجيل .

"خَاشِعِينَ لِلَّهِ" الخشوع هو انكسار القلب والجوارح خشية من الله تعالى , وخشوع الأرض هبوطها , وخشوع البصر غضه , ومعنى الآية الشريفة أن الله تعالى ألان قلوبهم وجوارحهم لما يحبه ويرضاه .

"لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا" أى لا يعملون عمل (فنخاص) وأمثاله, الذين لأجل أخذ عرض زائل من كعب أبن الاشرف جحدوا نعت محمد ε فى التوراة .

"أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ" اسم الإشارة عائدة الى قوله تعالى : **"وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ"** الذين آمنوا بموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم , وهذا وعد من الله تعالى وبشرى لهم .

ومعنى الآية أن الله تعالى يقول أولئك الذين آمنوا بمحمدε وبما جاء به من عند الله بعد أيمانهم بموسى وعيسى لهم أجرهم , وذلك الأجر عند ربهم جل جلاله حيث بتفضل الله تعالى عليهم بنعيم الجنة الدائم ويزيدهم من فضله بشهود جمال وجهه العلى لأن لله جعل لهم هذا الأجر عند ربهم , وبذلك ينعم جسمهم بنعيم الجنة وحسهم بما فيها من جمال السمع والبصر والذوق والشم واللمس وعقلهم بما فيها من جمال الآيات الإلهية وتنعم أرواحهم بالمحبة الإلهية وبالحكمة التى هى سر الإيجاد والإمداد لكل شىء .

"إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ" :

فى هذه الآية تدركه الأرواح الطاهرة , وهو أن سريع الحساب يحب أن يكون محيطا علمه بكل الحقائق ظاهرها وباطنها كليها وجزئيها , وأن يكون قادرا على حساب كل نفس وأن يكون حكيما مدبرا كل شأن من الشئون وأن يكون حكما عدلا – فهذه الآية الشريفة أثبتت لله جل جلاله الجمال والجلال والكمال والبهاء والنور , ومن تدبرها خشع قلبه بل وخشعت جوارحه خشية من الله تعالى , وهذه مقامات أهل الرعاية بعد الدراية والرواية .

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"**(200).

هذه الآية الشريفة فسرت وشرحت شرحا مناسبا للحالة الحاضرة سنة 1350 هجرية ونشرت بمجلة السعادة الأبدية بالعدد الخاص للسنة التاسعة [1] ونحن الآن فى سنة 1350 هجرية , بين الله تعالى لنا فى هذه السورة أكثر أحكام الشريعة من العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات التي يجب أن يجاهد المسلم نفسه حتى تنطبع على القيام بالعمل بها ابتغاء وجه الله تعالى , ولما كان جهاد النفس شاقا عليها تفضل الله تعالى علينا فختم السورة بهذه الآية الكريمة تقدم لنا الكلام على قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا"** وبينا سر النداء المفيد قرب المؤمن من الله تعالى حتى أنزله منزلة السامع لخطابه سبحانه القريب منه على بساط مؤانسته , وقول الله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا"** أى صدقوا الله ورسوله وقبلوا من رسول الله ε ما جاءهم به من عند الله مما هو خير لهم فى الدنيا والآخرة , وأن كان غير ملائم للنفس لأن النفوس نزاعة إلى ما يلائمها .

"اصْبِرُوا" أمر سبحانه بالصبر وهو حبس النفس عن الجزع , وحبس اللسان عن الشكوى , وحبس الجوارح عن التشويش , وقال ذو النون المصرى (التباعد عن المخالفات والسكون عن تجرع غضض البليات وإظهار الغنى مع طول الفقر بساحات المعيشة) وعرفه أهل الهمم العالية بأنه إلزام النفس الهجوم على المكارة فى طاعة الله , وقال عمر بن عثمان (هو الثبات مع الله وتلقى بلاءه بالرحب والسعة) وقيل الصبر أن ترضى بتلف نفسك فى إرضاء من تحبه .

ولما كان الإنسان بين تحصيل ما به تكمل نفسه وتدوم صحته , وبين معاملته لغيره , أمرنا سبحانه بالصبر فى الحالين , فقال جل جلاله **"اصْبِرُوا"** فيما يتعلق بخصوص النفس وهو حبس النفس على الأجمل والأكمل من كل شىء , ولا أكمل من رعاية أحكام الله تعالى , فالواجب علينا الصبر على عبادة الله وعلى تحصيل ما لابد لنا منه فى العلوم النافعة قبلت النفس أم أبت , وأهم ما تجب المسارعة إليه تحصيل العلم النافع وأن لزم ذلك هجر الأوطان ومفارقة الخلان وتحمل مضض الجوع والعرى والعطش والغربة وأحسن مواضع الصبر فى هذا الموطن , وكفى

---

(1) الامام أبى العزائم قدس الله سره , أصدر مجلة (السعادة الأبدية) عام 1917 م ثم أصدر مجلة (المدينة المنورة) عام 1923 م

بالمرء حماقة أن يسمع قول الله تعالى : **"أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ"**[1] ويرضى بالجهل , ثم الصبر على أن يقهر المؤمن نفسه وحظه وهواه لتثبت مع الله تعالى عاملة بمحابة ومراضية , وتنقاد لرسول الله ε عاملة بسنته ولو بلغ من الشهود مبلغا تحقق به أنه محبوب الله وأنه من أهل رضوانه , والمستظهر على رسول الله ε شقى وأن عمل خوارق العادات قال تعالى: **"وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً"**[2] وقال : **"إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ"**[3] لأن الله جعلهم بصفة من صفاته فهو سبحانه وتعالى الصبور فيمنحهم العطايا بقدره هو لا بقدرهم , وكفى الصابر شرفا أن الله معه قال سبحانه : **"إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ"** .

ومتى جاهد المسلم نفسه حتى تجمل بالصبر الذي بينته سهلت عليه المصابرة , ومتى تعاصت عليه نفسه أن تصير على نيل الخير الحقيقى لها كيف تلين لـه أن تصابر غيره , ولما كان الصبر هو خير خاص بالصابر كان الخطأ يمكن تداركه , والمصابرة مع الغير يصعب تدارك الخطأ فيها , فقد يترك المسلم المصابرة مع الغير فيهلك ويهلك غيره بحسب مكانته فى المجتمع .

أمرنا الله تعالى بالصبر فى أحوالنا الشخصية حتى نملك أنفسنا ملكا يجعلنا نسلم لرسول الله ε تسليما فنكون مع النبيين والصديقين والشهداء , قال تعالى : مخبرا عن كليمة عليه الصلاة والسلام (رب أنى لا أملك إلا نفسى) ولا صبر لمن ملكته نفسه , وإنما تزول النعم بعدم الصبر على تنفيذ ما أمر الله به وترك ما نهى عنه .

والصابر حقا من كان الله ورسوله ومرادهما أحب إليه مما سواهما ولو كان فى ذلك ما كان من فادح البلايا وعظيم الشدائد , وإنما تقوم الحجة على أن العبد صابر إذا ثبت مع الله فى أوسع الرخاء وأشد الشدائد , أمرنا الله تعالى بالصبر وهو الفاعل المختار لا يبدل القول لديه ولا الحكم الصادر منه ليبين لنا سبحانه ما تفضل بـه علينا من الوجود والحرية المطلقة وينسب لنا القيام بما به أحسن إلينا , فهو فضل من الله على فضل منه ونعمة متوالية على نعمة سابقة , فعلى المؤمن إذا سمع الله تعالى يقول (اصبروا) فأنه يقول لا حول ولا قوة إلا بالله .

أن الله تعالى إنما أمر بما أمر بـه لتقوم الحجة على أعدائه ولتتم النعمة على أحبابه , قال سبحانه : **"وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ"**[1] منحنا الله ذوق أوامره ونواهيه والعلم بحكمة أحكامه سبحانه , ولا يتحقق الصبر إلا بالعلم حتى يستبين للمسلم شر الخيرين وخير الشرين وشر الشرين وخير الخيرين ولو لم يلائم نفسه , ومن قال أنى صابر من غير انكشاف الحقيقة له فهو متملق أو منافق فقد يصبر الجاهل على ما يغضب الله ورسول الله ε فى المواطن التى يجب عليه أن يكون صبره الحقيقى بذل النفس والنفائس والهجوم على العظائم , وقد يدعى المدعى أنه مدار وإنما المداراة تقتضى حسن النية والطمع فى نيل من تداريه خيرا دينيا , وليست المداراة مستحسنة لعدو من أعداء الله مظاهر بالعداوة عامل على إطفاء نور الله ومحو سنن رسول الله , أو مبتدع مخدوع ممد للفتنة كما قال تعالى **"كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا"**[2] فيتبعه على غير بصيرة مخالفا لصريح حكم الله , كل ذلك ليس صبرا عند الله تعالى وعند رسوله وعند العلماء , وإنما هو بلاء وبعد عن الله تعالى وتخلق بأخلاق أهل النفاق كما يصبر اللصوص وأهل الفجور على متاعب السجون وآلام الضرب وتعرض النفس للقتل , هذا صبر ولكن عن الله تعالى وعن رسوله ε ومصابرة فى المعاصى أعاذنى الله وأخوانى من هوى يعمى وحظ يضل .

قصرت الصبر على تحصيل كمالات النفس وحبسها على ما يحبه الله تعالى من القيام بتنفيذ أحكام الله , وأن كان فى الصبر على مر القدر خير كثير للمؤمنين خصوصا عند الشدائد , فأنه نوع آخر وهو الرضا عن الله تعالى فيما قدر وهو حال أهل اليقين وصفات أهل العزائم الذين يحبون الله تعالى ويحبون ما يحبه , فان الله تعالى نهى عبيده عن الشر ولا ينهى سبحانه عن قبيح ويفعله وإنما يقدر للعبد الخير الذى هو خير فى الحقيقة ونفس الأمر وأن كان ظاهره بلاء وشدة فان عاقبته سعادة ومسرات دائمة والأمور بعواقبها فهو سبحانه جعل البلايا تمحيصا للنفس

---

(1) سورة البقرة : 67 .
(2) سورة الأنبياء : 35 .
(1) سورة الزمر : 10 .
(1) سورة الصفات : 96 .
(2) سورة الإسراء :20 .

ومعراجا للرقى إلى حضرته بالالتجاء إليه عند تنزله جل جلاله وبلاء يلجئ المسلم إلى الله تعالى ويقبل به عليه وهو عين الخير .

وفى الخير قال ε عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل وقال سبحانه وتعالى : **"إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ"**[1] , وفى الآية أيضا **"أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ"**[2] . إذا تقرر ذلك وتحقق المؤمن أن الله تعالى ناداه مثبتا له تصديقه بأن الصبر يعقبه الأجر وانه خلق من أخلاق الله تعالى وصفة من صفاته التى يظل بها من أحبه من عباده ثم يجزع ويهلع ويفارق الصبر مع اعتقاده بأنه معراج نيل الخيرات كلها , وتكلف يا أخى هذا الحال حتى تنطبع عليه لتكون مع الله ويكون سبحانه معك وليس ثم مقام أكمل وأجمل من أن يكون العبد مع الله تعالى أسأله أن يقيمنا فيما يحبه ويرضاه .

(وصابروا) وهو النوع الثانى من الصبر الذى اقتضته الحقيقة الإنسانية التى خلقها الله تعالى مضطرة إلى المبادلة المقتضية للمعاملة والمفاوضة والمنازعة فصابروا غيركم , والغير أنواع أما من معه فى المنزل من والدين وأقارب وأهل وأولاد , أو من معه من أخوته المؤمنين فى القرية أو المدينة , أو من معه من أهل ذمة الله ورسوله فى محلته , أو المجتمع الإسلامى , ولهؤلاء مصابرة خاصة بينها الله تعالى فى كتابه العزيز بيانا شافيا للعامة والخاصة فى قوله تعالى **"وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا"**[1] الآيات .

أما مصابرة الأعداء فتختلف باختلاف نوع العدو الذى عاديته لنفسك من أخونك , فيجب أن تتأدب بآداب الله تعالى فى قوله : **"وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ"** وان كنت عاديته فى الله تعالى لبدعة أو الظهور بشر وفسوق فتأدب بآداب رسول الله ε فى قوله (الدين النصيحة) والحديث مشهور وأن كان بغضك للقوم لما تناله منهم من العناء والتعب فى إصلاحهم فتدبر فى قوله تعالى **"يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ"**[2] .

أما المصابرة مع أعداء الله ورسوله ε فقد بينها الله تعالى ورسوله ε بيانا لا يحتاج إلى تأويل وتفسير قال تعالى : **"وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ"**[3] وقال سبحانه **"لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ"**[4] وقال تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ"**[5] وقال سبحانه **"فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ"**[1] ومصابرة هؤلاء يجب أن تراعى فيها الحكمة التى لا تخرج المسلم عن الإسلام ولا توقعه فى الحرج المضر بالأمة .

والواجب على المسلم فى مثل هذا العصر أن يرجع إلى أحكام الله تعالى إلا إذا اقتضى الحكم الشرعى أن تبذل النفوس والنفائس فلا نتقى لديها منهم تقاة بدليل قوله تعالى : **"وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ"** , والواجب على المسلمين فى وقت المصابرة أو يكونوا يدا واحدة على من صابروه من أميرهم لحقير هم خوفا من أن تفتح التفرقة بابا يدخل

---

(1) سورة آل عمران : 140 .
(2) سورة آل عمران : 142 .
(1)سورة الإسراء : 23 .
(2) سورة الحشر : 9 .
(3) سورة هود : 113 .
(4) سورة آل عمران : 28 .
(5) سورة الممتحنة : 1 .

(1) سورة المائدة : 52 .

العدو على جماعتهم , ولكن لا أقول أن إبداء الرأى من أهله والاختلاف فى الوسائل الموصلة إلى الغرض من التفرقة , ولكن أحب أن تكون الآراء لبيان الوسيلة التى بها نيل المقصد , وان تكون على بساط الأنس والصفاء , وأن يقبل الرئيس من أحقر المرؤوسين , فإنما هى نعمة من الله تعالى تنال بالهام منه سبحانه , فقد أمر الله رسوله المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى بالمشورة وقد أمر ε فى غزوة خيبر بالنزول فى مكان وقام فى غيره برأى رجل من الأنصار , وأحب أن يقاتل قريشا فى وقعة أحد بالمدينة وخرج منها بمشورة أحد الأنصار وهو من تعلم جلالة وقدرا ε , وقبل مشورة أبى بكر فى أسرى بدر .

فالواجب على المسلمين عند مصابرة العدو أن ينسى الرئيس ريائته والحقير ذلته ويتمثلون أنهم جسد واحد كل واحد منهم عضو مسارع لخير الجسد وحفظه , ونصرة الله ورسوله وعلى كل مسلم ألا يذعن إلا بعد أن تقوم الحجة وتتضح المحجة ويقوم مجاهدا لا مقلدا عاملا من عمال الله لا ذيلا , ويكون الرئيس فى هذا الوقت هو كتاب الله وسنة رسول الله ε , كما قال ε (المسلمون متكافئون) ومتى صابر المسلمون أعداء الله تعالى منحهم الله الخير جميعا أما بالشهادة والسعادة فى الآخرة . وأما بالتمكين فى الأرض بالحق والعلو فيها به سبحانه والأجر العظيم يوم القيامة .

ومن تحقيق نيل تلك الخيرات تضاءلت فى نظره ملاذا تلك الحية , وهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : (أن رأيتم فى اعوجاجا فقوموه) فقام شاب صغير فقال : يا أمير المؤمنين لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا وقد خطأته فتاة وهو على المنبر , فنادى بأعلى صوته (أخطأ عمر وأصابت امرأة) , ولم تأخذه العزة بالآثم وهذا هو الصبر الحقيقى و التصابر , وكل مسلم يحب السيادة والنباهة فى المجتمع وحسن الأحدوثة فتسلب الرحمة من قلبه ويعادى أخوته الذين هم أعضاؤه مخطىء وأن أصاب ومسىء وأن أحسن مضر وأن نفع , والخطأ فى المصابرة شر عام بخلاف الخطأ فى الصبر .

(ورابطوا) الربط معلوم لغة وهو حبس الحيوان لتوقى شره أو لنفعه أو لإعداد للعمل , والمرابطة فى الحقيقة الشرعية ربط الخيل على الثغور تجاه العدو الذى عد العدة لمهاجمة محلة المسلمين , وهى فرض كفاية على المسلمين وتتعين على كل مسلم فى موطنين إذا أحتل العدو بلاد الإسلام أو فئة من المسلمين تعينت على كل مطيق , و إذا عينها الأمام الأعظم خليفة المسلمين على فئة من المسلمين تعينت شرعا قالε : (كل واحد من المسلمين على ثغر من ثغور الإسلام فإذا تهاون أخوتك فاشدد لئلا يؤتى الإسلام من قبلك) .

وللمرابطة آداب وشروط , أولها أن يكون المرابط على يقين من حقارة الدنيا وفنائها وجمال الآخرة وبقائها حتى لا يخدعه العدو بآمال أو بموال يسارع فيه فيهلك الحرث والنسل , وأن يكون ذا غيرة على الحق ونصرة له , أو يكون عالما بقدر الحياة الإنسانية فى الحرية والإرادة وبقدرها فى الذلة والاستعباد .

سورة النساء

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا"**(1).

لما كانت تلك السورة المباركة جامعة لأحكام كثيرة وبيانات فى التوحيد والآداب والقصص , افتتحها الله بنداء الناس جميعا وأمرهم بتقوى ربهم جل جلاله , وذكرهم أنهم جميعا من أصل واحد لأفضل واحد منهم على الآخر إلا بالتقوى , وذكرهم بما لكل إنسان على الآخر بالنسبة للآيات القرآنية الجامعة فقال سبحانه وتعالى **"وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ"**.

فكان لافتتاح الآية شان يجعل القلوب تعقل عن الله أحكامه وآدابه التى أنزلها فى تلك السورة وفى قوله تعالى : **"اتَّقُوا رَبَّكُمُ"** الذى خلقكم بيان إلى أن الذى ربانا بإحسانه وخلقنا بقدرته وأمرنا بالفضل يجب أن يتقى , وتقواه سبحانه وتعالى سبق الكلام عليها لكنا نزيدك هنا أن التقوى بالنسبة لهذه الآية هى المسارعة إلى القيام بأوامره جل جلاله من فرائضه التى فرضها علينا عبادة له وشكرا , ومن عقد القلب على ما يجب له من كمال التوحيد والتنزيه والتفريد ومن رعاية الآداب مع الوالدين والأرحام , ومن العناية بحسن المعاملة مع كل إنسان بحسب مرتبته قرابة دينية أو وطنية , حتى يرى المسلم أن غيره من المسلمين جميعا أخوة له تجمعهم خصوصية الدين وتلك الاخوة فوق القرابة الطينية .

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى ينادى الناس جميعا ثم يأمرهم بتقوى حضرة الرب الذى تفضل فربانا بما لابد لنا منه وأكمل , فيسر لنا ما به قوام حياتنا من الهواء والشمس والقمر والأفلاك والأرض التى بسطها أمام أعيننا لننتفع بها فى سيرنا وزراعاتنا وبنائنا , ثم يسر لنا ما نحتاج إليه بعد ذلك من زراعات وصناعات و تجارات , وعلمنا جل جلاله ما به ننتفع بتلك الحقائق بل وما به ننوعها بحسب منافعنا .

"خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ" :

هذه الآية الشريفة ربط بها القلوب على محبة بعضنا بعضا , وأظهر لنا بها أننا فروع لأصل واحد والنفس التى ذكرها الله فى هذه الآية هى آدم الذى خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته – وهو أصلنا الأول – وما تفضل الله به عليه و بيان لمكانتنا سبحانه منه .

والمؤمن إذا تذكر من هذا الفضل العظيم فضل الله على أصلنا الأول ذكر فحضر فعجز عن شكر الله على هذا الإحسان , وكره أن يخالف هذا المتفضل سبحانه الغنى عنا , الذى أوجدنا من العدم واحسن إلينا بما لا نستحقه , وأمدنا بما به بقاؤنا إلى ما وقت لنا فى هذا الكون , وبذلك نستحى أن نخالف أمره بعد هذا الإحسان ..

"وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا" يعنى حواء لأنها كما ورد خلقت من ضلعه الأيسر , فكان لها أصلا وكانت له فرعا , ولذلك فأنك ترى الرجل يحب المرأة لأنها فرعه والأصل يحب الفرع , والمرأة تحب الرجل لأنه أصلها والفرع يحب الأصل , وفى هذه الآية إشارة إلى توحيد الله تعالى وقدرته على إيجاد الأجناس والأنواع الكثيرة من العالم فى ملكه وملكوته , وقد بين الله لنا تلك المعانى فى قوله : **"وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ"**[1] . فالذى خلق الناس من نفس واحدة وخلق كل شيء من الماء , فالإنسان الأول واحد والماء واحد , والذى خلقهما جل جلاله قادر أن يخلق – وهو الواحد الأحد – كل شيء من العرش إلى الفرش , وقد ظن بعض العلماء ممن لم يقع بهم العلم على عين الحقيقة أن حواء لم تخلق من آدم وقدر محذوفا فقال وخلق منها زوجها , أى من نوعها واستدل بان الشيء المخلوق من غيره . أما أن يكون عينه أو غيره وذلك غير ممكن , والحقيقة أنا نرى النخلة العظيمة تخلق من النواة ونرى الحيوانات يلدن غيرهن والنساء كذلك , وخير لمن يزعم العلم أن يسلم لله تسليما فانه قادر على كل شيء وما علينا إلا أن تقول (آمنا به كل من عند ربنا) .

"وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً" أى ونشر أوجد منهما رجالا موصوفين بالكثرة ونساء كثيرات بقدرة لا يعجزها شيء **"وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ"** .

لما ان بين للناس جميعا سرا من أسرار القدرة والحكمة طهرت به القلوب حتى اشتاقت إلى الاطلاع على الغيب المصون بعد تصديق خبر الله تعالى , رفع القلوب بعد نظرها فى الأسباب القائمة والآيات الجلية إلى مقام

---

(1) سورة الأنبياء : 30 .

أرقى وحال أعلى , فأمرها بتقوى الله تعالى التي يكون العبد فيها كمل إيمانه بالدلائل المحسوسة التى تؤيدها المحسوسات وعللها إلى ما فوق ذلك فقوله **"اتَّقُوا اللَّهِ"** بعد قوله **"اتَّقُوا رَبَّكُمُ"** وبعد قوله : **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ"** "واتقوا النار " جعل سبحانه تقوى الله جذبا للقلوب إلى حضرة علام الغيوب , وهو المقام الروحى الذى تطمئن به القلوب وتسكن إليه النفوس وتشهد فيه الأرواح وجه الله أينما ولت , حدث لم يكن للأرواح علة عند العذاب تدعو إلى تقوى الله طمعا فى النعيم المقيم ولا خوفا من العذاب الأليم , بل للكمال الذاتى الاسمائى الذى يستحق من العبيد الحب والتقوى له حق تقاته , قال تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ"**[1] وتقوى الله حق تقاته أن تذكره فلا تنساه وأن تطيعه فلا تعصاه وأن توحده فلا تجحده وأن تشكره فلا تكفره .

ومن تدبر الآية انكشفت له تلك الحقائق فذاق حلاوة الإيمان ولذة التقوى .

"الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ" وقرىء بتشديد السين أى تساءلون , وهذه الآية خاصة بالعرب لانهم يتساءلون بالله وبالأرحام , فيقول الرجل لأخيه أنشدك الله والرحم أن تفعل كذا أو تترك كذا , والأرحام معطوفة على الله تعالى لا على الضمير المتصل بالباء لأن عطف الظاهر على المضمر ضعيف , وقد قرأت بالفتح (وأولو الأرحام) المتصل كل واحد منهم بنسب يدلى إلى الأم .

"إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا" هذه الآية الشريفة بشرى من الله تعالى لأهل الإيمان الذين أقامهم الله فيما يحبه و يرضاه فانهم إذا سمعوا الله تعالى يقول **"إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا"**بتوكيد الخير فرحوا بإقامة الله تعالى لهم فى مراضية سبحانه وبأنه محيط علما بما أقامهم فيه , لأن رقيب بمعنى فاعل أى مراقب , وإنذار بعذاب شديد لأهل الكفر به سبحانه للمنافقين , فهى وعد ووعيد منه جل جلاله بعد أن وعد وتوعد فى الآيات السابقة بالتفصيل .

قوله تعالى: **"وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا"** (2) .

يأمر الله تعالى الأوصياء بأن يعطوا اليتامى بحسب الأصل أموالهم إذا بلغوا الرشد , و إنما سماهم سبحانه اليتامى بحسب ما كانوا عليه , لأنهم عند إعطائهم أموالهم لم يكونوا يتامى ولكن ذكر لفظ يتامى فيه بيان ليعطف عليهم قلوب الأوصياء كما قال هارون لموسى عليه السلام **"يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي"**[1] .

ففى قوله يا بن أم طلبا للعطف عليه , كما أن الله تعالى يقول : **"وَآتُوا الْيَتَامَى"** وان لم يكونوا عند الإعطاء يتامى **"وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ"** أى لا تأخذو الطيب الجيد من أموالهم وتضعوا بدله الردىء الخبيث من أموالكم وذلك فى الثمار والحبوب والزرع والأموال , فان بعض الأوصياء يتأول أسماء الأنواع مع اختلاف حقائق الأنواع سواء , فنهاهم الله تعالى عن هذا وأخبرهم أن استبدال الخبيث من أموالهم بالطيب من أموال اليتامى معصية كبيرة وإنما يكون التأويل حسنا عند الله إذا لم يكن الحكم صريحا , ويكون المتأول تحمل الأمر الشاق فى تأويله حتى يحتاط لنفسه فيكون له حق وليس عليه حق لغيره .

"وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ" معنى هذه الآية أن يكون الوصى غنيا مليا ثم يأخذ من أموال اليتيم مالا حاجة له اليه مع أن الشريعة أباحت للوصى الفقير أن يأكل بالمعروف , وفى هذا بيان من الله تعالى أن الوصى الغنى يعمل ولوجه الله تعالى :

"إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا" يعنى أن أكل الوصى مال اليتيم إلى ماله حوبا أى ذنبا عظيما جدا من اكبر الكبائر , لأن الوصى الغنى إذا أكل مال اليتيم إلى ماله دل ذلك على ذلك على سلب الرحمة من قلبه لنفسه ولأولاده ولليتامى – أما لنفسه فلانه نسى حساب يوم القيامة وخالف ربه فأوقع نفسه فى عذاب الله وليس هذا من الرحمة بالنفس , وأما لأولاده فلان الوصى إذا ظلم اليتامى آخذه الله بأن يترك أولاده ويوصى عليهم من يظلمهم حتى يعيشوا فى فقر و ذل وعذاب لعدم عناية الوصى بتربية أولاد من أكل أموال اليتامى .

وكفى بالإنسان قطيعة عن الله أن تسلب الرحمة من قلبه حتى لنفسه , والمؤمن يحب أن يرحم نفسه أولا وبالذات وبقدر رحمته لنفسه تكون رحمته للناس بقدر ما أوجبه الله عليه لهم .

قوله تعالى :" **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا"**(3) .

---

(1) سورة آل عمران : 102 .

(1) سورة طه : 94 .

بين جل جلاله أحكام الأوصياء مع اليتامى فى الآية السابقة , وبين فى هذه الآية أحكام نكاح اليتامى وغيرهم : وقوله **"وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا"** أن شرطية وخفتم فعل الشرط وأن تقسطوا أى لا تعدلوا و أنكحوا جواب الشرط .

وسبب نزول هذه الآية أن الوصى كان يرى اليتيمة ذات مال وجمال فيتزوجها بمال قليل أقل من صداق المثل , ثم يظلمها ويؤذيها حيث لا تجد نصيرا ينصرها عليه , فسألوا رسول اللهع عن ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية, ومعناها أن الله يأمر بترك زواج اليتيمة إذا ظن أو تحقق عدم العدل فى معاملته , فأمر سبحانه الوصى أن يتزوج ما طاب له أى ما حل له من النساء مثنى ويعنى أثنين وثلاث وأن خشى على نفسه العنت وكان قادرا على الإنفاق , ورباع أى له أن يتزوج ثلاثا وأربعا , وقوله مثنى وثلاث ورباع ألفاظ معدولة عن أثنين وثلاث وأربع , وما فهمه بعض العلماء من إن مثنى وثلاث ورباع يعنى أثنين أثنين و ثلاثا ثلاثا وأربعا أربعا فهو فهم يمنعه الإجماع الكلى , على أن المسلم لا يحل له من النساء إلا أربع .

"فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا" فى العدد المتقدم لمانع شرعى فواحدة , أى فالواجب عليكم أن تقتصروا على واحدة من النساء , وهذه الآية تدل على أن الزواج واجب بدليل قوله تعالى : **"فَانْكِحُوا"** والشافعى رضى الله عنه يرى على أن الزواج أقل من المندوب بدليل قوله **"وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ"** الى قوله تعالى **"وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ"** وأراد أن تصبروا أى تتركوا الزواج خير لكم , فيكون ترك الزواج خيرا وما كان تركه خيرا لا يكون واجبا .

ولنا أن نقول أن تركه فى مثل هذه الحالة خيرا , ولكنه قد يكون واجبا فى غير هذه الحالة إذا توفر اليسار والقدرة على الواجبات والمندوبات الشرعية للزواج .

"أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ" يعنى أنه أن خاف أن لا يقسط فى الواحدة الحرة فما ملكت اليمين , لأن الواجب للحرة لا يجب للأمة , وكثير من يعجز عن القيام بواجبات الحرة فأباح الله له أن يجعل المملوكة سرية له .

(ذلك أدنى أن لا تعولوا) الإشارة هنا الى ما سبق من الأحكام و (أدنى) أى أقرب والعول الميل والعيل والفعل منها عال يعول أى مال يميل وعال يعيل أى أفتقر يفتقر , واسم الفاعل منهما عائل وهو فى تصرفه عاول أو عايل , قلب حرف العلة همزة فيها للتحرز من التقاء لينين فجعل حرف العلة حرفا يابسا ليسهل النطق .

قوله تعالى : **"وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا"**(4) .

أن كان الأمر للزوج دل على وجوب الصداق فان نحلة وجوبا وأن كان الأمر للولى أو الوصى أوجب على من تولى العقد أن تعطى المرأة صداقها , وكان فيما سبق اذا زوج الرجل أبنته أو أخته أو من له عليها الولاياية أخذ صداقها لنفسه , فأمرهم سبحانه أن يؤتوا النساء صدقاتهن نحلة أى وجوبا عليهم .

فأن طابت أنفسهن أن يعطينكم منه شيئا فكلوا هنيئا مريئا , وفى هذه الآية بيان للأزواج وللأولياء أنهم لا يأخذون من الصداق إلا إذا طابت أنفس الزوجات , وطيب أنفسهن مقدر فى الشريعة تقدير يجب رعايته حتى يكون المأخوذ هنيئا مريئا للآخذ .

قوله تعالى : **"وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا"**(5).

بعد أن أمر الله تعالى الأولياء بأن يؤتوا النساء صدقاتهن نحلة , وأمر الأوصياء بأن يؤتوا اليتامى موالهم الصداق للزوجات وأموال الأيتام لهم عند البلوغ مباشرة , ولكن الله سبحانه وتعالى العليم الخبير أنزل هذه الآية بعد تلك الآيات السابقة مباشرة لارتباطها بها مبينا فيها أننا لاندفع الصداق للنساء ولا الأموال لليتامى إلا بعد أن نتحقق أنهم بلغوا كمال الرشد , فأننا اذا أعطيناهم الأموال وأسرفوا فيها فأضاعوها نكون قد أسأنا إليهم والى أنفسنا أيضا , أما إليهم فظاهر وأما إلى أنفسنا فأنه يجب علينا رحمة بهم أن نرحمهم فى فقرهم وغناهم .

وفى قوله تعالى : (أموالكم) بإضافة المال إلى الأوصياء مع أنه مال اليتامى دقيقة لطيفة , وهى أن الله تعالى أنزل هذا المال منزلة مال الأوصياء الذى يجب عليهم أن يخافوا عليه فلا يضعوه إلا فى موضع حصين يحفظه , ومن جهة أخرى أنهم مطالبون أن يكونوا لليتامى كما كان لهم أبوهم وكما يحبون أن يكون الأوصياء بعدهم لأولادهم فقال : **"وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ"** لأن المال فى يد الوصى بالنسبة لأن صاحبه سفيه صار كأنه مملوك له يجب أن يحافظ عليه محافظته على ماله الخاص .

"الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا" الجملة صفة لأموال يعنى الأموال التى جعلها الله لكم لتبادل مرافق الحياة وبها فع الضرورة عنا وجلب المنافع , وبذلك يجب علينا أن نحافظ عليها وأن ننفق منها بقدر حفظ الحياة والعرض والشرف .

ولما كان أول الآية أنه نسب الأموال للأوصياء ساق الآية هذا المساق , والمراد أن الأموال أموال اليتامى وأن الله تعالى جعلكم قواما لليتامى , لكنه سبحانه وتعالى يملأ القلوب عطفا ورحمة وعناية بحسب سياق آياته الشريفة .

"وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا" الرزق هو ما يقدم من القوت واللوازم متواليا بحسب الضرورة , وهو يشمل الطعام والشراب والخادم والمأوى والمعين (وفيها) نهاية الرحمة العامة من الله لأنه لم يقل منها ولو قال منها لضلع مال اليتيم قبل بلوغه الرشد أو لعاش يتيما معوزا ولكن الله رحمة منه ولطفا أمر الأوصياء. ان يرزقوا اليتامى فيها يعنى يتجرن بها ويعملوا معامل للصناعات أو مزارع ليربحوا من الأموال ما به يكون رزق اليتيم وكسوته وتحفظ رؤوس الأموال ويحفظ معها الربح بعد أجراء النفقة .

"وَاكْسُوهُمْ" أمر الله تعالى الأوصياء برعاية أخلاق وآداب اليتامى وهم فى سن قبولهم للنمو الجسمى والعقلى حتى يشبوا على الأباء والفضيلة والحياء , ويكون ذلك أن بأن يكونوا فى كلامهم معهم يراعون المعروف بين أنواع الناس فيقولون لهم ما يجمل من العبارة , ومن ذلك أن اليتيم إذا كان ذكيا بين له أن المال ماله وأنه إنما يحفظه له حتى يبلغ الرشد فيرده إليه وافر ويلاحظ أن ينزله منازل الكرامة , وأن كان بليدا سفيها نصحه وبين له عاقبة السفه والحمق حتى يرجعه بلطف إلى الحالة الحسنة التى يجعله فيها عضوا عاملا فى الأمة , أما الأوصياء الذين يفسدون أخلاق اليتامى ويعاملوهم معاملة العبيد ويخدعونهم فهؤلاء لهم عذاب اليم يوم القيامة , والقول المعروف بينت لك أنه يتفاوت بحسب أنواع اليتامى فمنهم من يحسن إليه الوصى ويتواضع له ليحفظ نفسه من الرعونة والحدة ويكون هذا من القول المعروف .

قوله تعالى : **"وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا"**(6) .

الابتلاء هو الاختبار والامتحان لينكشف للوصى ما هم عليه من الحالة النفسية من حيث الروية والحكمة والأناة , أو العجلة والحدة والإسراف والتبذير , والابتلاء جائز أن يكون من الصغر لينبت نباتا حسنا حتى إذا بلغوا الحلم كانوا متدربين على ما به يدفعون عن أنفسهم الشر ويجلبون لها الخير .

وجائز أن يكون هذا الابتلاء بعد كبرهم عند قرب الاحتلام بدليل قوله: (**حتى إذا بلغوا النكاح**) فيكون افتتاح الابتلاء عند قرب بلوغ الحلم وبهذا الابتلاء تظهر حقيقة اليتامى وتقوم الحجة بوجود الرشد فيهم , وبذلك يتعين على الوصى أن يدفع إليهم أموالهم بعد أن يشهد عليهم مراقبا ربه فى ذلك ليفوز بالجزاء العظيم من الله تعالى .

وهذه الآية الشريفة أنزلها سبحانه بعد أن أمر الأوصياء أن يؤتوا اليتامى أموالهم فى الآية السابقة وفى هذه الآية بيان للأوصياء من الله تعالى أنهم لا يدفعون الأموال للأيتام إلا بعد أن يتحققوا أنهم بلغوا الحلم , وبلوغ الحلم شرط أولى فى دفع المال إليهم , والشرط الثانى أن يدرك منهم الرشد , والرشد هو رعاية الحكمة فى كل عمل يتعلق بأمور الدين والدنيا .

"فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ" أى سارعوا أيها الأوصياء فى دفع الأموال لليتامى الذين بلغوا الحلم وآنستم منهم رشدا .

"وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا" أن الله بين لنا فى الأموال بيانا شافيا كافيا , فما ترك مالا من غنيمة ولا من ميراث ولا من زكاة ولا من دين ورهن إلا بين فيه كل البيان لنعلم قدر الأموال فى القلوب وأنها سبب الفتن والمحن والحروب .

فنراعى أحكام الله قيها ليدوم لنا الصفاء والوفاء مع إخواننا فى الدنيا ونفوز برضوان الله يوم القيامة , وليس الرجل من صام وصلى وحج وملأ الأرض علما وعملا إنما الرجل من جمله الله بالورع فى المعاملة بالأموال والعفة فى الأعراض والصدق فى القول ومن حرم الورع والعفاف والصدق ومنح كلمة كن لا تعتبره محسنا , فان الله تعالى يهب ملكه لشر خلقه كما نرى, ولكنه لا يهب شعب الإيمان إلا الخير خلقه , وهنا يقول الله تعالى : **"وَلَا**

تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا" ينهى الأوصياء عن ارتكاب الكبائر طعما فيما لا يحله الله لهم من مال اليتامى , وبين سبب هذا الطمع وهو الخوف من أن يكبر اليتيم فيستلم ماله , فيسرفون فى المال إسرافا يتجاوز حد الحق إلى الباطل وحد الحلال إلى الحرام مبادرة لسلب المال قبل كبر اليتيم , وهذا العمل جامع لعدة كبائر وهى السرقة والخيانة والغش وكون هذه كبائر إنما كان لوقوعها فى مال اليتيم .

"وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ" الاستعفاف هو العفاف وزيادة والله تعالى يأمر الأوصياء أن يتركوا الانتفاع بمال اليتيم , وأن يجعلوا العمل فيه ابتغاء مرضاة الله تعالى , فيقومون بالأشراف على أموالهم الخاصة , , لأن الأوصياء يقومون لأخواتهم المؤمنين بعد موتهم حتى كان آباءهم لم يموتوا ليفوزوا بالحسنيين , الحسنى فى الدنيا بعناية الله بأبنائهم بعد موتهم وفى الآخرة بالفوز برضوان الله , وفى قوله تعالى فليستعفف فى تحذير الأوصياء الأغنياء رحمة باليتامى .

"وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ" الفقير نوعان فقير لا ينتظر يسارا وحكم هذا أنه يأكل من مال اليتيم بالمتعارف بين الناس بشرط أن يعمل فى مال اليتيم للتنمية وأن لا يتجاوز الأكل الضرورى واللباس الضرورى , وفقيرا ينتظر اليسار من معلوم له وهذا له أن يأكل من مال اليتيم قرضه يردها اليه متى تيسر , وأن مات الوصى قبل اليسار لا يسأل يوم القيامة , واختلاف بعض العلماء هنا بعد قول الله فليأكل بالمعروف وهو حكم عام صحيح لا يعارضه حكم عام وإنما هو أخذ بالأحوط.

ونهى الله الأوصياء عن أكل أموال اليتامى إسرافا وبدارا أن يكبروا – أنما هو تحريم للأكل بشرط الإسراف والمبادرة قبل كبرهم وهذه خيانة كبرى ، لكن الفقير الذى ينزل نفسه منزلة جباة الصدقات فإن لكل رجل منهم سهما فى الصدقة ، فكذلك لوصى اليتيم سهم فى ماله كما قال عمر رضى الله عنه لولاته حين كتب إلى عمار وأبن مسعود وعثمان به حنيف "سلام الله عليكم أما بعد فإن زرقتكم كل يوم شاة شطرها لعمار وربعها لعبد الله بن مسعود وربعها لعثمان ، إلا وأنى قد أنزلت لفمي وإياكم من مال الله منزل ولى مال اليتيم ، من كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيا فليأكل بالمعروف".

"فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ":

معلوم أن مفاتيح الفتن ثلاثة المال والعرض والدين والفتنة بالمال شر الفتن ، ولذلك بين الله فى أنواع الأموال بيانا كما قررت لك ليحفظها من استطراق يد السلب إليها يقول تعالى : **"فَإِذَا دَفَعْتُمْ"** أيها الأوصياء إلى اليتامى أموالهم وجب عليكم أن تشهدوا عليهم عدولا مقبولى الشهادة شرعا ، وهذا الإشهاد رحمة باليتيم وبالوصى ، أما رحمة باليتيم فقد يدعى الوصى أنه دفع إليه ماله وهو لم يدفعه وهو مقبول الشهادة شرعا ، ولكنه غير مقبولها عند اليتيم لأن القاضى ما أقام الأوصياء إلا بعد إقامة الحجة على عدالته ، ولو لم يأمر الله تعالى الأوصياء بالإشهاد على اليتامى لضاع مال اليتيم لما للوصى من الثقة عند القاضى ، والمال كما قدمنا مفتاح الفتن ولو لم يقل الله تعالى "فأشهدوا عليهم" لضاع مال الوصى إذا أنكر اليتيم أخذ المال ، والشريعة تراعى مصالح الخلق فكانت المصلحة فى قوله تعالى : "فأشهدوا عليهم" للجانبين والله أعلم بمصالحنا وهو الغنى الحميد.

"وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا" أى وكفى بالله محاسبا إذا تأولنا حسيبا من الكفاية – وفى هذه الآية يقظة لقلوب الأوصياء واليتامى ومراقبة لله تعالى.

قوله تعالى : **"لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا"**(7).

كان الناس فى الجاهلية لا يورثون النساء ولا الزوجات ولا الأولاد الصغار ، ويعطون الأموال لأولادهم الذين يضربون بالسيف ويطعنون بالرمح ، حتى بعث الله محمدε بالحق بشيرا ونذيرا وأنزل الله تعالى أحكامه لمناسبات الأحداث التى تقتضى الأحكام.

وسبب نزول هذه الآية الشريفة ، قال ابن عباس أن أوس بن ثابت الأنصارى توفى عن ثلاث بنات وامرأة فجاء رجلان من بنى عمه وهما وصيان له يقال لهما سويد وعرفجه وأخذا ماله ، فجاءت امرأة أوس إلى رسول اللهε وذكرت القضية وذكرت أن الوصيين ما دفعا إليها شيئا وما دفعا إلى بنات المتوفى شيئا ، فقال النبىε إرجعى إلى بيتك حتى انظر ما يحدث الله فى أمرك ، فنزلت على النبىε هذه الآية ودلت على أن للرجال نصيبا وللنساء نصيبا ، ولكنه تعالى لم يبين ما لكل واحد أو واحدة منهم فاجمل الحكم تأليفا للقوم الذين أعتادوا حرمان النساء والصبيان من الميراث ، فجمع الرجال والنساء فى هذا الحكم ليبين أن لكل ذكر أو إنثى نصيبا مفروضا.

وقوله تعالى : **"لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ"** بيان لأصحاب الفروض وهم الأباء والأولاد والأزواج ، وإذن فيكون قوله تعالى والأقربون بعد الوالدين هم الأولاد من ذكور وإناث وأزواج ، ومن فهم أن من ذكور وإناث وأزواج ، ومن فهم أن من ذكور وإناث وأزواج ، ومن أن من الأقربين ذوى الأرحام فقد توسع لأن قوله تعالى : "نصيبا مفروضا" . أخرج ذوو الأرحام ، لن ذوى الأرحام ليسوا من أصحاب الفروض ، ومعنى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى كما حكم فى كل أنواع الأموال بين حكمه سبحانه فى الميراث بيانا تقتضيه الحكمة ، فجعل الرجل والمرأة بحسب مرتبتهما سواء فى الميراث ، إلا فيما يخص كل واحد منهما فجعل للمرأة نصف ما للرجل لحكمة فوق مقدار العقول كما سيأتي بيان ذلك ، وتلك الحكمة هى أنه جل جلاله جعل الرجل يدفع صداقا للمرأة وأوجب عليه نفقتها ونفقة أولادها منه ولذلك جعل لها نصف ماله ، فلو فرضنا أن رجلا مات وترك ولدا وبنتا وترك ثلثمائة دينار ، فأخذ الولد مائتين وأخذت البنت مائة واحدة ، وبعد ذلك دفع الولد خمسين صداق زوجته وأخذت البنت خمسين صداقها من آخر فاستويا معا صار عند الرجل مائة وخمسون وعند المرأة مائة وخمسون ، وهى الحكمة التى حكم الله بسببها للرجل ضعف ما للمرأة ، ففرض الله للرجال وللنساء لكل واحد منهما نصيبا مفروضا من مال الميت لا فرق بين قليلة وكثيرة ، وحكم الله تعالى فى الأموال به حفظ المجتمع الإسلامى أخلاقا وصحة ويسارا ، حتى يكون المجتمع وسطا لا يعتوره الفقر فيفسد عليه حاله ولا الوسعة فى الأموال فتفسد عليه أخلاقه وآدابه ، والإخلاص لله فى المعاملة يطيل العمر ويوسع الرزق ويشرح الصدر ، ومن خالف أحكام الله فآثر نفسه بما لا يستحقه فى أى نوع من أنواع الأموال ضاق رزقه وقصر عمره وساء حاله وبغضه الناس ، لأن إيثاره بما لا يحل له مسخطة لله مغضبة للخلق.

والأولى لأهل الإيمان أن يحافظوا على أحكام الله تعالى للفوز بالحسنيين ، والفرض فى اللغة هو الحز الذى يكون فى الوتد ليربط فيه الحيوان ، بل هو الحز الذى يكون فى كل قطعة خشب يراد الربط فيها أو ربطها بأخرى ، ولواجب هو السقوط ، ولا فرق بين الفرض والواجب عند الشافعية إلا فى الحج ، فترك الفرض يبطل الحج وترك الواجب يوجب الدم ، أما الحنفية فأنهم يرون خلافا بين الفرض والواجب ، فالفرض ما ثبت بالكتاب والسنة والواجب ما ثبت بالسنة المؤكدة عندهم كصلاة الوتر.

و **"نَصِيبًا"** منصوب على الاختصاص و **"مَفْرُوضًا"** أى فرضه الله تعالى.

قوله تعالى : **"وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا"**(8).

هذه الآي الشريفة ، قال بعض العلماء أنها منسوخة بآية الفرائض ، وقال بعضهم ليست منسوخة ، وتأولوها بمعنى وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين ممن لهم فروض فى التركة فارزقوهم منها ، وأن لم يكونوا من أهل الفرائض فقولوا لهم قولا معروفا.

وجائز أن يكون تأويلها – وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين ممن لهم حق فى الميراث وممن لم يكون لهم حق وكان الورثة كبارا فالأولى بالورثة أن يتفضلوا على ذوى القربى واليتامى والمساكين الذين حضروا القسمة أحسانا لهم ورحمة بهم ، وأن كان الورثة صغارا فالواجب على الأوصياء أن يقولوا لهم قولا معروفا بأن يقولوا لهم أن هذا المال ليس لنا بل هو للقصر ، فإذا بلغوا الرشد فسيكرمونكم منه بما تحبون.

ومعلوم أن الأمر للوجوب ما لم يمنع منه قرينة ، والقرينة هنا قوله تعالى **"إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا"** ، وأكل مال اليتم الصغير الذى لم يوص مورثه ظلم.

قوله تعالى : **"وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا"**(9).

يحذر الله تعالى الذين يحضرون عند المريض وقد يئسوا من شفائه بعد، أن يراعوا جانب الله تعالى فى الورثة وغيرهم ، فلا ينوعون فكر المريض بأن يوص بأكثر من الثلث لأقاربه أو للفقراء ، ولا يكلفونه أن يحرص على الثلث من ماله فلا يوصى به فيكونون ظلموا الورثة أو ظلموا أولى القربى واليتامى والمساكين ، وحذرهم الله تعالى من الوقوع فى هذا الخطأ رحمة بأولادهم الذين يتركونهم بعد موتهم ، وفى هذه الآية كمال العطف من أصدقاء المريض على الورثة حتى لا يكونوا سببا فى فقر الورثة ، قالε "لأن تذر ورثتك أغنياء خير لك من حمر النعم".

"لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ" الجملة وأن كانت شرطية إلا أنها صلة الموصول ويكون التأويل "وليخش الذين وصفوا بأنهم لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم".

وجائز أن يكون معنى هذه الآية أدبا من الله تعالى يؤدب به الأوصياء بأن ينزلوهم منزلة أبنائهم ولا يأكلون أموالهم ظلما وبدارا أن يكبروا ولا يسيئون إليهم إساءة تجعلهم أذلاء مفسودة أخلاقهم فيكونوا أساءوا لليتامى وخالفوا وصية الله تعالى واستحقوا عقوبته فى حياتهم الدنيا ، وبعد موتهم يعاقبهم الله فى أولادهم.

والأولى فى تفسير هذه الآية بالنسبة لإرتباطها بالوصية قبلها أن يكون معناها كما بينت لك أن الذين يحضرون الرجل وهو يوصى لأولى القربى واليتامى والمساكين أن يحبوا لأولاد الرجل ما يحبون لأولادهم من اليسار والغنى ويرغبون فى أن يوصى بالثلث أو بأقل منه خشية من الله أن يظلموا أبناء الموصى بعده ، ولذلك يقول سبحانه بعد ذلك.

"فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا" بيانا من الله العظيم شأن اليتيم فى قوله : **"وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا"** فى كل ما ورد فى الأيتام من الوصية والتربية والكفالة والولاية فإن الوصى أمره الله تعالى أن يعامل اليتيم معاملة رحمة وعطف حتى لا يشعر بأنه فقد والده مع رعاية تأديبه وتهذيبه بحسب ما يناسب اليتيم سنا وعقلا.

قوله تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا"**(10).

معنى هذه الآية أن الله تعالى يبين حكم من أكل مال اليتيم بأنه أكل النار فى بطنه وأكد الآية بحرف التوكيد ثم أيدها بأداة الحصر ن وأكل مال اليتيم ظلما أن يأكله بدون حق شرعى ، والمراد بالأكل هنا كل ما صرفه من مال اليتيم من أكل ولباس وأثاث وغيرها ، ويتحقق هذا الأكل يوم القيامة فيلقمهم الزبانية رضف جهنم حتى إذا رآهم أهل الحشر يقولون هؤلاء أكلوا أموال اليتامى لأن علامة أكل النار يظهر فى أعينهم وفى آذانهم وفى أفواههم ، وقد يكون مال الأيتام نارا فى البطون فى تلك الدار الدنيا ، لأن النار تجعل الجوارح تفقد الحس فى الدنيا وأكل مال اليتيم يطفئ نور الإيمان الذى يحصل منه مراقبة الله ، فتفقد الحواس بأكل هذا المال الحياة التى تنال بها حلاوة التقوى والمسارعة إلى العمل بمحاب الله ومراضية ، كما يفقد العضو المحترق القيام بخصوصيته من الحس والشم أو الذوق أو السمع أو البصر.

"وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا" قرئ الفعل بفتح الياء وضمها – أى تشويهم نار السعير يوم القيامة.

قوله تعالى : **"يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا"**(11).

سبب نزول هذه الآية أنه مات عبد الرحمن ثابت وترك امرأة يقال لها أم كحة وترك خمس أخوات ، فجاء الورثة يأخذون ماله كعادة الجاهلية فشكت أم كحة ذلك إلى النبيε فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية **"فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ"** ثم قال فى أم كحة "ولهن الربع مما تركتم أن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم" وكان فى الجاهلية الأولى يعطون مال الميت للمقاتلين من أبنائه ، فلا يعطون البنات ولا الزوجات ولا الأولاد الصغار ، فلما أنزل الله تلك الآية وفيها فرائض الميراث كرهها الناس وقولوا يعطى المرأة الربع والثمن وتعطى الابنة النصف ويعطى الغلام الصغير وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ولا يحوز الغنيمة ، أسكتوا عن هذا الحديث لعل رسول اللهε ينساه أو نقول له فيغيره ، فقال بعضهم يا رسول الله أتعطى الجارية نصف ما ترك أبوها وليست تركب الفرس ولا تقاتل القوم وتعطى الصبى الميراث وليس يغنى شيئا ، فنسخ الله ما كان عليه الجاهلية وأحكم بتلك الآية حكمه فى الميراث.

"فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ" معنى هذه الآية الشريفة أن المتوفى إذا ترك أكثر من بنتين فلهن الثلثان والوالدين الثلث الآخر ، وأن ترك ابنة واحدة فلها النصف ، هذا أن كان الورثة نساء ، وأن ترك ولدا ذكرا فقد بين الله تعالى ذلك بقوله:-

"وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ" يعنى جل جلاله أن المتوفى إذا كان له ولد فلأبوية الثلث وللولد الثلثان ، فإن لم يكون له ولد وورثة أبواه فلأمه الثلث ، أى فإن لم يكن له ولد ولا أنثى ولا ذكر فلأمه الثلث ، وبهذا الحكم ثبت أن يكون لوالده الثلثان كما بينته السنة وفى هذه الآية بيان لفرض البنت الواحدة ولفرض الأكثر من الاثنين ، ولم يبين فرض الاثنين ولكن بينته السنة الشريفة.

"فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ"

اختلف العلماء فى الاخوة ، فمنهم من قال أقل الجمع اثنان ، ومنهم من قال أقل الجمع ثلاثة وهو قول ابن عباس ، وعلى قوله لا تحجب الأم عن فرض الثلث إلا إذا كان للميت أخوة ، يعنى ثلاثة فأكثر ، وعلى قوله ابن

عباس هذا فيكون للأم ثلثا الثلثين ، فإذا مات الميت وليس له إلا أم وأب وأخ أو أخت فلأمه الثلث كما فرض الله لها لا يتغير نصيبها ، وإذا كان له أخوان أو أختان فنصيبها لا يتغير أيضا كما قال ابن عباس ، ويتغير على غير قوله من العلماء فيكون لها السدس ، وقد ترك القرآن بيان حق الأخ الواحد أو الأخت الواحدة اكتفاء بما بينه أن لها الثلث إلا إذا كان للميت أخوة فلها السدس "من بعد وصية يوصى بها أو دين" أخر الله الدين هنا مع أنه مقدم شرعا على الفرائض والوصايا لحكمة أرادها الله تعالى ، وهى أن الورثة لا يجدون مشاحة فى الدين بل يدفعونه بصفاء من غير معارضة.

ولكنهم يجدون فى الوصية غضاضة فى أنفسهم ، فقدم الله الوصية حثا لهمم الورثة ، وأخر الدين لأنه لا مانع . فى تنفيذه ، وعلى هذا فيكون الدين مقدما شرعا وتكون الوصية نافذة ما دامت فى الثلث أو فى أقل من الثلث ، فإذا زادت الوصية عن الثلث كان للورثة الخيار فى تنفيذها.

"آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا" يخاطب الله بهذه الآية المؤمنون لعلمه سبحانه وتعالى بحرصهم على نفع أبنائهم وميلهم إلى أن يكون المال كله لأولادهم ، فبين الله لهم أنهم لا يدرون أبناؤهم أنفع لهم فى الدنيا والآخرة أم آباؤهم ، وأن قال بعض العلماء المراد بالنفع يوم القيامة ،ومتى كان الوالد صالحا تقيا والولد بارا صالحا انتفع بأبيه يوم القيامة أكثر مما ينتفع بابنه بل الإحسان إلى الوالد مطلقا ينفع الله العبد به يوم القيامة ، ولا ينتفع الوالد يوم القيامة إلا إذا كان صالحا تقيا يدعو له ، وفى هذه الآية بيان من الله تعالى للمؤمنين أن يحافظوا على إكرام الوالدين فى حياتهما وعن موتهما ، وعند موت من له مال يورث حتى لا يجدوا غضاضة فى أنفسهم من إعطاء الوالدين حقوقهما التى فرضها الله لهما.

"فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا" فريضة منصوب على المصدر أى فرضها الله تعالى ، فريضة وهى السهم الذى حكم الله به لكل وارث خصوصا الوالدين ، وفى قوله تعالى "من الله" تأكيد للفريضة حتى يكون منفذها فائزا بخير الثواب من الله تعالى ، ومن منعها فاعلا لكبيرة يعذبه الله عليها يوم القيامة.

"إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا" أكد الجملة بأداة التوكيد لتقوية الخبر ، وقوله سبحانه "عليما" أى محيطا علما بما تقدمونه من الخير لأنفسكم وما تعلمون من الشر لمخالفة أمر الله تعالى فيما فرضه عليكم فيجازى المطيع لأمره سبحانه بخير النعيم المقيم يوم القيامة والمخالف بالعذاب الآليم لأنه بحرصه على المال أقام الحجة على نفسه أنه مسلوب الرحمة والعطف والبر "حكيما" يعنى تعالى أن بين أحكام الميراث لحكمة عليه تتضمن الرحمة منه سبحانه والعطف لخير أفراد الأسر والمجتمعات فهو الحكيم جل جلاله فيما قدر من الأنصبة والسهام فى الميراث.

قوله تعالى : **"وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ"**(12).

بعد أن بين الله أحكام الميراث فى الوالدين والأولاد أردف ذلك بالأحكام المتعلقة بالزوجية لأنه ميراث بالواسطة ، فخاطب سبحانه الزوج قائلا **"وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ"** ، ذكر أو أنثى يعنى سبحانه وتعالى أن المرأة إذا ماتت وليس لها ولد ولها بنت فلزوجها النصف مما تركت ، فإن كان لها ولد فلزوجها الربع مما تركت . **"وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ"** أى للزوجة الربع مما ترك المزوج . أن لم يكن له ولد فإن كان له ولد فلها الثمن مما ترك الزوج ، جعل الله للذكر مثل حظ الانثين فى أحكام الزوجية ، فللرجل النصف إذا لم يكن للمرأة ولد ولها فى مقابل ذلك الربع ، وللرجل الربع أن كان لها ولد ولها فى مقابل ذلك الثمن.

"مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ" ظاهر هذه الآية يفيد أن المسلم له أن يوصى بكل ماله ولكن السنة عينت أن الوصية لا تصح إلا في الثلث والثلث كثير وقد تقدم معنى هذه الآية.

"وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ".

الكلالة هو من مات وليس له والدان ولا أولاد وورثة أقاربه فإن كان له أخ من أم أو أخت من أم كما ورد فى بعض القراءات.

يعنى أن الأخوة من أم أن كانوا اثنين فأكثر فحقهم الثلث بدليل آثة الكلالة التى فى آخر السورة وهى قوله تعالى : "يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة أن أمرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها أن لم يكن لها ولد ، فإن كانتا اثنين فلهما الثلثان مما ترك وأن كانوا أخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين".

ومعنى هذه الآية أن الأخت لأم وأب والأختين لأم وأب والأخوة لأم وأب حكمهم كما بين الله فى هذه الآية وسنفصل هذا الإجمال عند شرحها ، وتكون الآية التى نشرحها الآن بينت الأخ والأخت والأخوة من أم فقط "من بعد وصية يوصى بها أو دين" تقدم الكلام عليها.

"غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ" والضرر فى الوصية أن يكره صاحب المال أن يكون ماله لم يرثونه كلالة فيوصى به لضررهم أو يشترى شيئا رخيصا بثمن غال ليضيع المال أو يدعى أن عليه دينا وليس عاليه وما اشبه ذلك ، وكل ذلك لأنه يكره أن يكون المال لمن حكم الله لهم ولا يكون ذلك إلا فى الكلالة **"وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ"** أى عظة من الله يبين بها لأهل الإيمان ما يحبه منهم ليرضى عنهم لطاعتهم لله وقيامهم بالواجب عليهم لذوى أرحامهم **"وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ"** أى محيط علما بما تكنه ضمائر عباده فيعاملهم بحسب سريرتهم ونواياهم ، حليم سبحانه أى ذو حلم لا يسرع بالعقوبة على من عصاه.

وفى هذه الآية خوف وطمع لأهل الإيمان ، وفى قوله تعالى : "عليم" خوف يقتضي مراقبة الله تعالى فى معاملته وفى قوله : "حليم" يقتضي الطمع فى العفو والمغفرة إذا تاب من الذنب.

قوله تعالى : **"تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"**(13).

أى تلك أحكام الله تعالى التى جعلها حدا فاصلا بين الفوز بثوابه سبحانه وبين الوقوع فى مخالفته جل جلاله ، ثم بين ما للمطيع من الأجر فقال تعالى : **"وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ"** أى من يسارع إلى تنفيذ أوامر الله تعالى مجاهدا نفسه فى ذاته يدخله جنات أى روضات يتنعم فيها بالنعيم المقيم من غير عناء ولا مشقة لأن أشجارها تجرى من تحتها الأنهار "خالدين فيها" أى أن من يدخلها يعيش فى أنس وبهجة لا يخطر على قلبه ما يوحشه من ذكر الموت والفقر أو تسليط ظالم أو أمراض بل يكون فيها خالدا أبديا فى لذة وسعادة لا نهاية لها ، وذلك بسبب مسارعته لتنفيذ أوامر الله تعالى التى لم يحصل بسببها هم ولا كرب فى الدنيا ولا ضياع أوقات فى تنفيذها ، ولكن الذى يعمله هو إصدار أمره بتنفيذ حكم الله فى تركته فيفوز بهذه الملاذ دهر الداهرين . ومسلم يتدبر أحكام الله ويتدبر ما يناله من الخير العظيم بشئ قليل وتقهره نفسه الأمارة بالسوء فيخالف أوامر الله تعالى فليس بمسلم في الحقيقة ، لأن مخالفته لأمر الله تعالى من الكبائر التى يخلد بها فى نار جهنم من غير أن ينتفع بها فى الدنيا بشئ ، ومن فقه قوله تعالى : **"وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"** الآية التى هى ختام لقوله تعالى **"وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ"** الخ الآية.

والإشارة هنا إلى دخول الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار والخلود فيها والفوز معلوم . "العظيم" كلمة مجملة بينت ما يتفضل الله به على من يسارع فى تنفيذ أوامر الله تعالى فى الميراث ، وتفصيل هذه الكلمة فوق أن تعبر عنه الألسنة إلا بقوله تعالى : "وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون" وبين هذه الكلمة رسول اللهε بقوله : "فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" فأن قول الله "عظيم" ليس كقول غيره سبحانه فقد يكون العظيم عند الله تعالى رؤية جماله سبحانه يوم القيامة والنظر إلى وجهه العلى العظيم فى أو غير ذلك مما هو فوق العقول.

قوله تعالى : **"وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ"**(14).

معنى هذه الآية أن الله يتوعد الذين يعصون أمره الذى صرح به فى قسمة الميراث وإعطائه لمستحقيه ممن فرض الله لهم الفرائض أو الأنصبة والسهام وبين ذلك رسول اللهε بالعمل والقول.

"وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ" فيما بينته لك وبينه رسول اللهε بقوله وعمله **"وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ"** أى يتجاوز ما جعله الله حدا فاصلا بين الحق والباطل مخالفة لأمر الله.

"يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ" أى أن الله تعالى يدخل نار جهنم خالدا فيها كل من خالف أمر الله ، فلم يؤد للورثة من اليتامى والزوجات والوالدين حقوقهم التى أمر الله بها بأن يطمع فى الميراث أو يعطى غير من له حق لمنفعة نفسه ويتجاوز حدود الله التى حدها لعباده المؤمنين فى تقسيم تركة المتوفى ، وفى قوله تعالى : **"يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا"** دليل على أن مرتكبى معصية الله فى هذا الموضوع يكون بين أمرين.

أما أن يكون منكرا أمرا معلوما من الدين بالضرورة وبذلك يكون كافرا، أو يكون محاد الله فيقع فى النفاق الذى هو الكفر بالله بدليل قوله تعالى : "أن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار" وقد وقع فى هذا أهل النفاق فى عهد رسول اللهع ، كما ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن بعض المنافقين قال كيف نعطى نصف المال لابنه صغيرة لا تدفع العدو ولا تحوز الغنيمة إنكارا لما أمر الله به ، لأن المسلم لا يحرم الأيتام الصغار والنساء من مال التركة الذى فرضه الله لهم أبدا ولا يعمل هذا العمل إلا منافق أو كافر لأن الأيتام الصغار والنساء لا عائل لهم فحرمانهم مما هو لهم شرعا كقتلهم ، ولا تسلب الرحمة إلا من قلب شقى حفظنا الله وإخواننا المؤمنين مما يوقع فى غضب الله تعالى.

قوله تعالى : **"وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا"**(15).

بعد أن بين الله تعالى أحكام الميراث مبتدئا بالوالدين والأولاد ثم بالأزواج ثم بالكلالة أردف ذلك بهذا الحكم وهو بيان من يرتكب الفاحشة ، وقبل أن نشرح هذه الآية نبين ما يتبادر إلى الذهن من فهم ظاهرها وأن كانت الآية لا تقيده لأن قوله تعالى "واللاتى" والكلمة هى جمع التى أو هى اسم جمع لا مفرد له من لفظه وهى لجمع الإناث . يبين الله لنا حكم مرتكبي الفاحشة وهى الزنا – أن الحكم على النساء حبسهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ، وذلك بعد اعترافهن أو إثبات ذلك بشهادة أربعة من المسلمين.

وفى هذه الآية إشارة إلى ستر الله عليهم لأن هذا العمل لا يقع من بنى الإنسان إلا فى خلوة مجهورة لا يراهما فيما أحد ، فتقييد القرآن بأربعة فى شهادة الزنا الأمر الذى يكاد أن يكون متعسرا ، وقولهع "أدروا الحدود بالشبهات" دليل على فحش الزنا دينا وقبحه أمام الناس ، كأن من يثبت عليه يكون موته عنده أخف عليه من فضيحته بين الناس ، ولأن الاتهام به لا يثبت إلا بأربعة شهداء وقاية للناس من التهم الباطلة التى هى أشد من القتل.

"حتى يتوفاهن الموت" أى ملائكة الموت ، وحكمة ذلك أن من ثبت عليه الزنا أو عليها انتشرت فضيحتهما بين الناس وسلب منهما الحياء فيقعان فى الزنا أو عليها انتشرت فضيحتهما بين الناس وسلب منهما الحياء فيقعان فى الزنا غير مبالين ، أو يجعل الله لهن سبيلا" ، وهو الجلد للبكرين والرجم لغيرهما أى للمتزوجين.

قوله تعالى : **"وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا"**(16).

أى والرجل والمرأة يتغلب الرجل على المرأة اللذان يأتيان الزنا فآذوهما بالتوبيخ والإذلال ولو بالضرب بالنعال على رءوسهما حتى يحصل لهما الذل والخزى بين الناس.

"فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا" أى فإن رجعا على الله بالتوبة والندم على ما وقع منهما وأصلحا أعمالهما بإخلاص فأعرضوا أى فاتركوا أذيتهما بعد التحقق من توبتهما وإصلاحها.

"إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا" أى أن الله يقبل التوبة ممن تاب ويرحمه إحسانا منه سبحانه وفضلا ، وهذه الآية أيضا نسختها آية الزنا فى سورة النور.

قوله تعالى : **"إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا"**(17).

افتتح سبحانه الآية بأداة الحصر بيانا لما يحبه الله تعالى من العبد وما يحبه العبد من الله تعالى عند قبول توبته وعفوه عن ذنوبه ، وقد بينا معنى التوبة وآدابها فى سورة البقرة ، وهنا يبين الله شروط التوبة المقبولة بقوله : **"إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ"** أى قبول الله تعالى التوبة من العبد فضل منه وإحسانا لا وجوبا عليه كما فهم ذلك بعضهم فإن الله تنزه وتعالى عن أن يجب عليه لعبده شئ فإن الواجب يكون على من احتاج لغيره ، والله تعالى غنى بذاته عما سواه ومن سواه.

"لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ" فهم بعضهم قوله تعالى : "بجهالة" أى يجهلون وعيد الله فى عمل السوء وهذا الفهم لا تؤيده آيات التوبة فى القرآن المجيد وقد ورد عن الصحابة رضى الله عنهم أن عامل السوء مطلقا سواء أكان عالما بجزاء الله تعالى أو جاهلا به حتى علم السوء بجهالة ، قال تعالى مخبرا عن يوسف الصديق **"وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ"**[1] ، وقوله تعالى مخبرا عنه أيضا لأخوته . **"قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ**

([1]) سورة يوسف : 33.

مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ"[1] . فظهر لنا أن فاعل السوء جاهلا به سواء أكان عالما بعاقبته أو جاهلا يكون مقبول التوبة إذا تاب عن قريب كما أخبر الله تعالى سواء كان عالما بما توعد الله به عامل السوء أو جاهلا وإلا لو فهمنا كما فهم من قرر أن قوله تعالى : "بجهالة" أى بجهالة جزاء عمل المسئ لما قبلت توبة من أذنبوا لأن كل مؤمن يعلم حق العلم ما توعد الله به فاعل السوء.

وهل يجهل حرمة الزنا وشرب الخمر والكذب والغيبة والنميمية وأكل مال اليتيم والربا مسلم – والجواب – لا أحد إلا من دخل فى الإسلام حديثا ، وعلى هذا فقوله تعالى : "بجهالة" أى رجوع إلى حقيقة الآدمية – قال الله تعالى : **"وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا"**[2] . والعصمة من الله تعالى للعبد بمواجهة العبد بوجهه الجميل مواجهة تجعله فى مراقبة دائمة ، فإن الإنسان من حيث هو إنسان إذا لم يتفضل الله تعالى على حقيقته الإنسانية بزيادة أنواع من الخير هلك . قال الله تعالى : **"وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ"**[3] والمحبب غير المحب فهو الزيادة ، والزينة غير المزين وهى الزيادة الثانية ، وفى آية أخرى **"أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ"**[4] ، والكتابة غير المكتوبة فيه ، والتأييد غير المؤيد ، فلو وكل الله الإنسان إلى نفسه ولم يتفضل عليه بحب الإيمان وبزينته فى قلبه وبكتابته هلك فكذلك هنا . إذا منح الله العبد هذه الأنواع من الخير سارع إلى محاب الله ومراضية ، فإذا التفت الله تعالى عنه بوجهه الجميل فحجبه عن مشاهدة محبة الإيمان وزينته فى قلبه وكتابته رجع إلى جهالته الأولى فوقع فيما حرم الله تعالى ، وهذا معنى قوله تعالى : **"إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ"** أى يرجعون بالتوبة والندم والإنابة إلى الله تعالى قبل وقوع آفات الموت أو آيات نزوله كرؤية ملائكة الموت أو كالحشرجة والغرغرة ، وهى الآثار التى تسلب العقل وتحير الروح وتخرج الإنسان عن التكليف ، وأما مادام المسلم فى سلامة من تلك العلامات ولو قبلها بنفس وتاب قبل الله توبته كما فى شروط التوبة التى بينها الله تعالى فى هذه الآية وقد شرحت نبذا من التوبة فى سورة البقرة قبل ذلك فليراجعها من يريد.

"فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ" الإشارة عائدة إلى من ذكرهم الله فى هذه الآية بقوله : **"إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ"** الآية ويتوب عليهم اى يقبل توبتهم ويغفر سيئاتهم ويرجع إليهم ما يحبونه.

"وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا" عليما بمسارعة عبادة التوابين إلى التوبة "حكيما" يقبل التوبة بحكمته ويغفر الذنوب ويبدلها بحسنات بمقتضى الحكمة العلية . ولفظة "كان" يراعى الاستمرار.

قوله تعالى : **"وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا"**(18).

بين الله تعالى فى الآية السابقة توبة المؤمنين وشرائطها وأنه سبحانه يقبلها ، وذكر فى هذه الآية توبة أهل النفاق أو توبة العصاة من المسلمين الذين يلههم الأمل ، قال تعالى : **"وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ"** أى وليست التوبة المقبولة كائنة للذين يعملون السيئات أى يرتكبون معاصى الله تعالى مع الغفلة عن التوبة وعن ذكر يوم القيامة.

"حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ" أى إلى أن يحل بهم علامات الموت وإثارة ويئسون من الحياة فيتوبون توبة فرعون أو توبة من يقول **" رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ"**[5] حيث أغلق باب التوبة فى وجوههم فلا يقبل الله منهم توبة ولا معذرة "قال أني تبت الآن" أى رجعت فى هذا الوقت الذى فيه ينزع ملك الموت روحه.

"وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ"فى هذه الآية الشريفة بين توبة أهل الكفر بالله تعالى الذين لا يقبل الله منهم صرفا ولا عدلا.

"أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا"

اسم الإشارة عائد على الذين لم يقبل الله توبتهم وأعتدنا أى أعددنا وأعتد وأعدد بمعنى واحد ، والعذاب الأليم هو المؤلم.

---

(1) سورة يوسف : 89.
([2]) سورة النحل : 78.
(3) سورة الحجرات : 7.
(4) سورة المجادلة : 22.
([5]) سورة المؤمنون : 100.

قولـه تعـالى : **"يَـا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُـوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُـوا النِّسَـاءَ كَرْهًـا وَلَا تَعْضُلُـوهُنَّ لِتَـذْهَبُوا بِـبَعْضِ مَـا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِـالْمَعْرُوفِ فَـإِنْ كَرِهْتُمُـوهُنَّ فَعَسَـى أَنْ تَكْرَهُـوا شَـيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا"**(19).

ينـادى الله تعـالى المؤمنين بقولـه : **"يَـا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُـوا"** أى صـدقوا لا يحـل لكم أن ترثـوا النسـاء كرهـا ، والميراث أما عن النساء كما كان يفعل الجاهلية الأولى حيث كان الرجل إذا مات أبوه يضع ثوبه على زوجة أبيه فيقول ورثتها كما ورثت ماله ، وله عند ذلك أن يتزوجها ، أو يعقلها فيمنعها من الزواج ، أو يزوجها غيره ولا يكون لأهلها تصرف فى ذلك.

وسبب نزول هذه الآية أن أبا قيس بن الاسلت مات فأراد أبنه أن يتزوج امرأته كعادة الجاهلية فأنزل الله هذه الآية بيانا للمؤمنين أن زواج الولد زوجة أبيه محرم شرعا وأن المرأة ليست ميراثا.

وجائز أن يكون **"لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ"** نهيا عن ميراث أموالهم التى جعلها الله لهم من ميراث أو صداق "كرها" الكره بالضم ما يكره عليه الغير ، والكره بالفتح ما يضطر الإنسان للوقوع فيه كارها ،وكانوا يرثون أموال النساء بأن يؤذى الرجل المرأة ويلجئها أن تفتدى نفسها منه بصداقها أو بما معها من المال أو بـأن يحبسـها فـى البيت حتى تموت فيرث مالها.

وفى هذه الآية بيان من الله تعالى لتحريم ما يفعله أقارب النساء كـالأخ والـولى والقريب من مضـارة النساء حتى يمتن ليرث مالهن ، وفـى ذلك من قسوة القلوب ومخالفة علام الغيوب مـا يوجب غضب الله وشديد عقوبته لمخالفته.

"وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ" العضل هو الحبس والمنع فيقال داء عضال أى يحبس الإنسان ويمنعه من قضاء حوائجه ، فكذلك عضل النساء حبسهن ومنعهن مما فرض الله لهن وذلك صادر عن الزوج والولد والأخ والولى.

"لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ" أى لتضيعوا عليهن بعض الصداق أو بعض ما لهن من الميراث.

"إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ" والاستثناء من الأحكام السابقة فى الآية والفاحشة أنواع : -

منها أن تكون المرأة حمقى شريرة سيئة المعاشرة مع الزوج.

ومنها أن تبغض والديه وأقاربه وأولاده من غيرها.

ومنها من تخونه فى ماله ومنها أن تكون زانية ويثبت عليها ذلك بشهادة أربعة شهداء ، فإذا أتين بفاحشة مبينة ظاهرة لا تخفى حل للرجل أن يعضلهن فيحبسهن فى البيت أو يمنع منهن مالهن.

"وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ" المعروف الذى يتعارفه أهل التقوى والرحمة بالقيام لها بما يعفها وبغنيها عن الابتذال والامتهان بقدر طاقته.

"فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا" فإن كرهتم نساءكم ودعاكم كرهكم لهن إلى المفارقة فعاشروهن على هذا الكره فعسى أن تكرهوا معاشرتهن ويجعل الله فيها خيرا كثيرا – أى يرزقكم منها بولد صالح يكون خيرا لكم وسرورا أو يثيبكم على صبركم على معاشرتهن بالنعيم المقيم يوم القيامة ، والخير فى الدنيا بقدر مجاهدة أنفسكم ذلك.

وقد فهم بعض العلماء فى قولـه : "فعسـى أن تكرهوا شيئا" أى فعسـى أن تكرهوا المفارقة ويجعل الله فيها خيرا كثيرا ، أى يعوض على المرأة برجل صالح يكرمها ، وهذا المعنى بعيدا عن ظاهر الآية وأمرنا أن نعاشروهن متحملين ابتغاء مرضاة الله.

قولـه تعـالى : **"وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْـهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَـهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا"**(20)

قولـه تعـالى : **"وَكَيْفَ تَأْخُذُونَـهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا"**(21).

قولـه تعـالى : **"وَلَا تَنْكِحُـوا مَـا نَكَـحَ آبَـاؤُكُمْ مِـنَ النِّسَـاءِ إِلَّا مَـا قَـدْ سَـلَفَ إِنَّـهُ كَـانَ فَاحِشَـةً وَمَقْتًـا وَسَـاءَ سَبِيلًا"**(22)

بعث حبيبه محمداع فختم به الأنبياء وجعل دينه ناسخا لكل الأديان قبله مع استمراره إلى الأبد.

"إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا" أى أن نكاح منكوحات الوالد أمر فاحش عقلا وشرعا ، وكيف يرضى الرجل أن يتزوج زوجة أبيه ، وينكح مملوكته ذلك ما لا يقبله العقل ولا الشرع ، ولكن الجاهلية أعاذنا الله منها ليست لهم عقول تدرك الفضائل والكمالات "ومقتا" أى يمقته الله ويمقته العقلاء. "وساء سبيلا" أى قبح عملا وطريقا.

قولـه تعـالى : **"حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا"**(23).

بعد أن بين سبحانه حكم الميراث والزنا ومعاشرة النساء ، بين لنا ما حرم علينا أن ننكحهن من النساء فقال سبحانه : **"حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ"** ووجه التحريم ظاهر وحكمته واضحة.

"وَعَمَّاتُكُمْ" والعمة ما يدلى نسبك إليها لرجل ، والظاهر أن حكمة تحريمها المحافظة على البر والصلة ، لما يقع بين الزوجين مما قد يوقع فى العقوق والقطيعة ، ومن جهة الصحة أن الأسرة الواحدة إذا كانت مريضة بمرض وتزوج الرجل بالتى حرمها الله عليه لسبب القرابة يفشو هذا المرض وينمو ، قالع "تباعدوا لئلا تضوا" وقد ظهر ذلك فى علم الوراثة فترى الرجل إذا زرع بذور الأرض فيها ضعف الزرع ولذلك فإنه يأخذ بذور بلاد لبلاد أخرى حتى تصح الزراعة.

"وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ" وحكمة تحريمهن لما قررناه فى العمة.

"وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ" وهذا الحكم مقيد بشروط.

1- ان يكون الذى يرضع فى سن الرضاع الذى تتكون فيه الأعضاء من لبن المرأة.
2- أن يرضع حتى يشبع ولو مرة واحدة لا مصة ولا مصتين.

وحكمة ذلك اجتماعية وصحية ، أما الحكمة الاجتماعية فالمرأة التى أرضعت الإنسان يجب أن ينزلها منزلة الأم احتراما وتعظيما كما أنها تكون كبيرة عنه فى السن كبرا فاحشا ن وزواج المرأة الكبيرة فى السن أثبت الأطباء أنه مضر بالرجل منهك لصحته وقوته.

"وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ" حكمة ذلك من جهة الصحة ما قررناه قبلا ومن الوجهة الاجتماعية كراهية قطيعة الرحم وعقوق الأم الرضاع.

"وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ" والحرب بين البنت ووالدتها ، وبعد موت الزوجة دليل على فقد الحرمة من قلب الزوج وأم الزوجة ، وفقد الفضيلة وحرمانه من واحدة منهما يوم القيامة، لأن الله لا يجمع بينهما يوم القيامة كما حرم ذلك فى الدنيا ، ورجل وامرأة يحرمان الحياء والفضيلة والوفاء بالعهد ضعيفا الإيمان ، وقد حرم الله ذلك.

تم الجزء الرابع
ويليه الجزء الخامس ان شاء الله